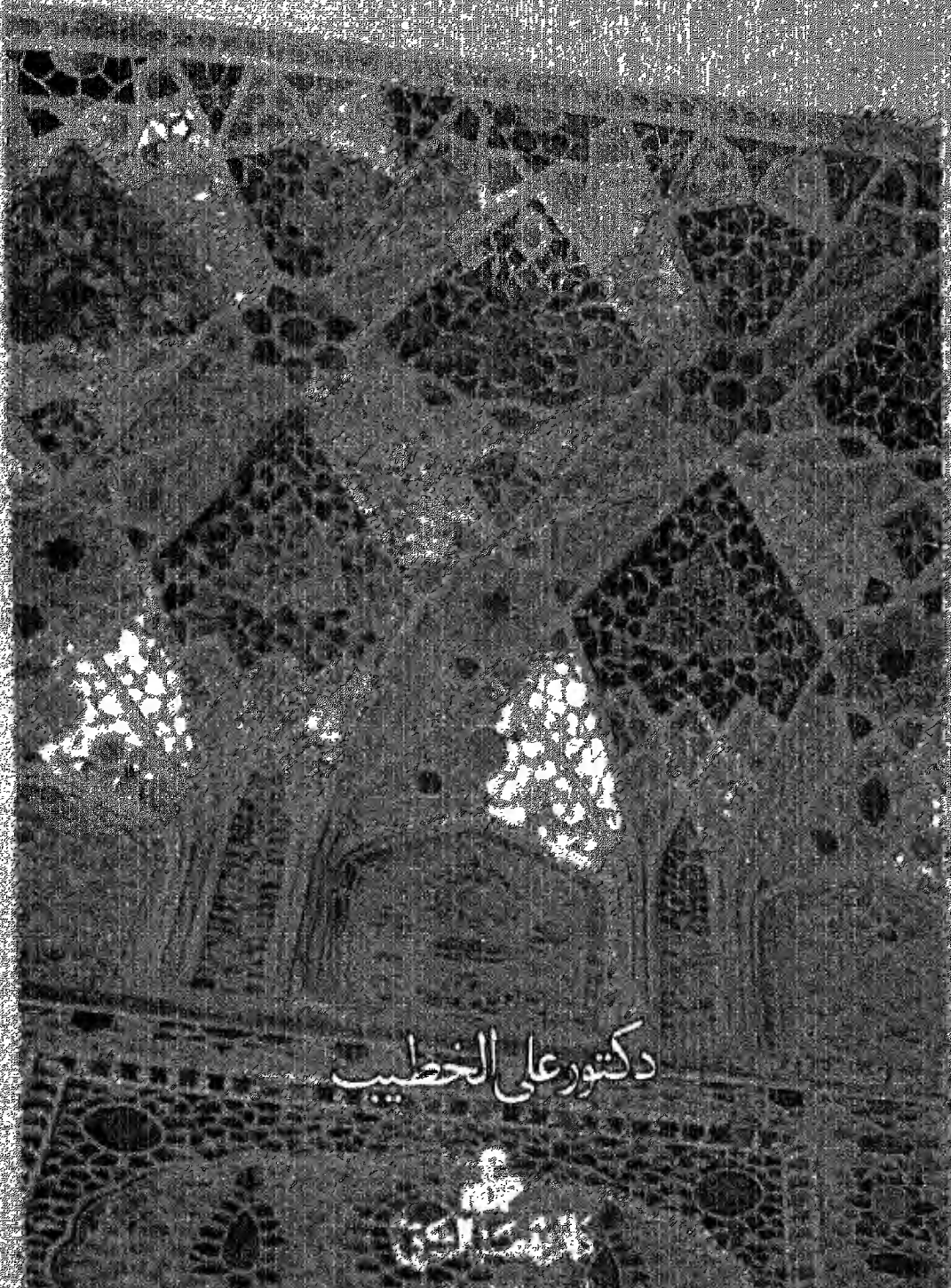


رياض الادب الموهب



دكتور على الخطيب

دار النشر

الطبعة الاولى ١٩٨٤

في رياض الأدب الصوفي

دكتور

على أحمد عبد الهادي الخطيب

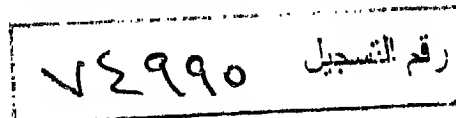
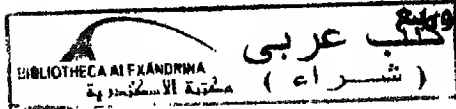
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



دار نهضة الشرق

للطباعة والنشر والتوزيع



الكتاب : في رياض الأدب الصوفي

المؤلف : دكتور على أحمد عبد الهادي الخطيب

رقم الطبعة : الطبعة الأولى

تاريخ الإصدار : يناير - ٢٠٠١ م

حقوق الطبع والنشر : محفوظة للناشر

الناشر : دار النهضة الشروق .

الإدارة والتوزيع: ٣٢ شارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) تقاطع طلعت

حرب مع عبد الخالق ثروت - الدور الثاني شقة (٨)

ت : ٠١٢٢٢٥٩٧٨٨ / ٠١٢٢٤٦٢٤١٩

المكتبة : جامعة القاهرة - بجوار كلية دار العلوم .

العنوان البريدي : مكتب بريد جامعة القاهرة بالجيزة .

رقم الإيداع : ٢٨٥٤ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-245-127-1

إهداء

إلى روح والدي كفاءاً ما قدّما لي ،
وجزاء ما أحسنا .
ثم إلى عشاق الأدب الصوفي
والمتعطشين إلى الوصل والكشف
والمشاهدة .

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنار محبته، واستوفى همهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته. وصلى الله وسلم على الزاهد الأول سيد الأولين والآخرين إمامنا وقُدوتنا، ورائدنا وعظيمنا وزعيمنا سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد ،،

فإن هذا الكتاب دراسة متواضعة للأدب الصوفى، ومذاهبه وألوانه مع الترجمة لبعض أعلام المتصوفة، والدراسة والتحليل لبعض النصوص الأدبية، وقد حوى هذا الكتاب موازنات بين التصوف والعلم، والتصوف والفلسفة والتصوف والزهد، والتصوف والفقه، والصوفية والتصوف، ودرجات السلوك، وأفكار المتصوفة، واصطلاحات الصوفية، وشطحاتهم ثم الشعر الصوفى سماته وألوانه، والنثر الصوفى خصائصه وألوانه من مناجاة وأدعية، وحكم صوفية رائقة ذات صبغة فنية عالية ثم تعرضنا لمكاتبات الصوفية والصدور والدعوات والرسائل ذات الصبغة الأدبية الرائعة والتي تدل على الصدق الفنى، والذوق الأدبى الرفيع حيث جاءت هذه المكاتبات والصدور والرسائل والدعوات والمناجاة والأدعية والحكم معبرة أصدق تعبير عما يختلج في صدور هؤلاء المتصوفة من وجد وحب وعشق وهيام مع صفاء الروح وتفتح البصيرة ﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى



الصدور^(١). مع جودة السبك ومثانة النسيج ، ونصاعة الديباجة ، وانتقاء الألفاظ وتخير الأساليب كل ذلك في نغم موسيقى حالم.

وربما سائل يسأل هل نحن في حاجة إلى التصوف فى عصر الفضاء والذرة؟ ونحن نقول إن العالم اليوم فى عصر الإزدهار الحضارى فى مسيس الحاجة إلى التصوف فكلما ازدهرت الحضارة وأصيب الناس بسعار الماديات وتكالبوا على جمع الأموال حيناً، وسرقفها أحياناً فى ظل الرقى الحضارى المزعوم - هنا تتحدر الأخلاق وتداس القيم بالأقدام، وتنمحي المبادئ، وتسود الفتن وتنتشر الرذائل، وتعم الفواحش وبخاصة فى هذا العصر الأنكد، كان الناس فى حاجة إلى الروحانيات واللجوء إلى الله عز وجل حيث لا ملجأ من الله إلا إليه.

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾^(٢).

ويقول تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ریح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾^(٣).

(١) سورة الحج الآية ٤٦ .

(٢) سورة الأنعام آية (٤٠ ، ٤١) .

(٣) سورة يونس آية (٢٢) .

ففي خضم الانحلال والصراع المادى يبقى التصوف مدرسة تكون الرجال، وتسمو بالروح فى شمم وإياء ، وعزة ورفعة ، وعفة وسمو وطهر. فنرى بلذا مثل "السويد" دخل الفرد فيها يتفوق على دخل الفرد فى الولايات المتحدة ومع ذلك نرى أعلى نسبة الانتحار فى "السويد" لأن الروحانيات لديهم معدومة. فنحن فى حاجة ماسة إلى التصوف ليعيد للمسلمين المعرفة الروحية ولنكون موصولين بالسماء ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾^(١) فمجتمعنا اليوم فى مسيس الحاجة إلى التصوف ليخفف عنا ويلات الحياة وبعث الرضا الروحى فى نفس كل محروم أو منكوب أو صاحب "عقدة نفسية بلغة العصر الحديث" فالتصوف طب الأرواح وهو يقود إلى الأمن والأمان الحقيقين فى حياة كلها صراعات مادية، وأخلاق لا إنسانية، ونفاق وملق مقيت، ودسائس وفتن. كل ذلك يدعونا إلى اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، والتعلق بالسماء، والتصوف الإسلامى المقبوس من كتاب الله عز وجل سنة رسوله ﷺ .

﴿وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾^(٢).

شطورة فى غرة المحرم لسنة ١٤١٧هـ

الموافق ١٩ من مايو ١٩٩٦م

وهو تاريخ الفراغ من تأليفه

دكتور

على أحمد عبد الهادى الخطيب

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) سورة هود الآية ٨٨ .

ماهية التصوف :

التصوف فى حقيقته إيثار وتضحية، تضحية بالذائد والشهوات وإيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للأجل، مجاهدة للنفس ومغالبة لأهوائها^(١).

هو نزوع فطرى إلى الكمال الإنسانى، إلى التسامى والمعرفة عن طريق الكشف الروحى، أو العلم اليقينى الناشئ عن الإلهام الإلهى والنظر العقلى والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية^(٢). والتصوف روح لمجموع حقائق الإسلام من عبادة وإيمان ويقين وعرفان^(٣). وهو إيثار الحق على رغبات النفس. يقول الجنيد: (التصوف هو أن يملكك الحق عنك ويحييك به) ويقول الكرخي: هو (الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدي الخلائق).

ويقول أبو الحسن الشاذلى: (هو تدريب النفس على العبودية وردها إلى أحكام الربوبية). وسئل أحد الصوفية عن معنى التصوف فقال: معناه (أن العبد إذا تحقق بالعبودية واتصف بشهود حقائق الربوبية صفا من كدر البشرية فنزل منازل الحقيقة وأخذ بمكارم الشريعة، فإن فعل فهو الصوفى). والصوفى أحد ثلاثة كما يقول السرى السقطى: (واحد لا يطفىء نور ورعه نور معرفته، وواحد لا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر من الشر، وواحد لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله)^(٤).

(١) نشأة التصوف لعبد الكريم الخطيب العدد ٢٢ من سلسلة الثقافة الإسلامية.

(٢) المدخل إلى التصوف الإسلامى - تأليف محمود أبو الفيض المنوفى ص ٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٠.

(٤) الرسالة التفسيرية للإمام القشيري تحقيق د. عبدالحليم محمود، د. محمود بن الشريف، ط القاهرة، ص ١٢٨، ١٢٩، واللمع لأبى نصر السراج الطوس، ص ٤٥-٤٨.

ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال: (إن الإسلام يأخذ عند الصوفية طابعاً من الجمال والكمال والإنسانية العالية والأخوة العالية لا نجده في إسلام الفقهاء والمتكلمين^(١)).

ويقول الطوس في اللمع عن الصوفية: إنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة، وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة^(٢).

وقيل لأبي عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ما معنى الصوفي، فقال: ليس نعرفه في شرط العلم ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب كان مع الله عز وجل بلا مكان ولا يمنعه الحق من علم كل مكان، سمي صوفياً^(٣). ويقول الغزالي في المنقذ من الضلال عن طريق الصوفية: إنها قطع عقبات النفس والتزهد عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، ويقول ابن تيمية في رسالة عن الصوفية: الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلاً من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر^(٤).

الفرق بين الصوفي والزاهد:

إن الزهد أول حركات التصوف في الإسلام، وقد انتشرت حركة الزهد في عصر الرسول ﷺ وبعده، خاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك، وفرق بين التصوف والزهد.

(١) اللمع لأبي نصر السراج الطوس تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طه مسرور، ص ٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠.

(٣) اللمع لأبي نصر السراج الطوس، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طه مسرور، ص ٤٦.

(٤) دراسات في التصوف الإسلامي للدكتور عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ص ٣٢.

فالتصوف: زهد في الدنيا لكسب رضا الله، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة.

والتصوف دخول في جمال الملائكة الأعلى ورحمته، والزهد دخول في مجال التقوى خوفاً من عذاب الله ونقمته وجبروته.

فالتصوف فلسفة روحية في الإسلام، والزهد منهج عملي من مناهج بعض المسلمين، وله نظائر في الديانات القديمة^(١).

تقول رابعة العدوية في تساؤل ودهشة: (أولو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ! ولم يخشاه أحد !).

وقال سفيان الثوري لرابعة العدوية: ما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبده خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء، عبده شوقاً إليه. (وكل المتصوفة في هذا رابعة) يقول ابن الفارض:

وعن مذهبي في الحب مالى مذهب

وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتي

ولو خطرت لي في سواك إرادة

على خاطري سهواً قضيت برئتتي^(٢)

ويقول ابن سينا في (الإشارات والتبهمات) واصفاً للعارف الصوفي وهو من روائع الكلم في هذا المقام:

(١) المدخل إلى التصوف الإسلامي تأليف أبو الفيض المنوفي ، ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) دراسات في التصوف الإسلامي للدكتور خفاجي، ص ٢٣، الناشر مكتبة القاهرة.

(العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره، ولا يؤثر شينا على عرفانه، وتعبد له فقط، ولأنه مستحق للعبادة، ولأنها نسبة شريفة إليه، لا لرغبة أو رهبة، وإن كانت فيكون المرغوب فيه، أو المرهوب منه هو الداعي، وفيه المطلوب ويكون الحق ليس الغاية، بل الوساطة إلى شيء غيره هو الغاية وهو المطلوب دونه)^(١).

وإنما اختص لعارف بأنه لا يؤثر شيئا غير الحق على عرفانه لأن غير العارف يؤثر نيل الثواب والاحترار عن العقاب على العرفان، أما العارف فلا يؤثر شيئا عليه إلا الحق الذي هو فقط مؤثر لذاته بالقياس إليه وقوله (وتعبد له فقط) إشارة إلى تعلق عبادة العارف أيضا بالحق فقط فهو لا يعبد له هدف آخر يرجوه من ورائه، أنه لا يجعل الحق وساطة لأجر يناله أو مثوبة يطمع فيها، إن الحق غايته لقد عرف اللذة الحقة وولى وجهه سمتها فكان من المستبصرين بهداية القدس. ولقد أنزل الدين هداية ورحمة فاستفاد منه بعض الناس الأمن والطمأنينة، واستفاد منه بعض آخر زيادة على ذلك الأجر الجزيل في الحياة الأخرى، أما العارفون فقد غمرتهم نعمة الله. واستفادوا من الدين أمنهم وطمأنينتهم في هذه الحياة ولن يحرمهم الله مثوبته يوم القيامة. هذا فضلا عما ينعمون به في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى من البهجة بالحق ومن الاستمتاع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(١) الإشارات والتبهيئات لأبي على بن سينا مع شرح نصير الدين الطوس وبتحقيق الدكتور سليمان دنيا أستاذ الفلسفة المساعد بكلية أصول الدين القسم الثالث الرابع دار المعارف، ص ٨١٠، ٨١٥.

ثم يقول ابن سينا (العارف هـش بش بسام، يبجل الصغير من تواضعه كما يبجل الكبير، وينبسط من الخامل مثلما ينبسط من النبيه، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شىء فإنه يرى فيه الحق، وكيف لا يسوى والجميع عنده سواسية؟. أهل الرحمة قد شغلوا بالباطل)^(١).

ثم يقول ابن سينا: (العارف له أحوال لا يحتمل فيها الهمس من الحفيف، فضلاً عن سائر الشواغل الخالجة وهى في أوقات انزعاجه بسرّه إلى الحق، إذا تاح حجاب من نفسه أو من حركة سرّه قبل الوصول. فأما عند الوصول فإما شغل له بالحق عن كل شىء وأما سعة للجانبين بسعة القوة. وكذلك عند الانصراف فى لباس الكرامة فهو أهش خلق الله بيهجته)^(٢).

والمعنى أن للعارف أحوالاً لا يحتمل فيها الإحساس بشاغل يرد عليه من خارج ولو كان ذلك الشىء أضعف مما يحس به فضلاً عما فوقه وتلك الأحوال تكون في أوقات توجهه بسرّه إلى الحق. أو قدر له حجاب. أما من جهة نفسه كما يرد عليها ما يزيل استعدادة للوصول أو من جهة حركة سرّه كان يتمثل فى فكره فيعرض له الالتفات إلى شىء غير الحق.

ويقول (العارف لا يعنيه التجسس والتحسس ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة فإنه مستبصر بسر الله فى

(١) المرجع السابق، ص ٨٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٤٤، ٨٤٥.

القدر. وأما إذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معيب. وإذا
جسم المعروف فربما غار عليه من غير أهله^(١).

ومعناه أن العارف لا يهتم بتجسس أحوال الناس وذلك لكونه مقبلاً
على شأنه فارغاً عن غيره، غير متتبع لعورة أحد ولا يستهويه الغضب
عند مشاهدة منكر بل تعتريه الرحمة وذلك لوقوفه على سر القدر، وإذا
أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا يعنف معيب أمر الوالد ولده وذلك
لشفقته على جميع خلق الله.

ويقول (العارف شجاع وكيف لا، وهو بمعزل عن تقيه الموت؟
وجواد وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل وصفاح للذنوب وكيف
لا ونفسه أكبر من أن تجرحها ذات بشر. ونساء للأحقاد وكيف لا
وذكره مشغول بالحق)^(٢).

ثم يقول: (إن للعارفين مقامات ودرجات يخصصون بها. وهم في
حياتهم الدنيا دون غيرهم فكأنهم وهم في جلايب من أبدانهم قد نضوها
وتجردوا عنها إلى عالم القدس ولهم أمور خفية فيهم وأمر ظاهرة
عنهم يستكبرها من ينكرها، ويستكبرها من يعرفها)^(٣).

والمعنى فكأنهم وهم في جلايب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا
عنها إلى عالم القدس أن نفوسهم الكاملة وإن كانت في ظاهر الحال
ملتحفة بجلايب الأبدان لكنها كأن قد خلعت تلك الجلايب وتجردت من
جميع الشوائب المادية وخلصت إلى عالم القدس متصلة بتلك الذوات

(١) المصدر السابق، ص ٨٤٦، ٨٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٨٤٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٨٩، ٧٩٠.

الكاملة البريئة عن النقصان والشر. ولهم أمور خفية فيهم هي مشاهداتهم لما تعجز عن إدراكه الأوهام وتكل عن بيانه الألسنة وابتهاجاتهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت وهو المراد من قوله عز من قائل : «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين»^(١) وأمر ظاهر عنهم هي آثار كمال وإكمال، تظهر من أقوالهم وأفعالهم وآيات تختص بهم التي من جملتها ما يعرف بالمعجزات والكرامات وهي أمور يستكرها من ينكرها أى لا يسكن إليها قلب من لا يعرفها ولا يقربها. ويستكرها من يعرفها أى يستعظمها من يقف عليها ويقر بها.

الفرق بين الفقه والتصوف :

الفقه علم بأحكام الشريعة، والتصوف عمل بها، والفقه من علوم الظاهر والتصوف من علوم الباطن. ومصادر الفقيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس وهي مصادر - كذلك - للتصوف ولكنه يستمد مادة فهمه لتلك المصادر من الوجدان والذوق والروح والإلهام.

بينما يستمدها الفقيه من عقله ونصه. والعمل والعبادة اللذان توجبهما معرفة الأحكام الشرعية هما وقوف عند حدود الظاهر.

أما العمل والعبادة اللذان يوجبهما التصوف فهما لا يقفان عند غاية ولا عند حد^(٢).

(١) سورة السجدة الآية ١٧ .

(٢) المدخل للتصوف الإسلامي للمنوفى، ص ٢٣.

علم التصوف :

أما علم التصوف فقد ظهر في القرن الثالث الهجري على أيدي الجنيد ومدرسته وإن كان التصوف نفسه قد ظهر في القرن الثاني، ويقول ابن خلدون في علم التصوف:

(هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشى الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم "الصوفية والمتصوفة" (١).

ويقول أبو طالب المكي في "قوت القلوب":

(هذا العلم "التصوف" ثمة قول: "لا إله إلا الله" فهو حقيقة التوحيد والتنزيه ولا يؤتيه ويعلمه إلا أولياؤه المتقون المعلمون وعباده الصالحون وهم أهل القلوب السليمة الصالحة والجوارح الخاشعة الذاكرة، والألباب الراجحة الفاخرة وهم ثلاث طبقات من المقربين المحبوبين والمتقربين المحبين، ثم أهل اليمين وهم أهل الله وأهل العلم بالله وأهل الحب في الله ولله، وأهل الخوف من الله، استحضرهم فحضرهم واستحفظهم سره فحفظوا وأشهدهم على وجوده من قبل خلقهم

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٧٠.

فشهدوا، فهم الأدلة منه عليه، وهم دليلهم إليه، وهم جامعو العبادة به عليه وهم الربانيون من العلماء أئمة المتقين، وأركان الهدى والدين أولو القوة في الله، والتمكين كشف لهم عن أسرار الكتاب الكريم وهداهم إلى الصراط المستقيم، وهم المفردون المقصودون بالسبق والمزيد، فضلهم على من سواهم من المؤمنين، كالقراء والعباد، وأهل المجاهدة والزهد، واختارهم لنفسه واختصهم بأنهم خواص عباده).

ثم قال: (ويحمل القول في التصوف أنه مرحلة تأتي عقيب الفهم لكلمة التوحيد والتمسك بالكتاب والسنة حيث لا يمكن العبد الوصول إلى الله، وكشف الأسرار إلا بعد التحقق عن طريق الاسترشاد بالدستور السماوي والتمسك بالهدى النبوي)^(١).

اشتقاق كلمتي تصوف ، صوفى :

والآن نتساءل: ما أصل كلمتي "تصوف" و "صوفى" الذى انتقلنا منه إلى المعنى الاصطلاحي المقصود وهو الطاعة والمحبة الإلهية والشوق الخالد.

يقال للرجل صوفى وللجماعة صوفية، ومن يدرك هذه المنزلة الروحية يقال له: متصوف، وللجماعة: متصوفة ويقال للرجل: تصوف.. إذا سلك مسالك الصوفية.

ويقول الإمام القشيري: إنه ليس يشهد لهذا الاسم "صوفى" - من حيث العربية - قياس أو اشتقاق، والأظهر فيه أنه كاللقب^(٢).

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي، ج١، ص ١٢٠.

(٢) الرسالة القشيرية، ج ٢، ص ٥٥٠.

إن اسم الصوفى لفظ حادث بعد الإسلام كما سبق، وليس من ألفاظ الجاهلية، ولا ريب أن الرواية التى تقول: إنه كانت مكة قبل الإسلام تخلو فى وقت من الأوقات حتى لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجىء من مكان بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف .. رواية ضعيفة بلا ريب إذ لا دليل عليها.

إذن فمن أين أخذت كلمة "صوفى"؟

هنا يقع الخلاف وتضطرب الآراء، فكثير من المستشرقين يذهبون إلى أن كلمة صوفى مأخوذة من كلمة "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة وأربابها هم الحكماء، وعندما فلسفت العرب عبادتهم حرفوا تلك الحكمة، وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الروحية. وممن ذهب إلى ذلك المستشرق "ماركس".

وقريب من هذا ما يقوله بعض المستشرقين من أن "صوفى" مأخوذة من كلمة "ثيوصوفى" بمعنى الإشراق أو "محب الحكمة الإلهية". وممن ذهب إلى ذلك "تولدكه" ويذهب "قون هامر" إلى أنها من كلمة "سوفى" بمعنى "الحكيم". وهذا كله خبط لا دليل عليه، بل يقول الدكتور زكى مبارك:

لم لا يذهب إلى عكس ذلك، وأن كلمة "سوفيا" مأخوذة من كلمة "صوفى" التى عرفها العرب فى جاهليتهم.

لذلك يرى الدكتور مبارك أنه لا يصح الزعم بأن لغة أخذت من لغة إلا بدليل قوى، وخاصة إذا كانت اللغتان ليس بينهما صلة تاريخية من جوار أو تبادل ثقافى أو اختلاط سياسى.

وممن ذهب إلى ذلك الراى "أبو الريحان البيرونى" والاستاذان
 "محمد لطفى جمعة" و "عبد العزيز الإسلامبولى" صاحب مجلة
 "المعرفة" ت ١٩٦٤م.

وهناك رأى يقول: إن كلمة "صوفى" نسبة إلى "صوفة" وهو رجل
 زاهد متعبد فى الجاهلية كان قد انقطع إلى الله وعبادته وطاعته عند
 البيت الحرام واسمه "الغوث بن مر" وكان إليه أمر الاجازة فى الحج،
 وقيل لأحفاده من بعده "صوفة" أيضاً فنسب الصوفية إليه لمشابهتهم إياه
 فى الانقطاع إلى الله وعبادته.

قال ابن الجوزى: سئل وليد بن القاسم إلى أى شىء ينتسب
 الصوفى؟ فقال: كان قوم فى الجاهلية يقال لهم "صوفة" انقطعوا إلى الله
 وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية^(١)، وأشار إلى هذا كذلك
 الزمخشري فى "أساس البلاغة"^(٢). والفيروزابادى صاحب القاموس
 المحيط. وبعض المستشرقين، وهذا الراى يدل على أن النسك كان
 مذهباً معروفاً فى الجاهلية، ولفظة "الديان" العربية معناها المتسك فى
 الدين ومثلها "الربانى" وهى لفظة قديمة عرفت فى العربية والسريانية،
 وظلت من ألفاظ التمجيد.

وقد وصف البويطى صاحب الشافعى بأنه كان إماماً ربانياً كثير
 العبادة والزهد، والربانيون فوق الأحبار وفى الجاهلية نشأت طبقة
 الحنفاء ومنهم ورقة بن نوفل وطبقته، ويغالى د. زكى مبارك فيقول:
 "إنه لا يستبعد أن يكون التصوف قد عرف فى الجاهلية باسمه ورسمه،

(١) فليس إيليس لابن الجنى.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري فى مادة: صوف.

ثم كانت له رجعة فى الإسلام "وذلك وهم ولا دليل عليه".
ورأى ثالث يذهب إلى أن كلمة "صوفى" مأخوذة من الصفاء.
ويجعلون لها لفظة من نوعها وهى "صوفى" فعلا مبنياً للمجهول من
"صافى" المأخوذة من الصفاء. قال أبو الفتح البستى:
تتازع الناس فى الصوفى واختلفوا
فيه وظنوه مشتقاً من الصُّوفِ
ولست أتحل هذا الاسم غير فتى
صافى فصوفى حتى لقب الصُّوفى
وقال بعض الصوفيين:
ليس التصوف ليس الصوف ترقعه
ولا بكاءك إن غنى المغنونا
ولا صياحا ولا رقصا ولا طربا
ولا اضطراباً كأن قد صرت مجنوناً
بل التصوف أن تصفو بلا كدر
وتتبع الحق والقرآن والدينا
وقد سخر أبو العلاء منهم فقال:
صوفية ما رضوا بالصوف نسبتهم
حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا
تبارك الله دهر حشوه كذب
فالمرء منا بغير الحق موصوف

إن أثمر الغصن فامتدت إليه يد

تجنيبه ظلما فليت الغصن مقصوف^(١)

وقد استبعد الإمام القشيري ذلك وقال: إن اشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة^(٢).

وقريب من هذا رأى ما حكاه الطوس فى "اللمع" قال "صوفى" كان فى الأصل صفوى "أى نسبة - إلى الصفاء، فاستقل ذلك فقيل "صوفى"^(٣).

وفريق يقول: إن الكلمة مأخوذة من الصف، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى^(٤)، والمعنى صحيح ولكن اللغة لا تساعد على ذلك^(٥).

وآخرون يقولون: إن الكلمة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا يلزمون صفة مسجد رسول الله^(٦)، وأهل الصفة فريق من فقراء المهاجرين والأنصار ليس لهم متاع ولا مال، فرغت أيديهم من كل شىء، وامتألت قلوبهم بهدى الله، وقد بنى لهم النبى ﷺ صفة فى مؤخرة مسجده بالمدينة ليقيموا بها، انقطعوا فى صفتهم إلى الله، يسبحون بالغداة والعشى، وعكفوا على العبادة بشوق ولهفة ولذة،

(١) اللزومات للمعري، ج ٢، ص ١٠١.

(٢) الرسالة القشيرية، ج ٢، ص ٥٥١.

(٣) اللمع لأبي نصر السراج الطوس، ص ٤٦.

(٤) الرسالة القشيرية، ج ٢، ص ٥٥١.

(٥) المرجع السابق، ص ٥٥١، ج ٢.

(٦) صفوة التصوف لسيد نوح، القاهرة، ١٩٥٠.

واتجهوا وجهة روحية ملكية، وقد وصفهم أبو نعيم الأصفهاني فقال: (هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتحيين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل أو مال، ولا تلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولم يفرحوا إلا بما أيّدوا به من العقبى، وكانوا نحو أربعمئة من فقراء المهاجرين والأنصار^(١)).

هؤلاء هم أهل الصفة الذين أمر الله نبيه في شأنهم بقوله: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا)^(٢).

وأهل الصفة هم الرعيل الأول من رجال التصوف، وقد كانت حياتهم التبعية الخالصة هي المثل الأعلى الذين استهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة.

وعندما يخاطب الله عز وجل رسوله الكريم بقوله تعالى ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾^(٣) أى انقطع إليه انقطاعاً كاملاً، أو بقوله: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾^(٤) وبقوله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿واعبد ربك حتى يأتيتك اليقين﴾^(٥). أى اعبد الخالق العظيم، اعبد

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني.

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٨.

(٣) سورة المزمل الآية ٨.

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠٥.

(٥) سورة الحجر الآية ٩٩.

دائمًا أبدًا بالغدو والآصال، اعبدته في الجهر والسر تضرعًا وخيفة، ولا تكن من الغافلين عن ذكره، المعرضين عن طاعته .. عند هذه الآيات تأخذ الصوفية – وأولهم أهل الصفة – من ذلك القاموس الإلهي العظيم منهاجًا لهم في الحياة.

وفريق يجعلون الصوفية نسبة إلى الصوف لأنه كان لباس الزهاد والنسك والعباد ولباس الرسل والأنبياء، ولباس أهل الخشونة والفقر والشظف، وأغلبهم من الواصلين إلى الله، وهو كذلك لباس رجال الدين في المسيحية واليهودية من الأحرار والرهبان ممن كانوا يلبسون المسوح^(١).

وقد وردت نصوص كثيرة في ذلك، ورد أن رسول الله ﷺ كان يلبس الصوف، وجاء في مريثة عمر لرسول الله قوله رضى الله عنه: (بابى أنت وأمى يا رسول الله. لقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف)^(٢).

وورد أن رسول الله ﷺ أقبل على أهل الصفة فواساهم ولم يكن عندهم غير جلباب الصوف^(٣). وعن الحسن البصري قال: أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف^(٤).

(١) المسوح: جمع مسح مثل رقد وهو الثوب الأسود من الصوف يلبسه الراهب شعاراً له.

(٢) الإحياء للغزالي، ج ١، ص ٣٢.

(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهاني، ج ١، ص ٣٤٥.

(٤) نشر المحاسن الغالية، ج ٢، ص ٣٤٣.

وعن الرسول ﷺ أن كلیم الله تعالى كان علیه يوم كلمه الله جبة من الصوف، وورد أن عيسى كذلك كان یلبس الصوف^(١) واستمر لبس الصوف كناية عن الشظف والحرمان والفقراء وعن التصوف والانقطاع إلى الله والتبذل فی عبادته حتی قال أبو تمام:

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفاً^(٢)

ومن كلام ابن الجوزی: صوف قلبك لا جسمك وأصلح نیتك لا مرتعتك^(٣).

وسئل أبو علی الروزباری: من الصوفی؟. فقال: من لبس الصوفی علی الصفاء^(٤).

ويبدو لی فی وضوح: أن لبس الصوف كان سمة الزهاد والعباد وأهل الورع والتقوى. فلقد ورد أن رسول الله ﷺ كانت له جبة من قنل أى صوف یلبسها علیه الصلاة والسلام فی الجمع والأعياد. فلبس الصوف بعد اقتداء وتأسياً برسول الله ﷺ ، ثم تعارف الزهاد والعباد علی أنه لباس أهل الخشية والخوف من الله الذين يرجون رحمته ويخشون عذابه ويردد الدكتور زکی مبارك فی أن عملية لبس الصوف فی الإسلام كانت رجعة إلى التقاليد المسيحية^(٥). وفي موضع آخر من كتابه يقول: (إن الصوفية كانوا يسايرون المسيح فی مذاهب الروحية

(١) نشر المحاسن الغالية، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٢) التصوف الإسلامي لعمر فروج، ج ١، ص ٥٤.

(٣) مجلة المعرفة ص ٧٨٣ من مقال لمرجليوث السنة الأولى.

(٤) تلبس إيليس لابن الجوزي، ص ١٩٥.

(٥) التصوف الإسلامي، ج ١، ص ٦٥.

ويلبسون الصوف متابعة للرهبان^(١)، ويستشهد ببيت جاء فى "محاضرة الأبرار، ومسامرة الأخيار" وهو:

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى
وعليه من نسج المسيح مَوْقِعٌ^(٢)
وذلك خطأ فى الاستنباط.

وفى تأييد نسبة الصوفى إلى الصوف. يقول "الطوس" فى "اللمع":
(التصوف اسم وقع على ظاهر اللبسة"^(٣)). ويستضعف الأكلوس هذا
الرأى^(٤): وقد عاب الصوفية الصادقون أن يكون الصوف مظهرًا
وستارًا تتقنع به القلوب.

قال الشبلى: كان الزهد فى مواطن القلوب فصار فى ظواهر
الثياب. كان الزهد حرفة، فصار اليوم خرفة. ويحك صوف قلبك لا
جسمك، وأصلح نيتك لا موقعتك.

وقال الجنيد: "إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه
قرب" والظاهر هو خشونة الثوب.

وقيل لأبى الحسن بن سمنون: أيها الشيخ أنت تدعو الناس إلى الله
والإعراض عن الدنيا وتلبس أحسن الثياب، وتأكل أطيب الطعام. فكيف
هذا؟ فقال: "كل ما يصلحك لله فافعله إذا صلح حالك مع الله بلبس لين
الثياب، وأكل أطيب الطعام. فلا يضرك"^(٥).

(١) المرجع نفسه، ج ١، ص ٣١٦.

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لمحيى الدين بن عربى، ص ٢٥٨.

(٣) اللمع لأبى نصر السراج الطوس، ص ٤٧.

(٤) الفيض الوارد، ص ١٠١ للأكلوس.

(٥) الحلية لأبى نعيم، ص ٥٢.

ودخل أبو محمّر بن أخى معروف الكرخى على أبى الحسن بن بشار وعليه جبة صوف فقال له أبو الحسن: "يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك؟. صوف قلبك^(١).

أما الصوفة الثقات من المؤرخين الصوفيين فلم يعللوا تلك التسمية ولم يتكلفوا لها ما تكلف غيرهم من اصطناع وجعلوها لقباً أو كاللقب. فقال القشيري في رسالته: إن المسلمين في حياة الرسول ﷺ كانوا يتشرفون باسم: صحابي. ثم سمي من بعدهم بالتابعين. ثم قيل: أتباع التابعين. ثم ظهرت البدع وتعددت النحل، فأنفرد خواص أهل السنة والمراعون أنفاسهم مع الله الحافظون قلوبهم: باسم "التصوف" في عصر الإمام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة^(٢).

وقال الإمام الطوس في "اللمع": فإن سألني سائل: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء. وهكذا فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم؟ قلت: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلوم دون نوع لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة^(٣).

ويقول أبو نعيم في "حلية الأولياء"^(٤):

(إن كلام المتصوفة يشتمل على ثلاثة أنواع فأولها إشاراتهم إلى التوحيد والثاني كلامهم في المراد والثالث في المريد وأحواله".

(١) المرجع السابق، ج ١، ص ٥٣.

(٢) الرسالة القشيرية تحقيق د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف، ص

(٣) اللمع للطوس، ص .

(٤) الحلية لأبي نعيم، ج ١، ص ٢٣.

ويقول الشرنوبى^(١): (طريق الصوفية هي طريق الأبرار ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانتقطاع إلى الله. والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، فلما فشى الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية. فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والتوحيد والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطائفة فى طريقته. فمنهم من كتب فى أحكام الورع ومحاسبة النفس فى الأخذ والترك. ومنهم من كتب فى "آداب الطريق" ومنهم من جمع بين هذا وذاك.

وهذا العلم هو علم الوراثة المشار إليه بخبر (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) ويسمى علم التصوف علم الحكمة وعلم الباطن، وهو علم معرفة الله معرفة توحيدية خالصة وقيل: إن حكمة الصوفى ليست سوى مجموع أحرف رمزية تعنى "الحكيم الإلهي"^(٢).

ويقرر الشيخ حسن رضوان فى منظومته الكبرى التى جمعها فى كتابه "روض القلوب المستطاب" أن كلمة "صوفى" تشير بحروفها إلى معان كثيرة: فالصاد إلى الصبر والصلاة والصوم .. والصدق .. إلخ، والواو إلى الود والوعد والوصل. والفاء إلى الفرقان والفتح .. إلخ.

ويقول ابن عربى: (إن التصوف تشبيهه بخالقنا لأنه خلق فأنظر ترى عجباً)^(٣).

(١) تائبة السلوك للشرنوبى، ص ١٠.

(٢) نظرات فى فلسفة العرب لجبور عبد النور، ص ٣٣٢، ط. بيروت.

(٣) الفتوحات المكية لابن عربى، ج ٢، ص ٣٥١ وما بعدها.

ولفظ التصوف لم يعرف مصحوباً برسومه إلا فى القرن الثانى الهجرى. وقد اهتم الحسن البصرى بشرح علم التصوف. وتكلم عن آفات النفوس ويليهِ فى منزلته أبو حمزة الصوفى. وهو أستاذ البغداديين. ودخل الحسن البصرى جامع البصرة وجعل يخرج القصاص ويقول: القصص بدعة^(١). وأول من أطلق عليه اسم الصوفى هو أبو هاشم الكوفى (١٥٠ هـ)^(٢).

ويقول: الأحدى فى كتابه: "حياة القلوب": التصوف - وهو علم الباطن وحقيقة الشريعة - علم تعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر وكيفية تنقيتها فى عيوبها وآفاتا لتطهيرها من الصفات المذمومة والرزائل المعنوية التى وردت أوامر الشرع باجتنابها والتمسك بضدها من الصفات المحمودة التى طلب الشرع تحصيلها وكيفية السير والسلوك إلى الله تعالى على قدم الإخلاص والصدق، والفرار من نقائص الخلق^(٣).

العلاقة بين الصوفية والسلفية:

إذا أردنا تعريفاً دقيقاً للسلفية لا ينكره شخص من الأشخاص، فيمكننا أن نقول: إنها حبا لله واتباع رسول الله ﷺ فيما أمر وفيما نهى والحب والاتباع مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، فمن أحب الله ورسوله اتبع التوجيهات الإلهية التى تنزلت على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولهذا الارتباط بقول القرآن الكريم: ﴿قل إن كنتم تحبون الله

(١) التصوف الإسلامى لذكى مبارك، ج ٢، ص ١٢.

(٢) الحياة الروحية فى الإسلام، د. محمد مصطفى حلمى، ص ٨٤.

(٣) حياة القلوب للأحدى.

فاتبعوني بحبكم الله»^(١). وإذا نظرنا إلى السلف وجدنا الصحابة يتوافر فيهم حب الله ورسوله ويتوافر الاتباع، وإذا نظرنا إلى الصوفية ابتداء من الإمام "الفضيل بن عياض" أو الإمام الكبير "إبراهيم بن أدهم" فإننا نجد أنه يتوافر فيهم "الحب" و "الاتباع". أما فيما يتعلق بالاتباع فإن "الفضيل بن عياض درس السنة دراسة دقيقة، وكان من كبار المحدثين ثقة حافظاً ثبتاً يثق فيه كل هؤلاء الذين كتبوا الحديث من أمثال الإمام "البخاري" . والإمام "مسلم" وغيرهما من المحدثين.

وكان في سلوكه صورة تحاول ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً — أن تحاكي وأن تتابع وأن تتأسى وتتقدي برسول الله ﷺ، وما عرفته الدنيا في يوم من الأيام مهالكاً عليها وما جرى وراء مادة، وإنما شغلته العبادة والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ونشر العلم الموضح عن أمور الدنيا والآخرة، وكان الناس جميعاً يحترمونه كما كان ناصحاً للأمراء والوزراء والملوك^(٢).

وكانوا يذهبون إلى بيته المتواضع، ولا يذهب هو لأحد منهم، كذلك كان الأمر فيما يتعلق بالإمام الكبير "إبراهيم بن أدهم". وسواء أ كنا بصدد الحديث عن هذا أو ذاك نعرف أنهما كانا متقنين على الخطوة الأولى عند الصوفية جميعاً. وهى الانتفاضة الصادقة العازمة التى اتجهت بهما إلى التوبة الصادقة التى محت كل ما يمكن أن يكون من شهوات النفس وأهواء الشعور وبهذه الانتفاضة ينتقل الإنسان فى لحظة إلى القصد الجاد فى الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٢) العارف بالله أبو الأتوار شمس الدين الحقى، د. عبد الحليم محمود، ص ٦.

و (الفضيل بن عياض) و (إبراهيم بن أدهم) هما من الأئمة الأول في الصوفية، وعلى نسقهما ونسق من شابههما من الأئمة الأول سار الصوفية الذين أتوا من بعده .. وهؤلاء الصوفية الذين أتوا من بعد كانوا مثل جميع الصوفيين يمتازون بأمرين متلازمين فيهما. أحدهما: العبادة حيث ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾^(١). وكانوا ممن: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ﴾^(٢).

أما الأمر الثاني فهو "العلم"، وإذا نظرنا إلى كتاب من كتب "طبقات الصوفية" مثل كتاب "السلمى" الذى وصل بالتاريخ للصوفية إلى نهاية القرن الرابع الهجرى تقريباً. فإننا نجد جميع من ذكرهم يتسمون بهاتين السمتين "العبادة" و "العلم" وبعضهم كان من كبار المفكرين أمثال "سهل بن عبد الله التستري" وبعضهم كان من العلماء الذين يجمعون بين التفسير والحديث والعربية أمثال (الجنيد) ولكنهم جميعاً كانوا يمتازون بصفتي "العبادة" و "العلم" وما كان يحملهم "العبادة إلا الحب، وما كان يحملهم على "العلم إلا الحب" الحب لله ولرسول الله ﷺ. ونشر آثاره صلوات الله وسلامه عليه. فالإمام "الجنيد" مثلاً كان يحضر درسه اللغويون من أهل اللغة، والأدباء، من أجل الأسلوب والفقهاء من أجل الفقه والمتكلمون من أجل مسائل علم الكلام. والحكماء من أجل الدقة فى تحرير المسائل. وكل هؤلاء كانوا من العلماء، وكل منهم كان يستفيد من درسه فى موضوع تخصصه، وحين يتحدثون عن دروس (الجنيد) يقولون.

(١) سورة الذاريات الآية ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة السجدة الآية ١٦ .

كان يحضر لدرسه ثلاثمائة محبرة، وذلك أن جميع من كانوا يحضرون درسه كانوا يكتبون ما يسمعون مما يتعلق باتجاهاتهم.

وإنه ليسرنا في هذا المجال أن نذكر أيضًا الحارث بن الأسد المحاسبى صاحب كتاب "الرعاية لحقوق الله" لقد كان في شعاره "العلم" و "العبادة". ونزل إلى ميدان المجتمع في قوة مبيّنًا وموضحًا وناقذاً وهاجمًا واقفًا كالطود الراسخ في وجه كل مدعة، أو انحراف بكتبه الكثيرة المتعددة، وكان شعاره دائمًا "حب الله ورسوله واتباع الله ورسوله".

أما فيما يتعلق بالصلة بين الصوفية وأهل السنة والجماعة. فإن صاحب كتاب "التبصير في الدين" وهو الإمام الإسفرايينى العالم الكامل والفقيه لأصوله المفسر وكان يعنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة. وهو يذكر في كتابه ما يمتاز به أهل السنة عن غيرهم من الخوارج والروافض والقدرية، فيذكر أن سادس ما أمتاز به أهل السنة هو علم التصوف والإشارات ومآلهم من الدقائق والحقائق، ولم يكن لأحد قط من أهل البدعة منه خطر بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة، والطمأنينة.

ويستمر الإمام "الإسفرايينى" وهو من خيار أهل السنة فيقول: أى أمر التصوف لأن علمنا هذا مفيد بأصول الكتاب والسنة، ومما يغفل الناس عنه ولا يتحدثون به لأنهم يجهلون أن الإمام ابن تيمية يقدر تقديرًا عظيمًا الإمام عبد القادر الجيلانى. ويتحدث عنه باحترام بالغ في رسالة "العبودية" وكلما ذكره يقول: "قدس الله سره". ولالإمام عبد القادر الجيلانى كتاب عميق في التصوف اسمه "فتوح الغيب". وهذا الكتاب

مطبوع ومتداول، ويخصص الإمام ابن تيمية ما يقرب من مائة صفحة لشرح بعض فقرات هذا الكتاب، والإشارة بالإمام "عبد القادر الجيلاني" هو التصوف كل من اعترف به فقد اعترف بالتصوف، وهو يمثل مكانة الأستاذية بالنسبة لابن تيمية لأنه من أسانيد "ابن تيمية" في الحديث وأسانيد المحدثين هي أستاذية لمن تتخذهم إسناداً^(١).

ومن ناحية أخرى نرى الإمام "أحمد بن حنبل" يشيد إشادة كبيرة "ببشر الحافى". وبشر الحافى من كبار أئمة التصوف. وكان بينه وبين الإمام "ابن حنبل" صداقة متبادلة، وتقدير متبادل. ويقول الإمام "أحمد ابن حنبل" للسيدة الكريمة أخت "بشر الحافى": (من بيتكم يفيض الورع). وكل هذا يدل على أن أئمتنا السابقون منهم، واللاحقون ما كانوا يفرقون بين السلفية والصوفية. ومما هو معروف أن الإمام أبو عبد الله الأنصاري "السهروي" من كبار زعماء الحنابلة، وكان يقول: (أنا حنبلي ما حييت وإن مت فنصيحتي للناس أن يتحنبلوا). وكان من أئمة الصوفية، وكانوا يسمونه "شيخ الإسلام" وله كتاب موجز يعد من أشهر كتب التصوف وهو كتاب "منازل السائرين" يسير فيه بالإنسان في مقامات الصوفية وأحوالهم من منزلة إلى منزلة حتى يصل به إلى القرب من الله تعالى.

ولقد احتوى هذا الكتاب المختصر والموجز .. التصوف كاملاً. مقامات وأحوال^(٢).

(١) المرجع السابق، ص ١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١١ وما بعدها.

ثم جاء الإمام الكبير ابن القيم أكبر التابعين لمدرسة ابن تيمية،
فألف كتاباً ضخماً أسماه "مدارج السالكين" شرح فيه كتاب الهروى
"منازل السائرين" والأصل والشرح أيضاً يعبران عن التصوف كاملاً،
ويشيدان به ويحثان عليه، وبيينا أنه هو السلفية الصادقة لأنه الحب
والإقناع. فلماذا يحاول من ينتسبون إلى السلفية أن يجعلوا بينها وبين
الصوفية فرقة واختلافاً.

وقد ذكر "أبو عبد الرحمن السلمى" من مشايخ الصوفية قريباً من
ألف وجمع إشاراتهم وأحاديثهم، ولم يوجد فى جملتهم قسط من ينسب
إلى شيء من بدع القدرية والروافع والخوارج. ثم قال: هذه الكلمات
الدقيقة المرزونة: وكيف يتصور فيهم من هؤلاء، وكلامهم يدل على
التسليم والتفويض والتبرى من النفس والتوحيد فى الخلق والمشية. أهل
البدع ينسبون الفعل والمشية والخلق والقدر إلى أنفسهم. وذلك بمعزل
عما فى الدين، وهو من رؤساء أهل السنة لا يخالف فى ذلك مخالف
من المؤرخين للفكر الإسلامى.

إلى أى حد يبلغ حرص الصوفية على الاتباع؟ وما آثارهم فى
ذلك؟:

يقول أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: (من دعا إلى الله تعالى
بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو يدعى) ويقول أيضاً: (إذا لم يواظب
الصوفى على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة فلا تعباً به). ومن
أجمل كلماته قوله: (ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة
السنة).

أما أبو يزيد البسطامي فإنه يقول في قوة حازمة ومنطق صادق:
(لو نظر إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى الهواء فلا تغثروا
به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء
الشريعة). والإمام "الجنيد" يقول: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا
على من اقتفى أثر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، واتبع سنته،
ولزم طريقته، وكان "الجنيد" لا يمل الحديث عن "الحب" و "الاتباع"
وكان يقول: (من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في
هذا الأمر).

ونحب أن نقول في غير إسراف: أن ما يسمونه السلفية الآن هو
فكرة ممسوحة لا تمثل السلفية في قليل ولا في كثير. إنهم يتحدثون عن
فوقية وعن جهة ويتحدثون عن أمور لا يتحدث فيها السلف عليهم
رضوان الله تعالى.

وأحب أن أقول أيضاً: إنها أصبحت حرفة يحترفها قوم من أجل
النفع المادي ولو لم تمسخ حقيقتها ولم تصبح حرفة لما حدثت هذه
المناقشات. ولما حدث هذا الجدل الذي هو سمة من سمات البعد عن
السلفية في الكتب وعلى صفحات الجرائد. ويختم الدكتور عبد الحليم
محمود حديثه بقوله:

يكفى أن نرد على هؤلاء بكلمة قالها الشيخ "محمد عبده" الذي
يتمسحون فيه كثيراً وهو بصدد الحديث عن الأولياء، وعن حال القرب
قال: "أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية من العرفاء، ممن لم
تقرب مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء
وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظه من الأتس يقارب

تلك الحال (حال القرب) فى النوع أو الجنس، ولهم مشارفهم فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المنال لا تتكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع. فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن ذاق عرف، ومن حرم انحراف، ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمحه الذوق السليم، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرانهم المتألى فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة".

هذا ما يقوله الشيخ "محمد عبده" فى رسالة التوحيد — إنه يقول بالحراف الواحد: من ذاق عرف. أما هؤلاء الذين اتخذوا السلفية حرفة، ولم يتذوقوها فإنهم لم يعرفوا. ويقول: "ومن حرم انحراف" وهؤلاء قد حرموا فانحرفوا.

ونرجو الله سبحانه وتعالى لهم الهداية. وإذا كانت بعض الطبائع تركز دائماً على الاختلاف تخترعه وتجسمه وتضخمه، وتتخذة ديناً وشعاراً. فإننا نركز دائماً على التوحيد والوحدة، ونرى أنه لا يتأتى مطلقاً. الحب دون الاتباع، وأنه مما لا مزية فيه بين المستبصرين أن الصوفية من أعلام المحبين، فهم إذن من أعلام المتبعين، وأن السلفية من أعلام المتبعين فهم إذن من أعلام المحبين. والنتيجة هى أن ما ندعوا إليه ويدعوا إليه كل مخلص أن نسير جميعاً فى ظلال علم: الاتباع والحب^(١).

(١) العارف بالله أبو الأنوار شمس الدين الخفى للإمام المرحوم د. عبد الحليم محمود، مجمع البحوث الإسلامية، إدارة نشر الثقافة الإسلامية، سنة ١٣٩٧هـ، سنة ١٩٧٧م، ص ١٤ وما بعدها.

وهذا رأى صائب، حيث إن الاتباع هو اتباع هدى محمد ﷺ .. حيث إنه يؤدى بالمسالك إلى طريق النجاة وهو الطريق الصحيح الذى يجعل المسلم يعيش فى هدوء وطمأنينة واستقرار، ومتى سلك السالك هنا السبيل النبوى سيصل إلى مراقى الصالحين. وينخرط فى صفوف الموحدين، وبذلك يكون من المحبين العارفين، فيستتير قلبه، وينشرح فؤاده بهذه المعرفة التى تولدت عن "الاتباع والحب" وذلك يبدن الصوفية. وطريق السلفية.

أصالة التصوف الإسلامى:

ومع مكانة التصوف الكبرى فى الفكر الإسلامى وما قدمه للحياة الإسلامية فى شتى مراحلها من مناهج فى المعرفة والأخلاق والسلوك الاجتماعى وما أفاض على الثقافة الإسلامية من معان مشرقة عالية فى كل ما يتصل بالروح والقلب وصلة الإنسان بخالقه وسيره إلى محبته ورضوانه وما أبدع فى هذا السير من أحوال ومقامات وأذواق ومشاهدات وإلهامات أسهمت فى تعميق المعانى القرآنية وشمولها كما أسهمت فى تكوين الحياة الروحية التى أصبحت من أكبر العناوين المتألثة فى جبين الدعوة الإسلامية وفى أفق رسالتها العالمية.

مع هذه المكانة الضخمة لا تزال الأقلام مضطربة وهى تتناول الحديث عن نشأة التصوف الإسلامى. وتدرجه وأثره فى التاريخ الإسلامى وسر هذا الاضطراب أن كتب الطبقات الصوفية لم تضع منهجاً علمياً لتاريخ الحياة الروحية فى الإسلام.

فقد عد أئمة الصحابة جميعاً من رجال الطبقات الصوفية ومن ثم احتسبت بداية الإسلام هى بداية التصوف وجاء رجال التاريخ الإسلامى

وجلهم من الحنابلة الذين خاصموا منهج التصوف فى المعرفة والسلوك فلم تتجه أعلامهم إلى تدوين تلك الحياة الخصبة المثمرة بل ألقوا عليها ستاراً، ولم يرجوا لها وقاراً. ثم جاء رجال الاستشراق فى عصرنا فبذلوا جهوداً ضخمة فى دراسة التصوف الإسلامى ورجاله وتراثه، ولكن جهودهم هذه شابها وشوه من جلالها عقدة نفسية تحملها أعلامهم، وتستقر فى أعماق قلوبهم وتدفعهم إلى تصوير التصوف الإسلامى فى أبواب مستعارة من الملل والنحل الروحية شرقية وغربية وتحميل الكلمات والآراء أكبر مما تطبق ليضيفوا على التصوف الإسلامى صوراً غامضة من صور الغموض المعنوى.

ومما يؤسف ويؤسى أن فريقاً من كتابنا جرى فى ساحاتهم، وارندى برورهم بحكم التلمذة حيناً، والتشدد حيناً آخر. والجهل بالتصوف الإسلامى حيناً ثالثاً.

ولقد غرقت الروح الصوفية مع الإسلام منذ يومه الأول وليس معنى هذا أن الأنواق والمواجيد القلبية والروحية والمناهج الصوفية سلوكاً ومعرفة كانت واضحة جلية فى أيام الإسلام الأولى وفى حياة أئمة الصحابة - رضوان الله عليهم - ففى هذا الزعم إسراف وماجنية للحقائق.

ولكننا نرى فى آيات القرآن وحياة الرسول الطاهرة وسير صحابته المشرقة بذور التصوف الأولى والمعرفة الروحية ألواناً متألثة.

وليس التصوف بدعاً فى هذا فكل منهج من مناهج المعرفة فى الإسلام انبثق كما انبثق التصوف من روح القرآن وجوهر رسالته. وبدأ

كما بدأ التصوف فى الإسلام ثم نما وارتقى ومشى مع خطى الحياة،
وسنة الله.

فمثلاً نستطيع القول بأن الفقه نشأ مع الإسلام وليس معنى هذا أن
التفريعات الفقهية كانت فى صدر الإسلام، وفى الكتاب والسنة ثم
تصعدت وسارت مع الحياة.

كان التصوف موجوداً فى صدر الإسلام بروحه وهديه وآدابه
وخلقه وترفعه وزهده، وعباداته وطاعاته وذكره ومناجاته كان موجوداً
بجوهره لا بمصطلحاته، وقائماً بكلياته لا بجزئياته.

كان التصوف فى صدر الإسلام هو هذا الروح الدينى المهيمن،
على حياة المسلمين كافة الموجة لحركاتهم وسكناتهم.

كانت هذه الرقابة الحية التى أقامها كل مسلم فى أعماقه ليراقب ما
توسوس به نفسه وما يخفى صدره ما تطرف به عينه.

كان هذا الترفع الشامخ عن شهوات الدنيا وزخرفها والإعراض
عن بريقها وفتنها، والزهّد فى ترفها ومظاهرها، والتسامى عن كل ما
فيها إلى وجه الله حتى يظفر المتصوف بحبه ورضاه، وقربه وهده،
لأن الدنيا لا تزن عنده جناح بعوضة ولأن الآخرة خير وأبقى ثم
تموجت الحياة بالمسلمين وفتحت عليهم الدنيا وابتعدت مسامعهم عن
تعليمات الوحي، وتفوقت قلوبهم عن الميثاق والعهد وانحلت العزائم،
وفترت الهمم، وسارع الناس إلى المال والجاه ولهو الحياة ونشأت الفتن
واختصموا على الملك وتصارعوا وتباغضوا وتشبعت بهم السبل
ونشأت تبعاً لذلك حركات مضادة ورسالات مجاهدة صمد بعضها فى
وجه العاصفة.

ويحدثنا تاريخ النصف الثاني من القرن الأول للهجرة عن وعاظ ومرشدين وقفوا على أسرار القرآن ومعالم السنة يذكرون الناس ويدعونهم إلى ربهم ودينهم تميزهم شجاعة نفسية عالية أعانهم على مواجهة الجبروت والاستبداد الذي بدأت طلائعه في أفق الحياة الإسلامية وبجوارهم رأينا طائفة الزهاد الذين وقفوا في وجه فتنه .. الترف والإسراف وأداروا أحاديثهم حول فضائل النفس وتركية الجوارح والزهد في الدنيا وزوال نعيمها ورأينا العباد المتبتلين الذين انقطعوا لعبادة الله.

ومن هؤلاء وأولئك تكوّن الرعيل الأول من الصفوة الديانيين الذين عرفوا في التاريخ باسم (الصوفية) أو كما يقول (ابن خلدون): (اختص المقلون على الله بأنفسهم باسم الصوفية وبدأت ثقافة إيمانية لها لونها وطابعها وخصائصها الفنية تكون لهذه الطائفة ثقافة تدور حول ذكر الله وإلهاماته ومجاهدة النفس وما ينبثق منها من آداب السلوك والصلة به وما يترقق حول هذه الصلة من أذواق ولحون ومواجيد وأشواق وكانت ثمرة هذا كله المعرفة الباطنية وما تفيض به من علوم وأنوار. وبدأت الحياة الروحية تتفصل عن الحياة العامة وتستقل بمناهجها ومعارفها واصطنع الصوفية كلمات تحدد أذواقهم وتعبّر عن شعورهم، واتسع أفق هذه الكلمات لمعان متعددة وكونوا لهم فلسفة في الأخلاق والسلوك وفي العبادة ويرجعون كل شيء إلى الله، فأكسبهم ذلك عزة خلقية وسعادة روحية قوامها الرضا بالقضاء والقدر أو كما يقول إبراهيم بن أدهم: "نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف" وأفاضت عليهم الثقة بالله والتوكل عليه شجاعة نفسية وقوة إيمانية لا تسابقها قوة ولا شجاعة.

يقول إسحاق بن إبراهيم السرخسى: (سمعت ذا النون المصرى وفى يده الغل وفى رجليه القيد وهو يساق إلى المطبق، والناس فى بغداد يبيكون حوله وهو يقول: "هذا من مواهب الله تعالى، ومن عطاياه، وكل فعله عذب حسن طيب" وستبلغ تلك الشجاعة الشامخة ذروتها فى البطل الشهيد "الحلاج" حينما صمد للمأساة صمودًا لا يطاوله فى التاريخ صمود^(١)).

أطوار المعارف الصوفية فى القرن الثالث الهجرى:

وفى مطلع القرن الثالث الهجرى أخذت معانى الحب الإلهى الذى سمعنا جرسه لأول مرة فى ألحان رابعة العذوبة ومواجيدها أخذت معانى هذا الحب تتسع وتتكون بها المقامات والأحوال وأخذت كلمات الأنس والبسط والرجاء والخوف واليقين والمشاهدة تشع وتؤتي ثمارها وتدرجت على أجنحة الحب ومعارجه حتى وصلت بالصوفية إلى مقام الفناء وهو أخطر مقامات التصوف وأبعدها أثرًا فى تاريخه والفناء هو غاية الصوفية ففيه يشربون رحيق الحب الأعلى وينعمون فيه بمتع ولذا نذروحية تتسيهم دنياهم وأخراهم ووجودهم وكل شىء سوى المحبوب والحب أساس الأحوال الصوفية.

وقد عد - كما يقول (السهروردى) - أساسًا للأحوال كالتوبة بالنسبة للمقامات فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل ومن صحت محبته تحقق بسائر الأحوال من الغناء والبقاء والصحو والمحو^(٢).

(١) الحلاج لطفه سرور، ص ٢٦، ص ٣١، بتصرف.

(٢) عوارف المعارف للسهروردى، ص ٣٥٠.

ومن الحب تنشأ المعرفة والمشاهدة ولذة المعرفة والمشاهدة وفى
الحب يتمتع المحب بالجمال المقدس وياله من جلال وجمال ونشوة
الحب الكبرى تسمى سكرًا، والسكر علامة الصدق والحب، وهو نشوة
روحية لا يمكن تصورها إلا بالتجربة كما يقول الإمام "الغزالي" ولذلك
قالوا: "من ذاق عرف"^(١) وهذا السكر الروحي حدقة يرى بها الصوفى
حقيقة الكون وسر الخلق.

يقول: معروف الكوفى: (إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت
عين بصره فلا يرى إلا الله ونهاية السكر هو الفناء، والفانى — كما
يقول الصوفية — لا يحس بما حوله ولا يحس بنفسه فقد فنى عما سوى
الله. ومن هنا جاء كلام الصوفية الذى لا يفهمه ولا يتذوقه سواهم حينما
يقولون فى نشوة الفناء ووقدة الحب "ليس فى الوجود إلا الله".

إنها تجربة عليا .. تجربة ذووية فى عالم الروح والسر، تجربة
كانت أقوى من التى تحدث عنها "الحلاج" حينما بلغ الذروة العليا لمقام
الفناء أو مقام الاتحاد وحينما ابتدئ من هذا المقام معارف صوفية
تحدث عنها وحدة الإيمان والنور المحمدى، ووحدة المحب والمحبوب،
ويأتى بعد مقام الفناء مقام البقاء ويأتى بعد الوحدة مقام الجمع، وبعد
الجمع مقام التفرقة ومقام الجمع هو رؤية الحق بلا خلق وهى حالة
وجدانية أو حالة دهشة وغيبة مع فقدان الإحساس بالأشياء وبالنفس،
والمحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها بأن يسمع ويعى كأنه بمثابة السمع
والوعى لا السامع ولا الواعى. إنه مقام إشارة إلى حق بلا خلق، وحالة
الجمع هذه حالة وعى وصحو وإدراك مع بقاء المعرفة الصوفية التى

(١) إحياء علوم الدين للغزالي، ج٤، ص ٢٦٩.

كانت فى حالة السكر فلا يزول عن صاحب المقام إدراك الوحدة، ومن المتحققين بهذا المقام "أبو القاسم الجنيد" الذى يقول فى هذا المعنى:

وتحققتك فى السَّـرِّ سرَّ فَنَاجَاكَ لِسَانِي
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لِمَعَانِي
إن يكون غيبك العظـ سيم عن لحظ عياني
فلقد صبرك الوجـ د من الأحشاء داني

فالجنيـد يجمع لمعان ويفرق لمعان وهذا هو جمع الجمع، وحال العارفين الكمل المحققين على أجنحة الوجد.

ومقامات التصوف، ومعارفه ومناهجه أفق يتلألأ جمالاً وكمالاً.

أفق صاغه الإلهام وفتق جوانبه الإيمان، وشيد سمواته الحب الإلهى.

أفق تعجز العقول المادية الأرضية عن ارتياؤه، واكتشاف أسرارهِ والاهتداء إلى أنواره.

إنى أفق لأصحاب العقول والأذواق الذين صفت أرواحهم بالطاعة، ورقت بالمجاهدة وشفقت بالمحبة وسمت باصطفاء حتى شهدت بالاجتناب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ونعمت بما لم تتعم به القلوب التى لم تبرح نطاق الماء والطين.

والقرن الثالث للهجرة يعده الصوفية أكبر درجة وأخطر مرحلة فى تاريخ الحياة الروحية.

إنه العصر الذى بلغ فيه التصوف ضحاياه، واكتمل نموه، وشيد صرحه، ودعمت مدارسه.

العصر الذى عاش فيه الأئمة الكبار الذين منهم "الحارث المحاسبى" ت ٢٤٣هـ سيد المتحدثين عن دقائق المحاسبة ورقائق المراقبة و "ذو النون المصرى" ت ٢٤٥هـ. أكبر المتكلمين عن أسرار المقامات والأحوال. و "أبو اليزيد البسطامى" ت ٢٦٤هـ، و "أبو سعيد الخراز" ت ٢٧٧هـ أستاذ مدرسة السلوك القلبى والخلق المثالى و "سهل بن عبد الله التستري" ت ٢٨٣هـ. مربى العارفين القانتين، وشيخ الطائفة وإمامها "أبو القاسم الجنيد" ت ٢٩٧هـ. الواصل فى مقام التمكين، وأخيراً الشهيد "الحسين بن منصور الحلاج" الذى بلغ به التصوف كما يقول " ما سنيون " أقصى درجاته الفنية وتحقق فيه الرمز الأعلى للصوفى المحب الفانى.

والحياة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى بكل ما فيها من عظمة وإشراق ومحبة وفناء ومشاهدة وفرق وجمع وفتح. كل هذا نشأه ووضعا مصورا فى حياة " الحلاج " ونضاله وصراعه واستشهاده حتى رأيناه فى أسواق " بغداد " بقامته الفارعة ولونه الأسمر الجميل، وسمته المهيبة، ومنطقه الساحر وهو يهيم على وجهه وقد برحه حبه وهو يصيح: (يا أهل الإسلام أغيثونى فليس — أى الله — يتركنى لنفسى فأتھنى بها، وليس يأخذنى من نفسى فاستريح منها، وهذا دلال لا أطيقه^(١).

(١) محاضرات فى الأدب للدكتور محمود فرج العقدة، ج ١، ص ٢٣٠.

والخلاصة أن الحب يرقى بالمحب إلى الدرجات العلا ويسمو بالنفس البشرية فيرتفع بها إلى مصاف السلف الأطهار، والتابعين الأبرار. فمتى كبح المسلم جماح نفسه، وابتعد بها عن الشهوات، ونأى عن المعاصى والملذات صفت سريره واستتارت بصيرته، ورقّت روحه إلى المعراج الأعلى.

مثل هذا يصبح الكون فى كل يديه وتحت سمعه وبصره فلا يرى فى الوجود إلا الله.

والصوفية كلهم من هذا الطراز الفريد. فالحب ديدنهم، والمعرفة هجيراهم، والأخلاق سجايهم واقتفاء أثر النبى ﷺ طبعهم ومن كان شأنه ذلك فلا غرو أن يصل إلى درجات السالكين، العارفين. "حيث إن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة ومبينة على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء فلا تكون مذمومة إلا أن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير، وأما إذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيّه رجل مسلم فمن شاء فليعمل لله ومن شاء تركه"^(١).

إن علم التصوف عبارة عن علم انقذح له قلوب الأولياء حين استتارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل انقذح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسنة عن التعبير عنها ٢٠٠ ما انقذح لعلماء الشريعة من الأحكام. حين عملوا بما علموه من أحكامها فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من علة العلل وحظوظ النفس كما أن علمى المعانى والبيان زبدة علم النحو، فمن جعل علم التصوف علمًا مستقلاً صدق، ومن جعله من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية.

(١) مقدمة الطبقات للشعرانى، ج ١، ص ٤.

ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستتباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء فيستتبط في الطريق واجبات ومنذوبات وآداب ومحرمات ومكروهات وخلاف الأولى نظير ما فعله المجتهدون وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئاً لم تصرح الشريعة بوجوبه أولى من إيجاب ولى الله تعالى حكماً في الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه كما صرح بذلك "الياقعى" وغيره.

وايضاح ذلك أنهم كلهم عدول في الشرع، اختارهم الله عز وجل لدينه. فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة؛ ولكن أصل العجب ممن لا إمام بأهل الطريق أن علم التصوف من عين الشريعة، وكونه هو لم يتبحر في علم الشريعة ولذلك قال "الجنيد" رحمه الله تعالى: "علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة"^(١).

وقال "أبو أحمد القلانسي" رحمه الله تعالى:

(بنيت أصول مذهبنا على ثلاث خصال: لا نطالب أحد من الناس بواجب حقنا، ونطالب أنفسنا بحقوق الناس، ونلتزم أنفسنا التقصير في جميع ما نأتيه).

وقال "سهل بن عبد الله" رحمه الله: (أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء برسول الله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق). وسمعت "الخضري" يقول: (أصولنا ستة أشياء: رفع الحدث، وإفراد القدم، وهجر الإخوان ومفارقة الأوطان، ونسيان ما علم، وما جهل).

(١) الطبقات الكبرى للشعراني، ج ١، ص ٤.

وقال بعض الفقراء: "أصولنا سبعة أشياء: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وقطع العلائق، ومعاينة الفقر، ترك الطلب، وترك الادخار لوقت ثان، والانقطاع إلى الله تعالى في جميع الأوقات"^(١).

فهذه هي أصول مذهب الصوفية: التخلي عن كل ما يشغل عن ذكر الله، وعدم التعلق بالحياة الدنيا، والتمسك بالشظف والفقر والشذوذ بالحرمان في سبيل الوصول إلى الملاء الأعلى وهو ما يعمل من أجله وفي سبيله كل متصوف.

مفهوم التصوف في الإسلام:

مر التصوف في الإسلام بمراحل متعددة وتواردت عليه ظروف ومفاهيم مختلفة ولذلك كثرت تعريفاته وكل تعريف منها قد يشير إلى بعض جوانبه دون البعض الآخر ولكن يظل هناك أساس واحد للتصوف لا خلاف عليه وهو أنه خَلَقِيَّات مستمدة من الإسلام ولعل هذا ما أشار إليه ابن القيم في "مدارج السالكين" قائلاً: (واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق) وعبر عنه الكتاني بقوله: (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء).

التصوف إذن أساسه الخلق وهو بهذا الوضع روح الإسلام لأن أحكام الإسلام كلها مردودة إلى أساس خلقى.

ذلك أننا إذا نظرنا إلى القرآن الكريم فسنجده قد جاءنا بأنواع مختلفة من الأحكام الشرعية، وهي تتدرج بوجه عام تحت ثلاثة أقسام رئيسة العقائد والفروع من العبادات والمعاملات والأخلاق.

(١) اللمع لأبي نصر السراج الطوسي، ص ١٨٩.

أما العقائد فتشمل الإيمان بوجود الله الصانع القادر المختار
ووحدانيته وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

والأحكام الشرعية وتتضمن أحكام العبادات والكفارات والنذور
والمعاملات المالية وأحكام الأسرة وأحكام الجرائم والعقوبات المقررة
عليها وأحكام الدولة وما إلى ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه
بالتفصيل.

بقيت بعد ذلك ناحية الأخلاق في القرآن فقد وردت في القرآن
آيات كثيرة تحث على مكارم الأخلاق كالزهد والصبر والتوكل والرضا
والمحبة واليقين والورع وما إليها مما يندب إليه المسلم ليكمل إيمانه،
وقد بين لنا القرآن أن الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة لمن يريد التكمل
بهذه الفضائل في أرقى صورها^(١).

وأصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع
وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد
وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

ويقول أبو بكر الطمستاني: (الطريق واضح والكتاب والسنة
قائمان بين أظهرنا وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة وصحبته
فمن صحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه إلى
الله فهو صادق مصيب)^(٢).

(١) مدخل إلى التصوف الإسلامي د. التفازاني. دار الثقافة بمصر القاهرة سنة ١٩٧٤،
ص ١٤ : ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١١.

وهناك قاعدة لابن زروق هي: (حكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلمته. وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معالمة بين العبد وربّه من غير شيء زائد على ذلك.

فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولذلك قيل: (كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها. وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم)^(١).

وعن مالك بن أنس عن نافع بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ "لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حبه المساكين والفقراء الصبر، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة".

فالفقر كائن في ماهية الصوفية وهو أساسه وبه قوامه.

قال "رويم": (التصوف مبنى على ثلاث خصال التمسك بالفقر والافتقار والتحقيق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار).

وقال "الجنيد" وقد سئل عن التصوف: (أن تكون مع الله بلا علاقة).

وقال "معروف الكوفي": (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف)^(٢). وسئل "الشبلي" عن حقيقة الفقر فقال: "ألا يستغنى بشيء دون الحق".

(١) قواعد التصوف لأبي القياس أحمد بن حنبل بن زروق صححه. محمد زهرى النجار. راجعه د. على معبد فرغلي. ط. ثمانية سنة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م، الناشر مكتبة الأزهر.

(٢) عوارف المعارف للسهروردي ملحق كتاب الإحياء، ص ٦٢.

وقال "أبو الحسين النوى": (نعت الفقير السكون عند العدم،
والبذل والإيثار عند الوجود)^(١).

وسئل أبو محمد الحريرى عن التصوف فقال: (الدخول فى كل
خلق سنى والخروج عن كل خلق دنى)^(٢).

وقيل: نهاية الفقير مع شرفه هى بداية التصوف. وأهل الشام لا
يفرقون بين التصوف والفقر يقولون: (فى قول الله تعالى: ﴿للفقراء
الذين احضروا فى سبيل الله﴾^(٣) هذا وصف الصوفية والله تعالى
سماهم فقراء). وقال "الجنيد" رحمة الله عليه: (التصوف هو أن يميئك
الحق عنه ويحييك به)^(٤) قال "نو النون المصرى" رحمة الله عليه:
(الصوفى من لا يتعبه طلب ولا يزجه سلب) وقال "رويم": (التصوف
استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد)^(٥).

وقال "عمرو بن عثمان المكى": (التصوف أن يكون العبد فى كل
وقت مشغولاً بما هو أولى فى الوقت)^(٦).

وقال بعضهم: (التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة
من الله تعالى)^(٧).

(١) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٧٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٢، ٦٣.

(٥) عوارف المعارف، ص ٦٣.

(٦) عوارف المعارف، ص ٦٣.

(٧) عوارف المعارف، ص ٦٣.

وقيل: (التصوف ذكر مع اجتماع ووجود مع استماع وعمل مع اتباع)^(١).

وقيل: (التصوف ترك التكلف وبذل الروح)^(٢).

قال "سهل بن عبد الله": (الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر)^(٣).

وسئل بعضهم عن التصوف فقال: (تصفية القلب عند موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعى النفسانية ومنازلة الصفات الروحية والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع الرسول فى الشريعة).

وقال "الجنيد": (الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليم).

وقال أيضاً: (هو كالأرض يطوها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شىء، وكالقطر يسقى كل شىء)^(٤). وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول، ويطول نقلها ونذكر ضابطاً يجمع معانيها فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعانى. فنقول:

(الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار لتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذه

(١) عوارف المعارف، ص ٦٣.

(٢) عوارف المعارف، ص ٦٣.

(٣) عوارف المعارف، ص ٦٣.

(٤) عوارف المعارف، ص ٦٣.

التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعت به بحركة نفسه تفرقه وكدره فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى: (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط)^(١) وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف^(٢).

قال بعضهم: (التصوف كله اضطراب فإذا وقع السكون فلا تصوف والسرف فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية يعنى أن روح الصوفى متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب والنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عفتها لابد للصوفى من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التققد لمواقع إصابات النفس ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى الصوفى جميع المتفرق فى الإشارات)^(٣).

مما تقدم أستطيع الحكم بأن التصوف فى جملته هو الزهد فى الدنيا وعدم التعلق بأهوائها والجرى وراءها، والانخداغ ببيريقها، والعمل للدار الآخرة على ضوء الشرعية الإسلامية حيث يقول النبى ﷺ: "ليس بخيركم من ترك دنياه لأخراه ولا آخرته لدنيا، حتى يصيب منهما فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ولا تكونوا كلا على الناس" ومن هنا على الإنسان أن يعمل للدنيا بقدر ما يغنيه عن السؤال وألا ينخرط فى سلك

(١) سورة المائدة الآية ٨ .

(٢) عوارف المعارف للهرودى، ملحق كتاب الاحياء، ص ٦٤.

(٣) عوارف المعارف للهرودى، ملحق كتاب الاحياء، ص ٦٤.

التمدن الزائف الذى يشغل الإنسان ويلهبه ويدلف به إلى طريق الضلال ويغويه مع تصفية قلبه من شوائب الشنآن والفرك والكرهية فعند ذلك يكون حسن النية سليم الطوية نقى السيرة نظيف السريرة ذلك هو التصوف الحقيقى.

أما من نراهم فى هذا العصر ممن يصفون أنفسهم بالمتصوفة - وذلك بارتدائهم الثياب المرقعة الرثة والحرص على اتساخ أجسادهم وهجر منازلهم وأهليهم فإنهم يصبحون بذلك عالة على غيرهم ومناظرهم فى الموالد وهم يقيمون الأذكار تعد مناظر سيئة يبرأ الإسلام منها، ويتقلص عنه التصوف بسببها فضلاً فى أن هذه الأشياء حجة على التصوف الإسلامى وليست حجة له، فالتصوف الإسلامى لا يعنيه أن يكون المتصوف نظيف الثياب جميل الهندام حسن الهيئة زكى الرائحة مع صفاء سريرته، ونقاء ضميره، فالرسول ﷺ وهو القدوة الحسنة فى كل شىء كان مثلاً يحتذى فى الطهر والنقاء والنظافة والصفاء فكان يشمئز من الرائحة الكريهة، ويحب الرائحة العطرة، وعلمنا ألا نغشى الاجتماعات أو ندخل المساجد وفيما شىء ينفر الناس أو يثيهم عن تأدية عباداتهم كاملة، وهو الصوفى الأول الذى لا يزال الصوفيون ينهلون من ينابيعه الثرة، ويقتنون أثره ﷺ.

أول من تسمى بالصوفى:

يؤدى بنا البحث فى لبس الصوف إلى قضية بدأت فى الكوفة وذلك أن أول من تسمى بالصوفى كان رجلاً كوفيًا، ولعل ذلك دليل آخر على ما سقناه من علة اختيار الزهاد الصوف لباساً لهم، والباحثون مختلفون فيمن هو أول من تسمى "بالصوفى" وتدور أخبارهم فى هذا

الشان حول ثلاثة من الزهاد الكوفيين هم: "جابر بن حيان"، و "أبو هاشم الكوفى" و "عبدك الصوفى"^(١).

أولاً: جابر بن حيان:

تلميذ الإمام جعفر الصادق وقد أورد عنه ابن القيم أنه "المعروف بالصوفى" ومهما يكن من أمر فإن كتب الشيعة القديمة لم تورد اسم "جابر بن حيان" فى سلسلة سند أى حديث ينسب إلى جعفر الصادق. ثم أن صلة جابر بالتصوف اسمية لأنه لم يكن صاحب مجاهدة أو خوف أو ناطقاً بأقوال زهدية وإنما نقل عنه اشتغاله بالكيمياء.

وقد التفت السيد هبة الدين الشهرستائى من مجتهدى الشيعة العصريين إلى هذه النقطة فروى لنا عن أستاذه شيخ الشريعة "الأصفهائى" أن تسمية "جابر بن حيان" بالصوفى ليست منسوبة إلى الصوف وإنما النسبة إلى "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة فليل "سوفى" ثم أشبع العرب السنين فأصبحت "صوفى" و "صوفية" ولم يكن هذا الفيلسوف العظيم حاملاً لأى مبدأ من مبادئ الطريقة الصوفية^(٢).

ثانياً: أبو هاشم الكوفى:

هو عثمان بن شريك الكوفى الصوفى، وقد ذكر "الجامى" أنه كان فى الشام وهو كوفى الأصل وكان مزامناً "لسفيان الثورى" ويذكر أن هذا قال فيه: "لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء" ويذكر أنه بنى بيتاً أو خانقاً للصوفية فى الرملة.

(١) الصلة بين التصوف والتشيع د. كامل مصطفى الشيبى الأستاذ بجامعة بغداد، ص ٢٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

ويورد "محمد كرد على أن أول من تسمى بالصوفى من أهل السنة هو أبو هاشم الكوفى وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ^(١).

ثالثاً: عبدك الصوفى:

أما الزاهد الكوفى الثالث الذى سمي بالصوفى فهو "عبدك" الذى يذكر د. قاسم غنى نقلاً عن "ماسينيون" أنه كان آخر شيوخ فرقة الصوفية نصف شيعية تأسست فى الكوفة وظهرت كلمة صوفية فى آثار "المحاسبي" و "الجاحظ" اسماً لها، وأن عبدك "كان رأس فرقة من الزنادقة الذين زعموا أن الدنيا كلها حرام محرم لا يحل الأخذ منها إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل ولا تحل الدنيا إلا بإمام عادل وإلا فهي حرام ومعاملة أهلها حرام. فيحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان"^(٢).

وواضح من التاريخ أن "جابر بن حيان" الكيمياءى لا تصدق عليه كلمة "صوفى" لا من قريب ولا من بعيد وإنما يصدق عليه لفظ "حكيم" لأنه نبغ فى علم الكيمياء وطبقت شهرته الآفاق فهو مشهود له بالبراعة والتفوق فى هذا المضمار واعتقد أن الذى أطلق عليه حقيقة هو كلمة "سوفى" بالسين أى "حكيم" ولا أستبعد أن يكون هذا الاسم قد أطلقه الغربيون عليه لإفادتهم منه فى هذا العلم.

وأما "عبدك الصوفى" فإن كتب التصوف القديمة والحديثة لم تورد لنا ولو كلمة واحدة تحكم بها عليه: أنه اشتهر رائحة التصوف أو استنشق

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧١.

عبير الزهد أو تمتع بأريج الشظف كما أننا لم نقرأ له، ولا عنه فى التصوف لا شعراً ولا نثراً ولا حكماً ولا أثراً من الآثار يدل على أنه صوفى فضلاً عن أن يكون أول من تسمى بالصوفى.

والذى أرجحه - وهو قوى لدى - أن أول من تسمى بالصوفى هو "أبو هاشم" وذلك بشهادة "سفيان الثورى" حيث قال فيه: (لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء). ورجل كأبى هاشم يعرف دقائق الرياء - وهى قمة العلم والمعرفة والفطنة - تعلم منه سفيان الثورى ذلك .. هو أحرى الصوفيين بالتقدم والابتداء.

ودليل آخر وهو قول "محمد كرد" إن أول من تسمى بالصوفى من أهل السنة "أبو هاشم الكوفى" وشهادة "الجاحظ" أنه كان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر وذلك دليل ثالث على تقدمته وتسميته بالصوفى لأنه عالم بالسنة ودقائق الرياء مجيد للقول محسن لعروض الشعر، فكل هذه السجايا وتلك الخلال والعطايا الربانية والمواهب الإلهية والمنن اللدنية: حرية بالسمو بمثل هذا الصوفى الزاهد ورفعته فوق أقدار الصوفية جميعاً وبتوجيه عليهم فيصير بذلك أولهم والمتقدم فيهم.

التصوف والعلم:

هل يلج العلم بملاحظته واستقرائه حصن التصوف؟ - إنه إذا فعل ذلك فإنه لن يلاحظ إلا الشكل الخارجى ولن يهتم إلا بالمظهر الشكلى ولا شيء بعد ذلك من روح التصوف وجوهره، ومعنى هذا هو الإخفاق التام.

ولقد أخفق - حتى الآن - علم النفس كما أخفق علم الاجتماع إخفاقاً كاملاً فى الوصول إلى كنه التصوف وحقيقته بل إن الدراسات

النفسيّة الحديثة، والدراسات الاجتماعيّة العصريّة أفسدت الفكرة عن التصوف إفساداً تامّاً شأنها في ذلك شأن كل ما اتصلت به من الدراسات التي يعترّيها القصور في البحوث الخاصّة بالروح وبالوحي وبالإلهام السماوي وبالدين على وجه العموم.

إن الدراسات النفسيّة الاجتماعيّة الحديثة حدّدت نفسها بالمادة وتقيّدت بالظواهر الماديّة المحسوسة الملموسة المرئية أو المسموعة أو المذوقة مذاقاً حسياً أو المشمومة، وهي تعترف اعترافاً صريحاً لا لبس فيه أن مجالها هو المجال المادي وأن كل ما خرج عن المجال المادي لا يدخل تحت مرصدها ومخبرها ومسيرها وإن لا يدخل في إطار بحثها، والتصوف روح وإلهام وإشراق فلا يدخل في مجالها. ومن هنا كان اكتفاء هذه الدراسات بالمظهر والشكل ومن أجل ذلك كان إخفاقها كاملاً وفشلها نريعاً.

إن ما نسميه العلم الحديث إنما هو العلم السائد في أوربا وفي أمريكا في العصر الحاضر - وقد ألزم نفسه إلزاماً تامّاً ألا يخرج عن دائرة المادة وحدد دائرته تحديداً دقيقاً بأنها المادة إلى درجة أن كل من يخرج عن المادة لا يسمونه عالمّاً وأن كل بحث في غير دائرة الملاحظة المحسوسة لا يسمونه بحثاً علمياً ومن أجل ذلك كان ما قيل بلسان العلم عن التصوف لا يمس فيه إلا المظهر والشكل ولا فائدة فيه البتة من حيث للروح والجوهر^(١).

والعلم بهذه الطريقة وتلك الخاصية في اعتماده على الاستقراء والاستنباط والتجربة والتطبيق لا يستطيع أن يقتحم باب التصوف أو

(١) غيث المواهب الجلية في شرح الحكم العطائية لأبي عبدالله الرتدي، د. عبدالحليم محمود.

يحوم حوله - فرق شاسع بين علم مادي يعتمد على المدركات ولا يؤمن إلا بالمحسوسات ولا يصدق إلا المرئيات والمشاهدات، وبين علم مصدره الإشراق ووحيه الإلهام وأساسه النورانية وقوامه الإيمان بالله وحده وعماده الزهد في الدنيا وحرمان النفس من شهواتها وكبح جماحها عن ملذاتها والإعراض عن زخرف في الدنيا وعدم الاغترار بزینتها، فلا يستطيع العلم المادي بملاحظاته واستقراراته ودراساته الحديثة أن يلج حصن التصوف إلا بعد أن يؤمن صاحب الدراسات المادية بالله رباً وبمحمد نبياً ورسولاً. ويعمل على غرار الصوفية.

عند ذلك يصبح العلم المادي في خدمة العلم الروحي.

التصوف والعقل:

أنلجأ إذن إلى العقل؟ يبحثه المنطقى وإلى استنتاجاته الناشئة من المقدمات والأقيسة؟ أيقودنا العقل آمنين في بحار التصوف غير المحدودة وفي رياضه التي لا تنتهى من حيث كونها نفحات من الترويحات الإلهية غير النهائية.

ولكن المعروف أن العقل لا يدور إلا في تلك المادة لأنه يتسامى إلى السماء فيبحث بأقماره وسفنه وصواريخه بين أرجائها الشاسعة ومساحاتها الرحبة، ويغوص في أعماق البحار فيظهر مكنوناتها ويكشف عن أسرارها، ويتعمق في طبقات الأرض فيخرج من أنقالها ويزيل الغموض عن معمياتها، إن مبتدع الصنعة من الإبرة إلى الصاروخ ومخترع الكيمائيات سهلة أو معقدة، ومكتشف النواميس الكونية في الأرض وفي السماء وما بينهما وهو أساس العلم الكسبي علم التوليد والاستنتاج والاستبطان على أشكاله المختلفة ومناهجه المتعددة.

ولكن هذا العقل الذى مجاله المادة استنتاجاً واستنباطاً - لا شأن له بالغيب الإلهى ولا شأن له بمسارات الملائ الأعلى - فلا شأن له بكشف المحجوب الروحى - ولا شأن له بمعارج القدس، ولا بمنازل الأرواح. لقد أخفق العقل فى إيجاد مقياس عقلى نقيس به الصحة والخطأ فى عالم الروح وعجز عن اختراع يفصل به بين الحق والباطل فى مجال الغيب وقد أخفق منهج "أرسطو" وأخفق منهج "ديكارت" وأخفق إلى الآن كل منهج عقلى يراد منه أن يصل بنا إلى عالم الإلهية ليعرفنا أسرارهِ ويسير بنا فى مساراتهِ.

وإخفاق العقل فى عالم التصوف قضية اعترف بها اعترافاً صريحاً "فيتاغورث"، و "أفلاطون" و "أفلوطين" واعترف بها "الكندى" و "الفارابى" و "ابن سينا" واعترف بها "الغزالي" وجميع الصوفية على الإطلاق.

وقد اعترفوا بها لما علموا من أن العقل لا يتأتى له أن يخرج عن دائرة المادة. بل أن الخيال نفسه وكذلك الوهم لا يخرج كلاهما عن دائرة المادة.

واعترفوا بها لما رأوه من خلال التاريخ الفكرى للإنسانية من أن العقل وقف أمام منازل الروح ومعارج القدس عاجزاً لا يجد جواباً.

لقد اعترفوا بها وبرهنوا. وكان منطقهم من السلامة بحيث صدقه الواقع التاريخى. وليس ذلك بقادح فى العقل فله مجاله الضخم فى رحاب الكون، وفى أغوار الأرض، وفى أقطار السماء وعليه وبه قامت الحضارة المادية الحديثة متسلطة غلبة^(١).

(١) غيث المواهب للرندي، ص ٧، ٨.

إن العقل البشرى الذى أرخى له صاحبه العنان فسبر أغوار الأرض وخبر كنه الطبقات العليا فى الجو، وفكر فصنع الصاروخ وسفن الفضاء، لو أن صاحب هذا العقل استخدمه ووجهه وجهة إيمانية لسير أغوار النفس البشرية كما سير أغوار الفضاء، وخبر حقيقتها ووقف على أسرارها، كما اكتشف أسرار الأرض وكنوزها. وعند ذلك يصل إلى معارج السالكين، ويقف على قدم المساواة مع الصوفية المخلصين.

وما فشلت هذه المناهج الأفلاطونية والكارتيزية وأمثالها إلا لأنها لم تتخذ الإيمان وجهتها، ولا الإسلام نصب عينها، فكانت مناهجها مناهج شيطانية خلوا من الدين، بعيدة عن الروح الإسلامية. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾^(١). وها دليل على الإيمان بالله.

المنهج الصوفى:

وإذا عجز المنهج العلمى المادى عن فهم التصوف فى حقيقته وجوهره وعجز المنهج العقلى كذلك، فإن الصوفية جميعًا وفلاسفة الإشراق منذ "فيثاغورث" و"أفلاطون" إلى الآن يعلنون منهجًا محددًا يقدرونه جميعًا ويتقنون فيه ثقة تامة، ذلك هو المنهج القلبى أو المنهج الروحى، أو منهج البصيرة وهو منهج معروف أقرته الأديان جميعًا واصطفته مذاهب الحكماء القديم منها والحديث.

يقول سبحانه: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾^(٢).

(١) سورة العلق الآية ١ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

إنه سبحانه ذكر الفؤاد على أنه مسنول مثله في ذلك مثل السمع في محيطه، والبصر في محيطه.

والإمام الغزالي - معبراً عن رأى الصوفية، وعن رأى فلاسفة الإشراق - بين أن الدليل القاطع على أن هناك معرفة ليس مزجها إلى الحس ولا إلى العقل: إنما هما أمران أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة، فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة. فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس، وعدم اشتغالها بالمحسّات. فكم من مستيقظ غافل لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه.

ثانيهما أخبار رسول الله ﷺ عن الغيب، وأمور المستقبل، إذا صار ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره، إذ النبي عبارة عن شخص كشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الخلق شخص كاشف بالحقائق، ولا يشتغل بإصلاح الخلق وهو لا يسمى "ولياً". فمن آمن بالأنبياء، وصدق الرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة أو بتعبير آخر يقر بباب وينفتح على عالم الملكوت، وهو باب الإلهام والنفث في الروح والوحى.

والإمام الغزالي يثبت بالرؤيا برهاناً ودليلاً أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ويرد ذلك في كثير من كتبه. ولكنه لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال بل يأتى بشواهد الشرع فيذكر قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١). وقوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم). وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

يجعل لكم فرقاً»^(١) قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل، ويخرج به من كل الشبهات. وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه»^(٢) ما هذا الشرح؟ فقال: هو التوسعة. إن النور إذا أظف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح.

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين وأن عمر منهم، والمحدث هو الملهم، والملم هو الذى انكشف له الحق فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسات الخارجية، والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف. ولم يكن علم الخضر عليه السلام علماً حسياً أو عقلياً: وإنما هو العلم الربانى، وإليه الإشارة بقوله: «وعلمناه من لدنا علماً»^(٣)»^(٤).

المنهج الصوفى منهج إسلامى:

المنهج الصوفى إذن منهج إسلامى صحيح سليم لا غبار عليه، ثم هو منهج فلسفى - على الرغم من معارضة الفلاسفة العقلين - يقره الكثير من كبار الفلاسفة .

منابع التصوف الإسلامى:

إن حركة الزهد والرهبة والانقطاع إلى عبادة الله فى الأديرة والصوامع والكهوف من الجبال وفى الخلوات كانت موجودة فى كثير من الديانات القديمة السماوية والوثنية، وأهل الهند مشهورون بذلك من

(١) سورة الأنفال الآية ٢٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٢٢ .

(٣) سورة الكهف الآية ٦٥ .

(٤) غيث المواهب للرندي، ص ٩، ١١ .

قديم حتى اليوم، والزهد عندهم هو المعنى المقابل للتصوف الإسلامى. أما التصوف بالمعنى الخالص فهو إسلامى محض. يقول القشيرى فى رسالته: أما بعد - رضى الله عنكم - فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسرارهم، واختصهم بين الأمة بوالع أنواره، فمنهم الغيث والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق، بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورفعهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق ووقفهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منحه - سبحانه - لهم من التقلب والتصريف ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار، ولفيت الانكسار ولم يتكلموا على ما حصل مع الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد، وثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم عدل، وأمره قضاء^(١). ويقول السهروردي فى "عوارف المعارف": اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة (الصوفية) بنوا قواعدهم على أصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس نيل تمثيل ولا تعطيل، وعدوا ما هو حق القديم، وتحققوا بما هو نعت الموجود من العدم. ولذلك قال سيد هذه الطائفة "الجنيد رحمه الله": (التوحيد أفراد القديم عن الحدث، وأحكم أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد، فالقرآن الكريم شرح التصوف بآياته الباعثة على التقوى والأمرة بالإخلاص واليقين والتوكل وحسن العبودية لله، وغير ذلك.

(١) الرسالة القشيرية تحقيق الإمام المرحوم د. عبد الحليم محمود، د. محمود الشريف.

وتلك الآيات تشغل من القرآن ما يقارب نصف مجموعه، والباقي
فى تشريع العبادات والمعاملات، فتصطفى السالفين لتكون عبرة
وذكرى للمتكرين. ولكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وفى
قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾^(١) وفى قوله تعالى: ﴿واصبر
نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾^(٢). وفى
قوله: ﴿لمن كان له قلب﴾^(٣) وقوله: ﴿إن فى اختلاف الليل والنهار وما
خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾^(٤) وفى قوله تعالى:
﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى
الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى
خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب
النار﴾^(٥)، وفى قوله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾^(٦). أى
العلماء به، وفى قوله: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً
وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾^(٧). وفى قوله: ﴿إن الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا
وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾^(٨) وفى قوله: ﴿والذين جاهدوا

(١) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٣) سورة ق الآية ٣٧ .

(٤) سورة يونس الآية ٦ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩٠ - ١٩١ .

(٦) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٧) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

(٨) سورة فصلت الآية ٣٠ .

فينا لنهدينهم سبلنا ^(١) وفى قوله تعالى: ﴿ عبادى ﴾ ^(٢)، ﴿ وعبادنا ﴾ ^(٣) و يحبهم ويحبونه ^(٤) و ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ^(٥) وفى سائر الآيات التى تذكر المحسنين والصادقين والموقنين الصابرين والراضين والمتوسين والتى منها ﴿ أولئك حزب الله ... ﴾ ^(٦) وذكر المتقين فى قوله ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ^(٧).

وكذلك كل الآيات التى تحت على النظر فى خلق السموات والأرض وفى الأفاق والأنفس كل ذلك يدل على أن أصل التصوف الإسلامى الحق وقواعده - وهى ليست غير هذا - مستمدة من كتاب الله. ولك فى استثناء الله لأحبائه وأهل معينة من خاصة المسلمين والمؤمنين فى قوله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾ ^(٨).

وهى هذه الآية يخاطب الله المؤمنين الذين قطعوا شوط الإسلام بأحكامه وآدابه ثم ترقوا إلى مرتبة الإيمان وهم بهذا صفوة المسلمين. وفى قوله (ألم يأن) أى ألم يأت الوقت وألم يحن الحين للذين آمنوا بعد أن أسلموا - أن تخشع قلوبهم لذكر الله، فيكونوا من المحسنين، وخص

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٢) وردت فى أكثر من موضع من هذه المواضع سورة الحجر الآية ٤٩ .

(٣) سورة الكهف جزء الآية ٦٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٥) سورة البينة الآية ٨ .

(٦) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٧) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٨) سورة الحديد الآية ١٦ .

هنا الذكر لفضله على سائر العبادات. كالصلاة نفسها لأنها على فضلها بعض الذكر، وليس الذكر على شموله بعض الصلاة. وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾^(١) بعد قوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾^(٢) أى إن الذكر أكبر شأنًا وأعظم درجة برتبته الثلاث باللسان أو بالقلب أو بالروح.

(وما نزل من الحق) معناه الذى نزل فى الكتاب من عند الله من الدلالات الباعثة على الفكر والذكر وحسن المعتقد وصحيح العبادات والمعاملات والمفروض أن يذكر أن العاصى أو الناسى. أما أن يذكر المؤمنون فهذا شئى هائل معناه أن تفرع تلك القلوب التى أسلمت ثم آمنت إلى اعتلاء ذروة اليقين بغية التعرف الحق إلى الله جملة وتفصيلاً. وهذا مقام لا يخاطب فيه إلا أهل الإحسان وهم أهل التصوف الحق. (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)^(٣).

ويجعل المستشرق (ماسينيون) التصوف دخيلاً على الإسلام تمهيداً لتخريج رجاله، فسلك طريقاً عجيباً ليوهم أن لرأيه أسانيد علمية وتاريخية وسابقة من الأفكار الإسلامية فقال:

(إن علماء الإسلاميات لمحارون فى تحليل الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذاهب التصوف وبين مذاهب أهل السنة). ومن ثم ذهب إلى أن التصوف دخيل على الإسلام بعيد عن روحه، ولم يذكر لنا (ماسينيون) من علماء الإسلاميات الذين قالوا هذا؟ ولم يسق دليلاً على دعواه^(٤).

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٣) سورة الحجرات.

(٤) توصيات فلسفة فى الإسلام للمستشرق ماسينيون ترجمة د. عبد الرحمن بدوى.

وأما المستشرق "ماركس" فقد قال: (إن التصوف الإسلامي مأخوذ من رهبانية الشام خاضع للروحانية المسيحية وذلك منطبق نعرفه من أمثال المستشرق "ماركس" وصحبه الذين بذلوا حياتهم صائحين بأن الإسلام عقيدة جافة مادية بعيدة عن الروحانية. فلما وجهوا بالتصوف تتادوا بأنه من وحى المسيحية ومن إلهام رهبانياتها.

وذهب "جونس" إلى أنه مأخوذ من أفلاطونية اليونان الحديثة، أو من زراد وثنية الفرس، أو بمعنى آخر يريد أن يقول إن التصوف الإسلامي وثني لأن فلسفة اليونان وثنية، وكذلك الفلسفة الفارسية.

وذهب "تيكالسون للفرنسي" إلى أن الزهاد المسلمين - الصوفية قد تشبهوا برهبان النصارى في لباس للصوف، ولذلك ذهب مذهب "ماسينيون".

وواضح أن الهدف من هذا القول المخرض هو الكيد للإسلام كيذاً بيناً. وهذا دائماً دينهم، وتلك هي سجاياهم يدسون السم في العسل، فظاهر قولهم رحمة وباطنه عذاب، فالتصوف منهج إسلامي محض، حيث إن القرآن الكريم كتاب الله وبيانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله. به قصم الله ظهر كل شيطان مريد، وأذل به كل جبار عنيد، هو الذي أحنى رأس الوليد، وألان قلب عمر، ودعا إلى الزهادة في الدنيا بتحقيق شأنها وتقيح زينتها وعدم الاعتزاز بها، والجرى وراء بهرجها الكذاب، وزخرفها الخداع، لأن متاعها قليل، وظلها زائل، وكل ما فيها عارية مستردة.

وهذا كله في الحقيقة دعوة إلى التصوف. فالتصوف لا يخرج عن كونه زهداً وتقصفاً، وعدم إقبال على الدنيا وعملاً للأخرة، وهذا منهجه

وذلك مسلكه، فكيف يدعى هؤلاء أنه مستمد من المسيحية أو رهبا فيها.
إنها فرية لا تحتاج إلى دليل في تكذيبها، كما أن السنة المطهرة
وهي المصدر الثاني في التشريع دعت إلى ما دعا إليه القرآن الكريم
من طرح الدنيا وجعلها معبراً للآخرة، لأنها وسيلة، لا غاية.

وحسبنا في ذلك سلوك رائدنا ومعلمنا وزعيمنا محمد ﷺ الذي
خاطبه المولى بقوله: ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة لمن اتقى ولا
تظلمون فتيلاً ﴾ (١).

والذي يقلب صفحات السيرة النبوية العطرة يجد نماذج كثيرة تبين
له بجلاء ووضوح تأمين مدى ما صبر عليه نبينا من شظف وتزهد.
وهو الذي لو أراد الدنيا ومتاعها لأنته طوعاً. بل لقد أنته ولكنه تركها
وصرف عنها، ففي الحديث عن عائشة: "كنا نمكث الهلال ثم الهلال ثم
الهلال ثلاثة أملة ولا يولد في بيت النبوة نار".

من هذا كله نستنبط أن التصوف منهج إسلامي، كما أن مشاهد
القيام في القرآن الكريم، التي لم يذكر لفظها في توراة اليهود البتة،
وذكرت في إنجيل النصارى ذكراً عرضياً - هي أكبر دليل على أن
التصوف إسلامي لحمة وسدى فالتصوف: عرفه العرب قبل الإسلام
وتخلقوا به لعهد الرسول ولكن يظهر أنه لم يكن ملحوظاً في كلام الناس
ولم يختصوه بدرس ولا بيان، وكانت الأعمال الروحية تتدرج في
الأعمال الدنيوية، وأول من لفت الناس إلى كلامه في المعاني الوجدانية
وأسرار القلوب هو "حذيفة بن اليمان" الصحابي الجليل، وقد قيل له:

(١) سورة النساء الآية ٧٧ .

نراك تتكلم فى هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله فمن أين أخذته؟ فقال: "خصنى به رسول الله ﷺ . كان الناس يسألونه الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقنى". وقال مرة: (فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير). وفى لفظ آخر: (كان الناس يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا. يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول: يا رسول الله ما يفسر كذا وكذا؟ فلما رأتى أسأل عن آفات الأعمال خصنى بهذا العلم" (١).

قال المكي: وكان حذيفة قد خص بعلم المنافقين، وأفرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون إليه فى العلم الذى خص به. وكان يستكشفه عن نفسه، هل يعلم فيه شيئاً من النفاق، فرآه منه، ثم يسأله عن علامات النفاق، وآية المنافق، فيخبر عن ذلك بما يصلح مما أذن له فيه، ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به فيعذر فى ذلك (٢).

ويقول د. زكى مبارك: ومعنى هذا أن الرسول كان يكتم أسرار التصوف، ولا يمنحها غير الخواص، ومعناه أيضاً أن التصوف هو البصر بأسرار القلوب، وما يعرض لها من دقائق الرياء والنفاق.

وعن حذيفة بن اليمان تعلم الحسن البصرى، وهو إمام الصوفية وكانوا أثره يقفون، وسبيله يتبعون، ومن مشكاته يستضيئون.

(١)

(٢) قوت القلوب لأبى طالب المكي.

ويقول المكي: وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم، وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعه من أحد من إخوانه، ف قيل له: يا أبا سعيد: إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من غيرك، فممن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان^(١).

وكانت طريقة الصحابة والتابعين طريق الحق والهداية، والعكوف على العبادة، والانقطاع عن زخرف الدنيا والزهد والخلو للعبادة. فلما فشى الإقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، ولما اختصوا بالزهد والإقبال على العبادة اختصوا بمدارك خاصة، وأصل طريقتهم محاسبة النفس، ولهم آداب مخصوصة، واصطلاحات ليست لغيرهم من أهل الشريعة والكلام^(٢).

مما تقدم نفهم أن منابع التصوف الإسلامى هى: القرآن والسنة المطهرة، حيث كانت النسبة فى زمن الرسول ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال مؤمن ومسلم. ثم حدث اسم زهد وعابد ثم نشأ أقوام انقطعوا إلى عبادة الله وتخلوا عن الدنيا وفروا إلى الله بأعمالهم الصالحة وتبتلهم إليه فى خلواتهم، فسموا بالمتصوفة.

فالتصوف إسلامى حيث إنه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله كما ذكرنا آنفاً.

(١) المرجع السابق.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦١، ط. أولى، القاهرة، ١٩٦٠.

ظهور كلمتى صوفى ومتصوف

وأصل هاتين الكلمتين

سبق أن ألمحنا إلى أن أول شخص وقف نفسه كإلية لخدمة الله عز وجل هو رجل اسمه "صوفه" وكان يقيم بجار الكعبة واسمه الحقيقى "غوث بن مر" والزهاد الذين كانوا يشبهونه من حيث الانقطاع عما سوى الله سموا بـ "الصوفية" وقالت جماعة: إن التصوف منسوب لأهل الصفة وهم رهط من الفقراء المعوزين الذين انقطعت صلتهم بأهلهم من مساعى صدر الإسلام ممن كانوا يسكنون فى صفة مسجد رسول الله ﷺ وكانوا يعيشون على الصدقات وأصبحوا فى غنى بعد الفتوحات الإسلامية لكن النسبة إلى أهل الصفة خطأ إذ لو كانوا ينسبون إلى أهل الصفة لسموا: بالصفية ويقول السمعاني فى "الأنساب عن نسبة الصوفى" هذه النسبة اختلفوا فيها. فمنهم من قال: هى منسوبة إلى لبس الصوف، ومنهم من قال: هى من "بنى صوفة" وهى جماعة من العرب كانوا يتزهدون ويقللون من التهاافت على الدنيا فنسبت هذه الطائفة إليهم، وقد ذهب إلى أنه بقلة رعناء قصيرة فنسبوا إليها لاحتزازهم بنبات الصحراء، وهذا أيضاً غلط لأنه لو نسبوا إليها لقال: "صوفاني".

وقال آخرون: هو منسوب إلى "صوفة القفا" وهى الشعرات النابتة فى مؤخرة الرأس، كأن الصوفى عطف به إلى الحق، وصرفه عن الخلق.

وقال آخرون: بل هو منسوب إلى الصوف. وهذا يحتمل والصحيح الأول^(١).

هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين. ويقول ابن خلدون في المقدمة: (كانت طريقة الصحابة والتابعين طريق الحق والهداية، والعكوف على العبادة والانقطاع عن زخرف الدنيا، والزهد والخلو للعبادة، فلما فُشِّح الإقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم: "الصوفية" ولما اختصوا بالزهد والإقبال على العبادة اختصوا بمدارك خاصة، وأصل طريقتهم محاسبة النفس، ولهم آداب مخصوصة واصطلاحات ليست لغيرهم من أهل الشريعة والكلام^(١)).

ويقول القشيري وهو من صوفية أواخر القرن الرابع: وقد عاش حتى أواسط القرن الخامس - في الرسالة القشيرية "هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال: "رجل صوفى" وللجماعة "صوفية" ومن يتوصل إلى ذلك يقال له "متصوف" والجماعة المتصوفة وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس، ولا اشتقاق، والأظهر فيه أنه للقب^(٢)).

أما ما قيل من أن كلمة "الصوفى" اسم جديد استحدثه أهل بغداد فهذا محال. لأن هذا الاسم كان معروفاً في عهد "الحسن البصرى" وقد أدرك الحسن البصرى صحبة جماعة من أصحاب الرسول ﷺ. وروى عنه قوله: (رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معى أربعة دوائق فيكفينى ما معى). ويروى عن "سفيان الثورى" أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفى لم أكن أعرف دقائق الرياء).

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٦١ أخبار. رضوان إبراهيم مراجعة أحمد زكى، وزارة الثقافة، ط. أولى، القاهرة. عيسى الحلبى.

(٢) الرسالة القشيرية للإمام القشيري تحقيق د. عبد الحليم محمود، محمود ابن الشريف، ص ١٢٦،

وكذلك يروى فى كتاب "أخبار مكة" عن "أحمد بن إسحاق بن يسار" أنه قال: (حدثنى جماعة أن مكة كانت تخلو قبل الإسلام أحياناً بحيث لا يكون فيها أحد للطواف بالبيت ويحدث أنه كان يأتى من إحدى البلاد البعيدة رجل صوفى ويطوف ثم يعود). ولو صح هذا الحديث لدل على أن اسم "الصوفى" كان معروفاً قبل الإسلام وكانت جماعة أهل الفضل والصلاح تنسب إلى هذا الاسم وتعرف به^(١).

ويقول ابن تيمية فى رسالته "الصوفية والفقراء" بعد رده على الأقوال المختلفة "إن القول المعروف هو أن الصوفى منسوب إلى الصوف".

وكان أول ظهور الصوفية فى البصرة كما أن أول من شَيَّدَ ديرة صغيرة للصوفية بعض أتباع "عبد الواحد بن زيد" من أصحاب "الحسن البصرى"^(٢).

وبعض المستشرقين الأوربيين ممن يستقصون استقصاءً كافياً قالوا بسبب المشابهة الصوتية بين كلمة "صوفى" والكلمة اليونانية "قيوسوفيا" أن كلمتى "صوفى" و "متصوف" أخذتا من الكلمتين اليونانيتين.

"سوفيا" و "ثيوسوفيان" إلا أن "تولدكة" أثبت خطأ هذا الزعم وأيده فى ذلك "فيكلسون" و "ماسنيون" ودكّل على أن "سى" اليونانية نقلت إلى

(١) تاريخ التصوف الإسلام، د. قاسم ترجمة عن الفارسية صادق نشأت، مراجعة أحمد ناجى الألفى، د. محمد مصطفى حلمى، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧٠م، ص ٦٠ إلى ٦٣.

(٢) تاريخ التصوف الإسلامى، د. قاسم عن (أخيه أحمد ناجى)، د. محمد مصطفى حلمى، سنة ١٩٧٠، مكتبة النهضة المصرية، ص ٦٦، ٦٧.

العربية كما هي "سينا" لا "صادا". كما أنه لا يوجد في اللغة الأرامية كلمة تعد واسطة لانتقال "سوفيا" إلى "صوفى".

ويظهر من أقرب الأقوال إلى العقل، والمنطق، والموازن اللغوية أن كلمة "صوفى" عربية مشتقة من كلمة "صوف" والسبب في تسمية الزهاد والمرتاضين في القرون الأولى الإسلامية "الصوفية" هو أنهم كانوا يرتدون الملابس الصوفية الخشنة^(١).

وإن جماعة من كبار الصوفية مثل أبى نصر السراج "صاحب اللمع" وجماعة من كبار العلماء ومن غير الصوفية مثل "ابن خلدون" و "ابن تيمية" و "ابن الجوزى" قد اتفقوا على أن كلمتى "الصوفى" و "التصوف" مأخوذتان من كلمة "الصوف"^(٢).

ويرى الدكتور "أبو الوفا التفتازانى" ما ارتآه "ابن خلدون" فأبو نصر السراج الطواس من أن الدراسة العلمية أثبتت أن اشتقاق كلمة "تصوف" من الصفوة بمعنى الصفاء، أو من "الصف" لأن الصوفية في الصف الأول أمام الله، أهو مشتق من اسم "صوفة بن مرة" أحد سدنة الكعبة في الجاهلية أو هي كلمة "سوفيا" اليونانية التى تعنى الحكمة أمر غير دقيق، وأن هذه الوجوه كلها بعيدة. والأصوب أن يقال إن اشتقاق كلمة "صوفى" هو من "الصوف" فيقال: تصوف الرجل إذا لبس الصوف، وكان لبس الصوف شعاراً للعباد والزهاد فى أول نشأة الزهد، وكثير من الصوفيين أنفسهم يذهبون إلى هذا الرأى، ومنهم "أبو نصر السراج الطوسى" فى كتابه "اللمع" ويؤيد ابن خلدون وآخرون^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٦٧، ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٣) مدخل إلى التصوف الإسلامى للمتوفى ص ٢٦ دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٤م.

وعلى أية حال يرجح "أبو نصر السراج الطوائسي" ذلك إلى أن اسم الصوفي حادث بعد الإسلام، وليس من ألفاظ الجاهلية.

ولا ريب أن الرواية التي نقول: إنه كانت مكة قبل الإسلام قد خلت في وقت من الأوقات من الناس حتى كان لا يطوف بالبيت أحد وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف رواية ضعيفة فلا ريب ولا دليل عليها^(١).

فمن أين أخذت إذن كلمة "صوفي"؟

وهنا يقع الخلاف وتضطرب الآراء.

فكثير من المستشرقين يذهبون إلى أن كلمة "صوفي" مأخوذة من كلمة "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة وأربابها الحكماء. وقد أخذت كلمة "فيلسوف" بمعنى "محب الحكمة" من كلمة "سوفيا" اليونانية بمعنى الحكمة أيضاً، وعندما فلسفت العربية عبادتهم حرفوا تلك الكلمة وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الروحية.

وممن ذهب إلى ذلك المستشرق "ماركس" وقريب من هذا ما يقوله بعض آخر من المستشرقين من أن "صوفي" مأخوذة من كلمة "ثيوسوفيا" بمعنى الإشراق أو "محب الحكمة الإلهية".

وممن ذهب إلى ذلك "فولدكة" ويذهب "فون هامر" إلى أنها من كلمة "سوفيا" بمعنى "الحكيم" وهذه كلها أوهام ولا دليل عليها. بل يقول الدكتور: زكي مبارك لم لا تذهب إلى عكس ذلك، وتقرر أن كلمة "سوفيا" مأخوذة من كلمة "صوفي" التي عرفها العرب في جاهليتهم كما

(١) اللع لأبي نصر السراج الطوائسي، ص ٤٢، ٤٣.

يرى الدكتور زكى مبارك أننا لا نرى صحة للزعم بأن لغة أخذت من لغة إلا بدليل قوى، خاصة إذا كانت اللغتان ليس بينهما صلة تاريخية من جوار أو تبادل ثقافى أو اختلاط سياسى.

وممن ذهب إلى ذلك رأى "أبو الريحان البيرونى" و "محمد لطفى جمعة" و "عبد العزيز الإسلامبولى" صاحب مجلة المعرفة (ت ١٩٦٤م) (١).

ورأى يقول: إن كلمة "صوفى" نسبة إلى "صوفة" وهو رجل زاهد متعبد فى الجاهلية كان قد انقطع إلى الله وعبادته وطاعته عند البيت الحرام واسمه "الغوث بن مرة" وكان إليه أمر الإجازة فى الحج، وقيل لأحفاده من بعده "صوفة" قال ابن الجوزى: سئل "وليد بن القاسم" إلى أى شىء ينسب الصوفى؟ فقال: كان قوم فى الجاهلية يقال لهم "صوفة" انقطعوا إلى الله، وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم منهم: الصوفية وأشار إلى هذا كذلك الفيرزوايادى صاحب القاموس المحيط فقال: "صوفة" أيضاً. أبو حى من مضر وهو: الغوث بن مرة أو ابن طايخة كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحجاج فى الجاهلية أى يفيضون بهم من عرفات. وكان أحدهم يقوم فيقول: أجزى صوفة. فإذا أجازت قال: أجزى "خندف" فإذا أجازت آنن للناس كلهم فى الإجازة أو هم قوم من أفناء القبائل تجمعوا فتشبعوا كنشبعك الصوفة (٢).

والزمخشري فى "أساس البلاغة" يقول "فلان يلبس الصوف والقطن أى ما يعمل منهما. وكيس صافٍ، وصوفانى، وصوفانية -

(١) مجلة المعرفة، عدد أغسطس، سنة ١٩٣١.

(٢) القاموس المحيط لمحيى الدين الفيرزوايادى، ج ٣، ص ١٣٩، من باب القاء فصل الصاد، ط، الثانية، مطبعة مصطفى الحلبي.

كثير الصوف - وصاف الكبش بعد زمرة يصوف ويصاف صوفاً، ولا أفعل ذلك ما بل بحر صوفة. ويقال أكان آل صوفة يجيزون الحجاج من عرفات أى يفيضون بهم ويقال لهم: آل صوفان وأل صوفان. وكانوا يخدمون الكعبة وَيَشْكُون وأهل الصوفة نسبوا إليهم تشبيهاً بهم فى النسك والتعبد، أو إلى أهل الصفة فقيل: مكان "الصفية" الصوفية. يقلب إحدى الفاعين واواً للتخفيف، أو إلى الصوف الذى هو لباس العباد وأهل الصوامع^(١) كما أشار إلى ذلك بعض المستشرقين. وهذا الرأى يدل على النسك كان معروفاً فى الجاهلية، ولقطة "الدَّيَّان" العربية معناها: النسك فى الدين - ومثلها "الربانى" وهى لفظة قديمة عرفتها العربية والسريانية وظلت من ألفاظ التمجيد.

يقول صاحب كتاب "الروض المستطاب":

وقد جرى من حيث الاشتقاق فى لقطة التصوف الشقاق
وكان ذى قول له توجيهه لقوله فى تفسيره وجيهه
وكان القياس والقواعد فى جملة الأقوال لا تساعد^(٢)

وفى صحاح الجوهري: الصفاء - ممدوداً - خلاف الكدر وصفوة الشيء - خالصة - ومحمد صفوة الله من خلقه ومصطفاه ، و "الصفى" المصافى.

والجمع: صفايا: قال الشاعر:

لك المرباغ منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفصول^(٣)

(١) أساس البلاغة للزمخشري، ص ٥٤٦ مادة صوف. كتاب الشعب.

(٢) روض القلوب المستطاب للشيخ حسن رضوان، ص ٤٨٠.

(٣) الصحاح للجوهري، ج ٢، ص ٥٠٤.

ويقول صاحب الروض المستطاب:

ولفظ "صوفى" لم يكن مستعملاً فى عرف من حازوا الكمال أولاً:

والقوم أهل الحق والإشارة يستعملون هذه العبارة

وهو اصطلاح بينهم مشهود فيما صفا وعرفة منشور

وذلك سر ما به تشير حروفه وقلبه منير^(١)

هذا فى بيان أن لفظ "صوف" لم يكن مستعملاً أولاً وإنما لفظ اصطلاح عليه القوم وأطلقوه على من تحقق بما أشارت إليه حروفه.

ويقول ابن الجوزى: (كانت النسبة فى زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام فيقال: مسلم ومؤمن ثم حدث اسم. زاهد وعابد. ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا فى ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقاً تخلقوا بها فسموا بالصوفية^(٢)).

وأرى أن هذا رأى هو الأقرب للصواب حيث إن لفظة مسلم، ومؤمن، هى الصبغة التى اصطبح بها المسلم فى ذلك العصر ثم جاء أناس فقالوا - كما قال ابن الجوزى - بالعبادة زاهدين فى الدنيا لمتاعها القليل راغبين فى الآخرة لنعيمها المقيم فسموا بالصوفية. لهذه الصفات من تقشف، وزهد، وعبادة، وطاعة، وتبتل إلى الله عز وجل.

(١) روض القلوب المستطاب للشيخ حسن رضوان، سنة ١٣٢٢هـ، ط. أولى، ص ٤٧٧.

(٢) تلبس إبليس للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن الجوزى البغدادى المتوفى فى ٥٩٧هـ، مطبعة النهضة سنة ١٩٢٨م، ص ١٦١.

متى نشأت كلمتا تصوف، صوفى فى الإسلام؟:

ورد عن الحسن البصرى أنه قال: "أدركت سبعين بدرىا كان لباسهم الصوف"^(١).

وورد عنه كذلك قوله: (رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه. وقال: معى أربع دوائيق يكفينى ما معى).

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام). وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى^(٢).

ووصف أبو هريرة وفضالة ابن عبيد الصوفييين فقالوا: (كانوا يَخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف، حتى أن بعضهم كان يعرق ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث فكان اختيارهم لبس الصوف لتركهم زينة الدنيا وقناعتهم بسد الجوع وستر العورة، واستغراقهم فى أمر الآخرة فلم يفترقوا لملازمة النفوس وراحتها لشدة شغلهم بخدمة مولاهم وانصراف همهم إلى أمر الآخرة، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقال: "تصوف" إذا لبس الصوف كما يقال: "تقمص" إذا لبس القميص"^(٣).

(١) قدر عريف المعارف، ص ٦٦.

(٢) عوارف المعارف، السهروردى، ص ٦٤.

(٣) عوارف المعارف، السهروردى، ص ٦٤.

فلما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم فى الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه لا يقدرهم وصف ولا يحبسهم نعت، وأبواب المزيد علماً وحالاً عليهم مفتوحة، ويواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم، فلما تعذر تقيدهم بحال تنوع وجدانهم وتجنس مزيدهم نسبوا إلى ظاهر اللبسة^(١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (يوم كلم الله موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكفه من صوف ونعله من جلد حمار غير مزكى)^(٢).

وقد انفرد المراعون أنفاسهم مع الله باسم المتصوفين فى عصر الإمام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة^(٣)، وكانوا من قبل يسمون القراء والنساک والزهاد^(٤) وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء^(٥)، ويقولون: وقد سماهم الله تعالى فقراء فقال: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون)^(٦) وقال تعالى: (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تتفقوا من خير فإن الله به عليم)^(٧).

(١) عوارف المعارف، السهروردى، ص ٦٥.

(٢) عوارف المعارف، السهروردى، ص ٦٥.

(٣) الرسالة القشيرية.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ.

(٥) اللمع للسراج الطوسى، ص ٤٦.

(٦) سورة الحشر، الآية رقم ٨.

(٧) سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٣.

ولمساور الوارق الشاعر الكوفى من شعراء القرن الثامن الهجرى:

تصوف كى يقال له أمين وما يعنى التصوف الأمانة^(١)

ويقول سفيان الثورى: (لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقائق الرباء)^(٢). وكان الثورى يسمى أمين المؤمنين فى الحديث.

وكان يقول: ازهد فى الدنيا ونم لا لك ولا عليك، ويقول: الزهد فى الدنيا هو قصر الأمل ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ والعباء^(٣).

ويقال: إن أول من سمى بالصوفى أبو هاشم الصوفى، وأول من تكلم ببغداد فى مذهب الصوفية أبو حمزة الصوفى^(٤).

وكان ابن حنبل يقول لأبى حمزة فى المسائل: ما تقول فيها يا صوفى^(٥).

والجنيد كان يقول ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المأكوف والمستحسنات^(٦).

ويقول علمنا هذا أى التصوف مقيد بحديث رسول الله ويقول: مقيد بأصول الكتاب والسنة.

(١) المقد التريد لابن عبد ربه، ج ٣، ص ٢١٧، ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٢) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى، ص ٤٢، حوافر المعارف للسهروردى، ص ٦٦.

(٣) الطبقات الكبرى فى الشعر، ج ١، ص ٤٠ وما بعدها، ط: صبيح، القاهرة.

(٤) محاضرة الأوائل للإمام السيوطى واللمع، ص ٤٩٥.

(٥)

(٦) المرجع السابق، ص ٧٩.

ومن ذلك نعلم أن اصطلاح التصوف والصوفي ظهر في القرن
الثاني الهجري.

يقول الطوسي صاحب اللمع: أما قول القائل أنه أي التصوف اسم
مستحدث أحدثه البغداديون فمحال، لأن هذه الحال في وقت الحسن
البصري رحمه الله كانت تعرف بهذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك
جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ (١).

ويقول ابن تيمية في رسالته عن الصوفية: إن منشأ التصوف كان
من البصرة، من أجل أن الحسن البصري كان من أوائل الصوفية في
الإسلام لأنه كان مؤسس مدرسة بصرية في التصوف (٢). بفضل الحسن
البصري استقرت زعامة التصوف في البصرة وقامت في بغداد مدرسة
صوفية أستاذها التابعي الجليل (سعيد بن المسيب) ومن تلاميذه أبو
حمزة الصوفي.

قواعد التصوف :

يبنى التصوف على خمس قواعد، وتلك القواعد متنسقة مع تعاليم
الدين مسيطرة للشرعية من حيث أحكامها الباطنة ونواميسها الخفية وتلك
القواعد هي:

أولاً: صفاء النفس ومحاسبتها.

ثانياً: قصد وجه الله.

ثالثاً: التمسك بالفقر والافتقار.

(١) اللمع لأبي النصر المراج الطوسي، ص ٤٢.

(٢) المدخل إلى التصوف .

رابعاً: توطين القلب على الرحمة والمحبة.

خامساً: التجميل بمكارم الأخلاق التي بعث الله بها النبي لتمامها.

فالقاعدة الأولى : معناها أن كل من أراد أن يدخل في سلك المقربين بعد الجواب لسؤال الحق تعالى، وذلك أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، ويزن أعماله قبل أن توزن بقسطاس الآخرة، ويصفي نفسه من شوائبها ووساوسها.

وهذا مستمد ومقبوس من قول المعصوم عليه السلام : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم).

ومن قوله سبحانه وتعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين)^(١). وقوله تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)^(٢).

والقاعدة الثانية : معناها أن المتصوف لابد أن يقصد وجه ربه في جميع أقواله وأفعاله غاسلاً قلبه بالإخلاص لوجه الله، لا مخافة المخلوقات وهيبة الرؤساء، فيصير بذلك لا يتكلم ولا يفعل إلا عن تثبيت واطمئنان، وتصبح أعماله خالصة لا خلط فيها ولا رياء. وحسبنا دليلاً على ذلك قول الله لنبيه: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾^(٣)، وقوله أيضاً: ﴿ وما لأحد عنده من نعمة

(١) سورة الحجر، الآية رقم ٤٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية رقم ٣.

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨ .

تجزي إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى»^(١).

والقاعدة الثالثة : معناها الزهد في الدنيا والقناعة في متاعها وسمو بالنفس وارتفاعا بها عن الانزلاق في الشهوات، فإن التمسك بالفقر دليل النقشف والذي هو الآلة القاطعة لحبل الوصال بين العبد والشيطان فتأهل النفس بالعبادة الخالصة والاتجاهات الصادقة وعدم العلو والفساد. والافتقار هو تخلص المرء من زينة الحياة وشهواتها لينقطع لتقوى الله بخشية وخشوع محب الافتقار إلى الله شاعرا أنه لا حول له ولا قوة إلا به طالبا منه التكرم عليه بالإمداد والتجليات وذلك هو منتهى الإقرار بالعبودية التي هي مركز التصوف وعقيدة الإيمان، لأنه يعلم علم اليقين أن الله هو العلى القدير الفعال لما يريد.

والقاعدة الرابعة : معناها أن كل صوفى تتخلج قلبه محبة المسلمين وتمتزج به رحمتهم حتى يعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير. فإن رسخت لديه هذه القاعدة واستقام في التدريب عليها، أفاض الله عليه أضواء الحياة وأذاقه حلاوة الرضا وألبسه ثوب القبول: فينال مما ورثه النبيون ألوان المحبة والرضا حظا وافرا.

قال تعالى في حق الرسول: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٢). وقال عليه السلام لصديقه أبي بكر: (لا تحقر أحدا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير).

والقاعدة الخامسة : هي زبدة الدين وخلاصة أخلاق الصوفيين، ومعناها أن يكون العبد هينا لنا مع أهل بيته وعشيرته وجميع

(١) سورة الليل الآية ١٩ : ٢١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

المسلمين، قال عليه السلام: (أهل الجنة كل حين لين سهل قريب، وأهل النار كل شديد قبيح). قالوا وما القبيح؟ قال: الشديد على الأهل والصاحب والعشير. وقال تعالى: ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ إذ أن الله تعالى يعامل عبده بوصفه وخلقه الذي يعامل الناس به، ولذلك يقول تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ وفي الحديث القدسي عنه عز وجل: (يقول الله للعبد يوم القيامة: جعت فلم تطعمني واستقيت فلم تسقني ومرضت فلم تعدني - فيقول العبد: كيف تجوع وأنت رب العالمين؟ وكيف تمرض وأنت رب العالمين؟ وكيف تسقي وأنت رب العالمين؟ فيقول له سبحانه وتعالى مفسر لذلك - أما أنه مرض عبدي فلان فلو عدته لوجدتني عنده، وجاع عبدي فلان فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي، واستسقاك عبدي فلان فلو سقيته لوجدت ذلك عندي).

ذلك هو الحديث القدسي الذي جمع محاسن الأخلاق وجميل الصفات بين الناس، وهو القانون الإلهي الذي سلك منهاجه رجال التصوف في حياتهم الدنيوية العملية - فمن رسخت قدمه منهم في هذا المقام صارت أحواله ومعاملاته مع الله في كل شيء فلا يراقب غير الله في كل سلوكاته وحركاته، قال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾. وقال عليه السلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

الصوفية والتصوف

كنه التصوف :

التصوف حركة دينية انتشرت فى العالم الإسلامى عقب اتساع الفتوحات وازدياد الرخاء الاقتصادى كرد فعل مضادة للانغماس فى الترف الحضارى مما حمل بعضهم على الزهد الذى تطور بهم حتى صار لهم طريقة مميزة معروفة باسم " الصوفية " إذ كانوا يتوخون تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله بالكشف والمشاهدة لا عن طريق التقليد أو الاستدلال، لكنهم جنحوا فى المسار بعد ذلك حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة^(١) .

والتصوف فى حقيقته إيثار وتضحية، تضحية بالذائد والشهوات وإيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للأجل، مجاهدة للنفس ومغالبة لأهوائها .

هو نزوع فطرى إلى الكمال الإنسانى والتسامى والمعرفة عن طريق الكشف الروحى، أو العلم اليقينى الناشئ عن الإلهام الإلهى والنظر العقلى والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية^(٢) . والتصوف روح لمجموع حقائق الإسلام من عبادة وإيمان ويقين وعرفان^(٣) ، وهو إيثار الحق على رغبات النفس يقول الإمام الجنيد : " التصوف هو أن يمينك الحق عنك ويحييك به " . ويقول معروف الكرخى : (التصوف هو الأخذ بالحقائق، والياس مما فى أيدي الخلائق) . ويقول أبو الحسن

(١) التصوف الإسلامى . أحمد توفيق عياد - الأتجلو المصرية ١٩٧٠ م .

(٢) المدخل إلى التصوف الإسلامى تأليف محمود أبو الفيض المنوفى ص ٩ .

(٣) ذاته ص ١٠ .

الشاذلى (هو تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية) .
وسئل أحد الصوفية عن معنى التصوف فقال : التصوف معناه أن العبد
إذا تحقق بالعبودية واتصف بشهود حقائق الربوبية صفا من كدر
البشرية، فنزل منازل الحقيقة، وأخذ بمكارم الشريعة، فإن فعل فهو
صوفى) . والصوفى كما يقول السرى أحد ثلاثة واحد لا يطفى نور
ورعه نور معرفته، وواحد لا يتكلم بباطن فى علم ينقده عليه ظاهر من
الشرع، وواحد لا تحمله الكرامات على هناك أسرار محارم الله^(١). ويقول
شاعر الإسلام محمد إقبال (إن الإسلام يأخذ عن الصوفية طابعا من
الجمال والكمال والإنسانية العالية والأخوة العالية لا نجده فى إسلام
الفقهاء والمتكلمين)^(٢) ويقول الطوسى عن الصوفية إلهم معدن جميع
المعلومات، ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة، وهم مع
الله تعالى فى الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة^(٣) ويقول
الإمام الغزالى عن طريق الصوفية (إنها قطع عقبات النفس، والتنزه
عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية
القلب عن غير الله تعالى، وتخليته بذكر الله^(٤). ويقول ابن تيمية فى
رسائله عن الصوفية : الصوفى هو من صفا من الكدر، وامتلأ من
الفكر واستوى عنده الذهب والحجر، ويقول الجنيد الصوفى كالأرض

(١) الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق الدكتور عبد الحليم

محمود ومحمود بن الشريف ط ص ١٢٨ وما بعدها .

(٢) اللمع الطوسى - مقدمة الكتاب ص ٩ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه

مسرور .

(٣) ذاته ص ٤٠ .

(٤) المنقذ من الضلال للغزالى .

يطرح عليها قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح، ويقول أيضاً (إنها كالأرض يطأها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شئ . ويقول أيضاً إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب، ويقول الشبلى (الصوفى منقطع عن الخلق، متصل بالحق^(١) كقوله تعالى (واصطنعك لنفسى)^(٢) . وقال أيضاً الصوفية أطفال فى حجر الحق، - سنل ذو النون المصرى عن أهل التصوف فقال هم قوم أثروا الله عز وجل على كل شئ فآثرهم الله عز وجل على كل شئ . وسئل النورى عن الصوفى فقال : من سمع السماع وآثر الأسباب . وهى فعل المأمورات وترك المنهيات^(٣) .

نشأة التصوف الإسلامى وأبرز الشخصيات :

ذهب ابن الجوزى البغدادى (ت ٥٧٩ هـ) إلى أن الصوفية نسبة إلى رجل يقال له صوفة واسمه (الغوث بن مر) ظهر فى العصر الجاهلى . وذهب البيرونى قديماً وفون هامر حديثاً إلى أن الصوفية إنما هى اشتقاق من (سوفيا) اليونانية التى تعنى الحكمة، وهذا رأى يدعم موقف القائلين بأن التصوف الإسلامى إنما هو وليد الفلسفة الأفلاطونية. وقيل : الصوفية من الصوف لاشتغالهم بلبسه، وقيل : من الصفة أى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، وقيل : من الصفاء، وقيل : من الصف الأول . أبو سعيد الخراز يقول (الصوفى من صفا ربّه قلبه نوراً، ومن

(١) الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ط ٢ ص

٥٥٢ وص ٥٥٤ .

(٢) سورة طه ٤١ آية رقم (٤١) .

(٣) ذاته ص ٥٥٥ .

دخل في عين اللذة بذكر الله) هرب إلى مصر أيام محنة الصوفية ببغداد .

أبو محمد الجريري (ت ٣١١ هـ) يقول : (التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني) .

أبو بكر الكتاني (ت ٣٢٢ هـ) يقول : (التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء) ويقول كذلك : (التصوف صفاء ومشاهدة) . جعفر الخالدي (ت ٣٤٨ هـ) يقول (التصوف طرح النفس في العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية) . الشبلي : يقول : (التصوف بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده) . ويقول أيضاً (التصوف الجلوس مع الله بلا هم أى ملازمة طاعة الله^(١)) . والقشيري : هو صاحب الرسالة القشيرية يقول : (الورع ترك الشبهات) .

ومن شخصياتهم المشهورة رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٣٥ هـ أو ١٨٠ هـ أو ١٨٥ هـ وقد جمعت بين الزهد والحب أو ما يسمونه بالعشق الإلهي . كما أنها ساهمت في إثراء الأدب الصوفي .

ومنهم إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١ هـ) حيث أنه ترك الملك والسلطان وأقبل على الزهد والتصوف .

وكذلك سفيان الثوري (٩٧ - ١٦١ هـ) من العلماء الزهاد، يقول : (الزهد في الدنيا هو قصر الأمل، وليس بأكل الخشن ولا بلبس

(١) الرسالة القشيرية للقشيري تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود شريف ط ٢ ص ٥٥٤ .

العباء) . ذو النون المصري (ت ٢٤٥ هـ) من مدرسة الزهد ينحدر من أصل قبضي أو نوبى هو أول من مهد لظهور مذهب المعرفة فى التصوف حيث يقول : (عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى) . أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) أصله من نهاوند، ولد ونشأ بالعراق، وهو تلميذ الحارس المحاسبى يقول : (التصوف هو أن يملك الحق عنك ويحييك به) . وقد سئل عن قوم من أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال : (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهذه عندى عزيمة، والذي يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا) .

أبو يزيد البسطامى (ت ٢٣٤ هـ أو ٢٦١ هـ) كان جده مجوسياً وأبوه من أتباع زرداشت، روى بأنه ذهب إلى رجل مقصود مشهور بالزهد مشاهدة فشاهده يرمى ببصاقة تجاه القبلة فانصرف عنه ولم يسلم عليه قائلاً : (هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه) .

- أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤ - ٣٠٩ هـ) ولد بفارس حفيداً لرجل زرداشى، ونشأ فى واسط بالعراق وهو أشهر الحلوليين والاتحاديين، رمى بالكفر وقتل مصلوباً لتهم أربع وجهت إليه: (١) لاتصاله بالقرامطة . (٢) لقوله : (أنا الحق) . (٣) لاعتقاد أتباعه بألوهيته . (٤) قوله فى الحج حيث يرى بأن الحج إلى البيت الحرام ليس من الفرائض الواجب أدائها فى شخصيته كثير من الغموض، فضلاً عن كونه متشدداً وعنيداً ومغالياً، له كتاب (الطواسين) الذى أخرجه وحققه ماسينيون .

- أبو حامد الغزالي الملقب بحجة الإسلام (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)
ولد بطوس من إقليم خراسان، رحل إلى جرجان ونيسابور، ولازم نظام
الملك، درس في في المدرسة النظامية ببغداد، واعتكف في منارة مسجد
دمشق، ورحل إلى القدس ومنها إلى الحجاز ثم عاد إلى موطنه، وقد
ألف عدداً من الكتب منها (تهاقت الفلاسفة - والمنقذ من الضلال)
وأهمها (إحياء علوم الدين) ويعد الغزالي رئيس مدرسة الكشف في
المعرفة، ومن جليل أعماله هدمه للفلسفة اليونانية وكشفه لفضائح
الباطنية .

- أبو الفتوح شهاب الدين السهرودي (٥٤٩ - ٥٨٧ هـ) ولد
بسهرود بإيران، تنقل كثيراً، صاحب مدرسة الإشراق الفلسفية التي
أساسها الجمع بين آراء مستمدة من ديانات الفرس القديمة ومذاهبها في
ثنائية الوجود وبين الفلسفة اليونانية في صورتها الأفلاطونية الحديثة
ومذاهبها في الفيض أو الظهور المستمر . وقد حوكم وقتل بفتوى من
علماء حلب بسوريا، من كتبه (حكمة الإشراق) و(هياكل النور) و(و)
التلويحات العرشية) و(المقامات) .

نجى الدين بن عربي الملقب الشيخ الأكبر (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ)
رئيس مدرسة وحدة الوجود، يعتبر نفسه خاتم الأولياء، ولد بالأندلس،
ورحل إلى مصر، وحج، وزار بغداد، واستقر في دمشق حيث مات
ودفن، وله فيها الآن قبر يزار، طرح نظرية الإنسان الكامل التي تقوم
على أن الإنسان وحده من بين المخلوقات يمكن أن تتجلى فيه جميع
الصفات الألهمية إذا تيسر له الاستغراق في وحدانية الله، وله كتب كثيرة
يصل بعضهم بها إلى ٤٠٠ كتاب ورسالة ما يزال بعضها محفوظاً

بمكتبة يوسف أغا بقونية ومكتبات تركية أخرى، وأشهر كتبه (روح القدس) و (ترجمان الأشواق) وأبرزها (الفتوحات المكية) و (نصوص الحكم) .

- أبو الحسن الشاذلي (٥٩٣ - ٦٥٦ هـ) وهو صاحب الطريقة الشاذلية، من أقواله (إننا ننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإتقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان) .

- الأقطاب الأربعة : عبدالقادر الجيلاني، وأحمد الرفاعي وأحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي - منهم الفيلسوف الفرنسي رينيه جينو الذي أسلم وتصوف في أوروبا وسمى نفسه (عبدالواحد يحيى) وقد دافع عن الروحانية الإسلامية مبيناً سمو التصوف الإسلامي - على حسب رأيه - من كتبه (أزمة العالم الحديث) و (رمزية الصليب) و (الشرق والغرب) وحركة الزهد والرهبة والتبذل إلى الله عز وجل في كثرة كائنة في الأديرة والصوامع، والكهوف من الجبال، وفي الفلوات وذلك في كثير من الأديان السماوية القديمة كما كانت موجودة في الديانات الوثنية، ومن البلاد التي عرفت بذلك من قديم الزمان حتى يومنا هذا " الهند " التي ما تزال على وثنياتها من عبادة الأبقار، والزهد هو المعنى العام للتصوف الإسلامي، أما التصوف بمعناه الخاص فهو إسلامي لحمة وسدى . يقول القشيري : (أما بعد رضى الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغيث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق، بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورفعهم إلى

محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بأداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليل والتصريف، ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الإنكسار، ولم يتكلموا على ما حصل من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد، وثوابه ابتداء فضل وعذابه به حكم عدل وأمره قضاء^(١)." ويقول الهرارودى (إعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة ويعنى (الصوفية) بنوا قواعدهم على أصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم، ولذلك قال سيد هذه الطريقة (الجنيد) رحمه الله، التوحيد هو(أفراد القدم من الحدث . وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد)^(٢) فالقرآن الكريم مشرع التصوف بآياته الباعثة على التقوى والأمر بالإخلاص واليقين والتوكل وحسن العبودية لله وغير ذلك وتلك الآيات تشغل من القرآن الكريم ما يقارب نصف مجموعه، والباقى فى تشريع العبادات والمعاملات وقصص السالفين لتكون عبرة وذكرى للمتذكرين ولكل من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد)^(٣) فى قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾^(٤) وفى قوله تعالى : ﴿

(١) الرسالة التشريعية ط ص

(٢) عوارف المعارف للسهرودى .

(٣) المدخل إلى التصوف الإسلامى للمنوفى .

(٤) سورة الروم الآية ٣٠ .

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴿١﴾
 وفي قوله تعالى : ﴿ لمن كان له قلب ﴾ ﴿٢﴾ وفي قوله سبحانه : ﴿ إن في
 خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب،
 الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق
 السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار
 ﴾ ﴿٣﴾ وفي قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ﴿٤﴾ أى العلماء
 بالله وفي قوله : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا
 خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ ﴿٥﴾
 وفي قوله عز وجل : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم
 الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ ﴿٦﴾
 وفي قوله : ﴿ والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا ﴾ ﴿٧﴾ وفى قوله : ﴿
 لنهدينهم سبلنا ﴾ وفى قوله : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو
 بكل شئ عليم ﴾ ﴿٨﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ عبادى ﴾ و﴿
 يحبهم ويحبونه ﴾ و﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وسائر الآيات
 التى تذكر المحسنين والصادقين والقانتين والمخبتين والصابرين

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٢) سورة ق الآية ٣٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٠ : ١٩١ .

(٤) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٥) سورة الفرقان ٦٣ ، ٦٤ .

(٦) سورة فصلت الآية ٣٠ .

(٧) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

(٨) الحديد آية رقم (٣) .

والراضين والمتوسمين، وسائر الآيات أيضاً التي ورد فيها قوله تعالى : ﴿ أولئك حزب الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) وجميع الآيات القرآنية الواردة في كتاب الله عز وجل، والتي تحت على النظر في خلق السماوات والأرض، وفي الأنفس كقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى ضعمه ﴾ (٣) وكذلك الآيات الواردة في الآفاق، وفي الكون جميع ذلك يدل دلالة حاسمة على أن التصوف الإسلامي مقبوس ومستمد من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ . ويذهب المستشرق ماسنيون إلى أن التصوف دخيل على الإسلام فيقول : إن علماء الإسلاميات حاثرون في تعليل الخلاف الكبير في العقيدة بين مذاهب التصوف، وبين مذاهب أهل السنة ومن ثم ذهب إلى أن التصوف دخيل على الإسلام بعيد عن روحه ولم ينكر المستشرق ماسنيون من علماء الإسلاميات الذين دار بينهم الخلاف ولو عالماً واحداً، كما أنه لم يسق دليلاً على دعواه . أما المستشرق ماركس فيقول : إن التصوف الإسلامي مأخوذ من رهبانية الشام خاضع للروحانية المسيحية وذلك منطق لم يعرف إلا من ماركس وأمثاله الحاقدين على الإسلام والذين نراهم يرددون دائماً أن الإسلام عقيدة جافة بمنأى عن الروحانية فلما أن وجهوا بالتصوف الإسلامي وما فيه من روحانيات وزهد وورع واتصال بالملكوت الأعلى عن طريق الكشف والمشاهدة تعالت صيحاتهم المحمومة الحاقدة أن

(١) الحجرات آية رقم (١٣) .

(٢) الذاريات آية رقم (٢١) .

(٣) عبس آية رقم (٢٤) .

التصوف الإسلامى مقبوس من الرهينة المسيحية . ويذهب المستشرق (جونس) إلى أن التصوف الإسلامى مأخوذ من أفلاطونية اليونان الحديثة، أو من زرداشتية الفرس، أو بمعنى آخر يريد أن يقول أن التصوف الإسلامى وثنى حيث أن فلسفة اليونان وثنية، وكذلك الفلسفة الفارسية، ويذهب (نيكلسون) إلى أن الزهاد المسلمين ويعنى بهم الصوفية قد تشبهوا برهبان النصارى فى لبس الصوف، وحذى حذوه فى هذا الزعم المستشرق (ماسنيون)^(١) ويدعى (نيكلسون) أن التصوف الإسلامى قد تكون من تأثيرات خارجية غير إسلامية وهى المسيحية والأفلاطونية الحديثة والبوذية، وأنه ليس فى القرآن أصل للتفسير الصوفى للإسلام وأن الرافد الأصيل لحب الله عند الصوفية منتزع من المسيحية^(٢) وهنا يفرق (نيكلسون) بين حركة الزهد والعبادة كحركة عامة إنسانية قديمة، وبين حركة التصوف الإسلامى كحركة إسلامية خالصة نشأت فى بيئة الإسلام الأولى، وترعرعت فى ظلاله وذلك لغرض فى نفس يعقوب، فالتصوف بمعناه العام قديم موغل فى التاريخ كقدم النزعة التى دعت إليه وهى نزعة تصفية القلب وإخلاص العبودية لله، ولكنه لما وجد تحت ظلال الإسلام، وأحيط بآداب القرآن ، دخل فى دور جديد^(٣) ورد مصطفى عبد الرزاق على جولد زيهر فى زعمه بأنه يجب عند النظر فى التصوف الإسلامى نظراً تاريخياً تقدير النصيب الهندى الذى أسهم فى تكوين هذه الطريقة

(١) التصوف عند المستشرقين العدد ٢٧ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة ص ١٤ .

(٢) ذاته ص ١٧ .

(٣) دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدى وأيضاً التصوف عند

المستشرقين للدكتور أحمد الشرباصى ص ١٩ .

الدينية المتولدة من المذهب الأفلاطوني الجديد، مما تابع فيه زميله نيكلسون أو أن نيكلسون على الأصح قد تابعه فيه (١) .

إن منابع التصوف الإسلامى هى منابع إسلامية صرفة، وفى ذلك يقول الإمام الجنيد : مذهبنا هذا - التصوف - مقيد بأصول الكتاب والسنة ويقول : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ ، ويقول : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . إنما هو ثمرة العلم والتقوى فيوفق صاحبها للخير ويلهم الرشد . فأما أن يترك العلم ويقول : إنه يعتمد على الإلهام والخواطر فليس هذا بشئ، إذ لولا العلم النقلى ما عرفنا ما يقع فى النفس . أمن الإلهام للخير، أو الوسوسة من الشيطان . واعلم أن العلم الإلهامى الملقى فى القلوب لا يكفى عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفى عن العلوم الشرعية، فإن العقلية كالأغذية، والشرعية كالأدوية ولا ينوب هذا عن هذا (٢) . وقيل "ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" (٣) ويقول الشعرانى "التصوف عبارة عن علم انقذح فى قلوب الأولياء حين استتارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقذح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها" (٤) . ونحن لسنا مع مذهب من يرجع المعانى التى تناولها الصوفيون إلى أدب أو تصوف الفرس والهند واليونان مع القرآن والسنة والذوق، ولكننا نقول : إن توافق الأفكار بين

(١) دائرة المعارف الإسلامية - مادة تصوف .

(٢) ذاته ص ٣٢٢ .

(٣) الرسالة القشيرية ط ١ ص ٩٦ .

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ١ ص ٤؛ وأيضاً الأدب الصوفى للدكتور محمود فرج

النفقة ص ٦٢ .

شاعر وشاعر وكاتب وكاتب أكثر تبادراً إلى الذهن من محاولة إثبات الأخذ، ولو صح أن صوفياً أخذ معنى حكمة قديمة وعبر عنها بأسلوبه فليس في ذلك خير لأن الثقافات تتصل في نفس الأديب والشاعر بشعور وبلا شعور، ولأن من طبيعة اختلاف العصور والثقافات أن يأخذ المتأخر من المتقدم، ونحن لا نبحث عن العوارض المشتركة بين الأدب الصوفي وغيره، وإنما نبحث عن المميزات الأصيلة له، والسمات الواضحة فيه^(١). ونحن إلى هذا الرأي أميل .

نعم إن المسيحية هي دين الزهد، ولكن الزهد هو المعنى العام للتصوف لا المعنى الخاص الذي كان عليه التصوف الإسلامي، ونجد أن المسيحية وهي تقول بطبيعة .

واحدة للمسيح عندما تلقى بالتفكير الوثني الإغريقي والروماني في جامعة الإسكندرية وغيرها تعود فتقول بالتثليث لأن عادة التفكير الوثني تأليه البشر، والقول بالوهمية بعض الناس، وكذلك نرى فكرة التثليث واضحة في مصر القديمة (إيزيس، أوزوريس، هورس) . والأفلاطونية الجديدة ليست إلا أثراً لاتصال الفكر الشرقي بالفكر الإغريقي في جامعة الإسكندرية القديمة، هذا الاتصال الذي نشر فكرة التثليث في المسيحية هو راهب مصري لم يلبس أن أصبح البابا العشرين لكنيسة الإسكندرية (٣٢٦ - ٣٧٣ م) واسمه أثناسيوس^(٢)، وكانت أوديسا مركزاً للقائلين بطبيعة واحدة للمسيح، وكان النصاري الساميون يحاربون التماثيل الوثنية، وعقدت المؤتمرات الدينية للبحث

(١) دراسات في الأدب الصوفي دكتور محمد عبد المنعم خفاجي ج ١ ص ١١٠ .

(٢) تاريخ الكنيسة المصرية - مجلة الهلال - عدد ديسمبر ١٩٢٧ .

فى طبيعة المسيح وإدخال الصور والتماثيل ولقد وقف المستشرقون من الإسلام نفسه موقفاً أعجب فذهب نيكلسون إلى أن الإسلام بجملته وتفصيله مردود فى أصوله وفروعه إلى الرهينة المسيحية .

ويذهب جولد زيهر إلى أن الآرية أعظم من السامية، وكذلك رينان الذى فصل بين العقلية الآرية والعقلية السامية، أى بين العقلية الشرقية والأوروبية، ورأى أن الغرب يبدع والشرق يحاول فهم إبداع المدركات الأوروبية . وعلى هذا النمط يفكر غوستاف لويون صاحب "حضارة العرب" الذى ابتدع للإسلام أصلاً من الأسطورية اليونانية والرهينة المسيحية . وعلى هذا المنهج يفكر كايثانى الإيطالى صاحب "حوليات الإسلام" . والأب لامنسى البلجيكي، وماسينيون الفرنسى، ونيكلسون الإنجليزي وسواهم . وتتترنم بعض الآداب المصرية القديمة بفكرة تمجيد الله والتبذل فى محبته وطاعته، وقد عمل إخناتون على نشر فكرة التوحيد، ولكنه أخفق وقضى على مذهبه بعد وفاته^(١) ولا يصح أن نسمى ذلك تصوفاً، ونذهب إلى أنه منبع من منابع التصوف الإسلامى، وكذلك لا يصح أن نربط بين التصوف وبين بعض الأفكار الفارسية، القديمة، والمذاهب الهندية القديمة فى الزهد كذلك . وإذا كان الرهبان والأخبار فى الأديرة والصوامع قد لجأوا إلى الزهد، وعاشوا به وعليه، فإن حركتهم هذه ليست لها صلة بالتصوف الإسلامى^(٢).

والسلف من الصوفية كانوا أهل علم وعمل، يقول ابن الجوزى :

(١) راجع كتاب إخناتون لعبدالممنع أبو بكر - سلسلة المكتبة الثقافية .

(٢) دراسات التصوف الإسلامى ظلله فى الأدب العربى تأليف / محمد عبدالممنع خفاجى الناشر مكتبة القاهرة ص ٦٦ .

(وقد كان أوائل الصوفية يقولون بأن التعويل على الكتاب والسنة وإنما لبس الشيطان عليهم لقلة علمهم) ^(١) . يقول أبو يزيد (لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود) ^(٢) .

وبإسناد عن أبي موسى يقول : سمعت أبا يزيد البسطامي قال : " من ترك قراءة القرآن، والتقشف، ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مبتدع " ^(٣) . وبالإسناد عن عبد الحميد الحبلى يقول : (سمعت سرياً يقول : من ادعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط) ^(٤) .

وعن الجنيد أنه قال (مذهبنا هذا مقيد بالأصول "الكتاب والسنة") وقال أيضاً "علمنا منوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به " ^(٥) . وقال أيضاً (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسّنات، لأن التصوف من صفاء المعاملة مع الله سبحانه وتعالى. وأصله التفرق عن الدنيا كما قال حارثة " عرفت نفسى فى الدنيا فأسهرت ليلى، وأظلمات نهارى " ^(٦) .

(١) تلبيس إبليس للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى البغدادى ص ١٦٨ مكتبة الإمام ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) ذاته .

(٣) ذاته .

(٤) ذاته .

(٥) ذاته .

(٦) ذاته ص ١٦٨ .

وعن أبي بكر الشفاف (من ضيغ حدود الأمر والنهي في الظاهر
حرم مشاهدة القلب في الباطن " وقال الحسين النورى لبعض أصحابه
" من رأيته يدعى مع الله عز وجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا
تقربنه، ومن رأيته يدعى حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ
ظاهر فاتهمه على دينه " .

وعن الجريري قال : (أمرنا هذا كله مجموع على فضل واحد
هو أن تلزم قلبك المراقبة ويكون العلم على ظاهرك قائماً) .

وعن أبي جعفر قال (من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب
والسنة، ولم يتهم خاطره فلا تعده في ديوان الرجال) ^(١) . ويقول ابن
الجوزي أيضاً : (وما كان المتقدمون في التصوف إلا رؤوساً في
القرآن والفقه والحديث والتفسير، ولكن هؤلاء أحبوا البطالة) ^(٢) . ولا
ننكر أنه إذا طهر القلب، انصبت عليه أنوار الهدى فينظر بنور الله، إلا
أنه ينبغي أن يكون تطهيره بمقتضى العلم لا بما ينافيه، فإن الجوع
الشديد والسهر وتضييع الزمان في التخيلات أمور ينهى الشرع عنها
فلا يستفاد من صاحب الشرع شيء ينسب إلى ما نهى عنه، كما لا
تستباح الرخص في سفر قد نهى عنه، ثم لا تنافي بين العلم والرياضة
بل العلم يعلم كيفية الرياضة، ويعين على تصحيحها، وأن الله عز وجل يلهم
الإنسان الشيء كما قال النبي ﷺ "إن في الأمم محدثين، وإن يكن في أمتي
فعمر" ^(٣) والمراد بالتحديث إلهام الخير . إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف،
العلم لم يجز له أن يعمل عليه . وأما الخضر فقد قيل إنه نبي ولا ينكر للأتبياء
الاطلاع بالوحى على العواقب، وليس الإلهام من العلم في شيء .

(١) ذاته .

(٢) ذاته ص ٣٢٣ .

(٣) ذاته ص ٣٢٢ .

الطرق الصوفية :

- القادرية : تنتسب إلى عبدالقادر الجيلاني (٤٧٠ - ٥٦١ هـ) المدفون في بغداد حيث تزوره كل عام جموع كثيرة من أتباعه للتبرك به، اطلع على كثير من علوم عصره، وقد نسب أتباعه إليه كثيراً من الكرامات، رزق بتسعة وأربعين ولداً حمل أحد عشر منهم تعاليمه ونشروها في العالم الإسلامي .

الرفاعية : تنتسب إلى أحمد الرفاعي (ت ٥٨٠ هـ) من بني رفاعة قبيلة من العرب، وجماعته يستخدمون السيوف والحرايب في إثبات الكرامات، كان زاهداً كثير الرياضة النفسية انتشرت طريقتهم في غرب آسيا .

الأحممية: وتنتسب إلى أحمد اللبدي أكبر أولياء مصر (٥٩٦-٦٣٤هـ) ولد بفاس، حج ورحل إلى العراق، واستقر في طنطا حتى وفاته، وله فيها ضريح مقصود، امتاز بالفروسية عكف على العبادة وامتنع عن الزواج، وأتباعه منتشرون في جميع أرجاء مصر ولهم فيها فروع كالبيومية والشناوية وأولاد نوح والشعبية، وشارتهم العمامة الحمراء .

الدسوقية : تنتسب إلى إبراهيم الدسوقي (٦٣٣ - ٦٧٦ هـ) وطريقته تدعو إلى الخروج عن النفس وحظوظها، رأس مآلهم المحبة لجميع الخلق والتسليم والسكوت تحت مراد الشيخ وأمره، إنها تدعو إلى العلم والعمل به مع عدم استحباب الخلوة إلا إذا كانت بأمر من الشيخ .

الأكبرية : نسبة إلى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وتقوم طريقته على الصمت والعزلة والجوع والسهر، ولها ثلاث صفات الصبر على البلاء، والشكر على الرخاء، والرضا بالقضاء .

الشيعة : نسبة إلى أبي الحسن المظفر (٥٩٢ - ٦٥٦ هـ)

ولد بقرية قرب مرسية ولاقى أبي القاسم وحج عدة مرات ثم دخل العراق وحلت أخيرا في مسواه فذهب في طريقه إلى الحج قيل عنه " إنه سهل الطريقة على الخوفا " لأن طريقته أحسن الطرق وأقربها فهي تقوم على كثرة العلم والتفكير وليس فيها كثير من المجاهدة انتشرت طريقته في مصر واليمن وبلاد العرب وأهل مدينة (معا) يدينون له بالتقدير والاعتقاد العميق في ولايته وانتشرت طريقته كذلك في مراكش وغرب الجزائر وفي شمال أفريقيا وغربها .

المكاشفة : كان الأتراك العثمانيون ينتمون إلى هذه الطريقة وهي ما تزال منتشرة في أقاليمها كما أنها أقرب إلى التصوف السني منها إلى التصوف الشيعي وقد كان لهذه الطريقة دور بارز في نشر الإسلام بين الأتراك والمغول وكان لها سلطان عظيم على الحكام العثمانيين ذقتهم .

المولوية : أنشأها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢ هـ) والمطربون بقرية، يتميزون بإخفاء الرقص والإيقاعات في حلقات الذكر وقد انتشروا في تركيا وأسيا الغربية ولم يبق لهم في الأيام الحاضرة إلا بعض الكليات في تركيا وفي حلب وفي بعض أقاليم المشرق .

القشبندية : تنسب إلى الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد الفولاني الملقب بشاه قشبندي (٦١٨ - ٧١١ هـ) وهي طريقة سهلة كالشيعية انتشرت في فارس وبلاد الهند وأسيا الغربية .

السلامية : مؤسسها أبو صالح حسون بن أحمد بن علي المعروف بالقصار (ت ٧٣١ هـ) أباح مذهبهم مخالفة للنسب بنية

جهادها ومحاربة تقصيرها، وقد ظهر الفلاح طوبى فيها حيث يظهر
الإلهية والإلهية وفعل كل أمر دون مواهب الأوامر والقوانين
الشرعية .

درجات السلوك :

هناك فرق بين الصوفي والمجاهد إلا أن لكل واحد منهم
أسلوباً ومنهجاً وهدفاً .

للمقامات : وهي المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله
فوقف حقة من الزمن مجاهداً في إيلها حتى ينتقل إلى المنزل الثاني،
ولا بد للانتقال من جهة وإلزامية .

الأحوال : إنها التسمات التي تهب على السالك فتتغنى بها نفسه
لحظت خاطفة ثم تمر تركة عطرأ تتشوق لروح العودة إلى تتسم
أريحه . قال الجود : الحال نازلة تزل بالقوب فلا تقوم .

الأحوال : مواهب، والمقامات : مكاسب، ويعبرون عن ذلك
بقولهم الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل بئذ المجهود .
ولول درجات السلوك حب الله ورسوله، ودليله الاقتداء برسول الله
ﷺ. ثم الأسوة الصفة قال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة
حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)^(١) ثم القوة
ويكون ذلك بالإفلاخ عن المحسنة، والتم على فعلها، ويلزم على أن
لا يعود إليها، وإراء ساجها إن كانت تطيق بنفسه . يقول ابن تيم

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٢١) .

الجوزية^(١) وشرائط التوبة ثلاثة : الندم، الإقلاع، الاعتذار . فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقنع، ويعزم . فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط لها . فأما الندم فإنه لا يتحقق التوبة إلا به وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب . وأما الاعتذار ففيه إشكال فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار، وترك الاعتذار اعتراف بها ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه وقد عقب عليه في شيء :

وما قابلت عتبك باعتذار ولكني أقول كما تقول

وأطرق باب عفوك بانكسار ويحكم بيننا الخلق الجميل^(٢)

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فورهم، وأزال عتبه عليه . فتمام الاعتراف . ترك الاعتذار بأن يكون في قلبه ولسانه (اللهم لا براءة لي من ذنب فاعتذر، ولا قوة لي فانتصر، ولكني مذنب مستغفر. اللهم لا عذر لي وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتي . فإن عفوت وإلا فالحق لك^(٣) الورع : وهو ان يترك السائل كل ما فيه

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٢٠٢، ٢٠٣ .

(٢) ذاته .

(٣) ذاته .

شبهة، وهو يكون فى الحديث والقلب والعمل . ويقول ابن قيم الجوزية^(١) الورع وهو توق مستعصى على حذر، وتخرج على تعظيم يعنى أن يتوقى الحرام والشبه، والتوقى والحذر متقاربان إلا أن (التوقى) فعل الجوارح، و(الحذر) فعل القلب . فقد يتوقى العبد الشئ لا على وجه الحذر والخوف ولكن لأمر أخرى من إظهار ونزاهة، وعزة وتصوف مثل توقى الذين لا يؤمنون بمعاد ولا جنة ولا نار. وقوله أو تخرج على تعظيم يعنى أن الباعث على الورع عن المحارم والشبه، إما حذر حلول الوعيد، وإما تعظيم الرب جلّ جلاله، وإجلالاً له أن يتعرض لما نهى عنه . فالورع عن المعصية إما تخوف أو تعظيم . وهو آخر مقام الزهد للامة، وأول مقام الزهد للمريد^(٢) . وللورع منزلة عظيمة إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق حيث إن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، فالورع يطهر دنس القلب كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة ولذلك تدل ثياب المرء فى المنام على قلبه وحاله . وقد جمع النبى ﷺ الورع كله فى كلمة واحدة فقال عليه السلام (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) . فهذا يعم الترك لما لا يعنى من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش والمشى، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه الكلمة كافية شافية فى الورع . يقول إبراهيم بن أدهم (الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنىك هو ترك الفضلات

(١) ذاته ج ٢ ص ٢٣ .

(٢) ذاته ص ٢٤ .

وفى الترمذى مرفوعاً إلى النبى ﷺ : (يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس)^(١) ويقول أبو سليمان الدرائى : (الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا) وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل، والورع على وجهين : ورع فى الظاهر، وورع فى الباطن . فورع الظاهر أن لا يتحرك إلا لله، وورع الباطن هو : أن لا تدخل قلبك سواه، وقال أيضاً : من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء، وقيل من دق فى الدنيا ورعه - أو - نظره - جلّ فى القيامة خطره وقال سفيان الثورى : ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك فى نفسك فاتركه، وقال الحسن : متقال ذرة من الورع خير من ألف متقال من الصوم والصلاة . وقال أبو هريرة : (جلساء الله غداً أهل الورع والزهد) وقال الصحابة رضى الله عنهم كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع فى باب من الحرام^(٢) والورع على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : تجنب القبائح لصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان .

الدرجة الثانية : (هى حفظ الحدود عندما لا بأس به، إبقاء على الصيانة والتقوى، وصعوداً عن الدناءة، وتخلصاً عن اقتحام الحدود) .
الدرجة الثالثة : التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت، والتعلق بالتفرق، وعارض يعارض حال الجميع^(٣).

(١) ذاته ص ٢٢ .

(٢) ذاته ص ٢٣ .

(٣) ذاته ص ٢٤ - ٢٨ .

ثمر : الخوف يثمر الورع، والاستعانة وقصر الأمل وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد، والمعرفة تثمر المحبة . والخوف والرجاء والقناعة تثمر الرضا، والذكر يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل، ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة، والورع يثمر الزهد، والتوبة تثمر المحبة، ودوام الذكر يثمرها، والرضا يثمر الشكر، والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات، والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه، والمعرفة تثمر الخلق، والفكر يثمر العزيمة، والمراقبة تثمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسرها : يوجب حياة القلب وعزه وصبره، ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات، ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة : تثمر اليقين، وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة (١) وملاك ذلك كله أمران :

أحدهما : أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة .

ثانيهما : ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلاتها وتدبرها، وفهم ما يراد منه وما ترك لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك . فهذه طريقة مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى ، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب ولا جوع ولا عطش ، ولا فيها آفة من آفات الطرق البتة، وعليها من الله حارس وحافظ يكفل السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم (٢) .

(١) ذاته ص ٢٩ .

(٢) ذاته ص ٢٩ .

ولا يعرف قدر هذه الطريقة إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتهما وقطاعها.

الزهد : وهو يعنى أن تكون الدنيا على ظهر يده، وقلبه معلق بما فى يد الله .التوكل : يقولون أن التوكل بداية، والتسليم واسطة، والتعويض نهاية إن كان للثقة فى الله نهاية ويقول سهل التسترى (التوكل هو الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد) .

المحبة : يقول الحسن البصرى : (فعلامه المحبة الموافقة للمحبوب والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور، والتقرب إليه بكل صلة والهرب من كل ما لا يعنيه على مذهبه) .

الرضا : يقول أحدهم (الرضا بالله الأعظم وجنة الدنيا، وهو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل، ويقول آخر الرضا آخر المقامات ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب، ومطالعة الغيوب، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال) يقول الله عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه)^(١) وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ بينا أهل الجنة فى مجلس لهم، إذ سطع لهم نور على باب الجنة، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرق عليهم فقال : يا أهل الجنة سلونى فقالوا : نسألك الرضا عنا، قال تعالى : رضى قد أحلكم دارى وأنا لكم كرامتى، هذا أوانها فاسألونى . قالوا : نسألك الزيادة قال : فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر .. أزمته زمرد أخضر، وياقوت أحمر، فجاءوا عليها، تضع حوافرها عند منتهى طرفها^(٢)، فيأمر الله

(١) سورة البينة الآية رقم (٨) .

(٢) أى بصرها .

بأشجار عليها الثمار وتجيء جوارى من الحور العين ، وهن يقطن، نحن
 الناعمات فلا نبؤس، ونحن الخالدات فلا نموت، أزواج قوم مؤمنين
 كرام، ويأمر الله سبحانه بكتبان^(١) من مسك أبيض أنفر، فتثير عليهم
 ريحاً يقال لها (المثيرة) حتى تنتهى بهم إلى جنة عدن، وهى
 (قصية)^(٢) الجنة، فتقول الملائكة : يا ربنا، قد جاء القوم، فيقول الله :
 مرحباً بالصادقين .. مرحباً بالطائعين . قال : فيكشف لهم الحجاب ...
 فينظرون إلى الله عز وجل ... فيتمتعون بنور الرحمن، حتى لا يبصر
 بعضهم بعضاً، ثم يقول : أرجعوههم إلى القصور بالتحف . قال :
 فيرجعون، وقد أبصر بعضهم بعضاً فقال رسول الله ﷺ : فذلك قوله
 تعالى (نزلأ من غفور رحيم^(٣))^(٤) وقد اختلف العراقيون
 والخراسانيون فى الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل
 خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل ومعناه
 أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه، وأما العراقيون فإنهم
 قالوا : الرضا : من جملة الأحوال، وليس ذلك كسباً للعبد بل هو نازلة
 تحل بالقلب كسائر الأحوال، ويمكن الجمع بين القولين فيقال : بداية
 الرضا مكتسبة^(٥) للعبد وهى من المقامات، ونهايته من جملة الأحوال
 وليست بمكتسبة.

(١) الكتبان جمع كتيب وهو مجتمع الرمل .

(٢) أى وسطها والمراد أحسنها .

(٣) الرسالة القشيرية للقشيري تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف ج ٢
 ص ٤٢١، ٤٢٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٢٢ .

(٥) سورة فصلت الآية ٣٢ .

والعلماء فى الرضا أقوال متباينة وإن كان مؤداها ومعناها لا يختلف كثيراً عن القصد والمراد، بل يكاد يكون المعنى متحداً وإن اختلفت الألفاظ وإليك طائفة من أقوال علماء التصوف، فيقول أبو على الدقاق (ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء . وقالوا : الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا^(١)) وقال موسى عليه السلام : الهى، دلنى على عمل إذا عملته رضيت به عنى. فقال إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى عليه السلام ساجداً له متضرعاً فأوحى الله تعالى إليه يا ابن عمران إن رضى فى رضاك بقضائى . ويقول أبو سليمان الداراني : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض . ويقول رويم : الرضا أن لو جعل الله جهنم على يمينه ما سأل أن يحولها إلى يساره^(٢). وقال أبوبكر بن طاهر الرضا إخراج الكراهية من القلب، حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور . وسئلت رابعة العدوية متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة^(٣). وسئل أبو عثمان عن قول النبى ﷺ (أسألك الرضا بعد القضاء) فقال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا والرضا بعد القضاء هو الرضا^(٤) . ويقول أبو تراب النخشبى : ليس ينال الرضا من الدنيا فى قلبه مقدار^(٥). وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ (ذاق طعم الإيمان من رضى الله ربا) وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما . أما بعد : فإن الخير كله فى الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر وقيل أن

(١) ذاته ص ٤٢٣ .

(٢) ذاته ص ٤٢٤ .

(٣) ذاته .

(٤) ص ٤٢٥ .

(٥) ذاته ص ٤٢٦ .

عتبة الغلام بات ليلة يقول إلى الصباح (إن تعذبني فأنا لك محب، وإن ترحمني فأنا لك محب) وقال أبو عثمان منذ أربعين سنة ما أقامني الله عز وجل في حال فكرهته، وما نقلني إلى غيره فسخطه (١) .

أفكار المتصوفة :

للمتصوفة أفكار ومعتقدات تخصهم، فهم يعتقدون أن الدين شريعة وحقيقة . فالشريعة هي الظاهر من الدين وأنها الباب الذي يلج منه الجميع، والحقيقة هي الباطن الذي لا يصل إليه إلا الصفوة من المتصوفة أو المسلمين أجمعين الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم مئة أهل محبته ونحن نرى أن هذا الاعتقاد صحيح ولا يتطرق إليه الريب ودليلنا على ذلك قصة الخضر مع سيدنا موسى عليه السلام فخرق موسى للسفينة . هذا الأمر في الظاهر وفي الشريعة أمر ينكره الناس والرأي العام وفي الحقيقة أمر مستحسن وكان عين الصواب وقتله للغلام في ظاهر الأمر وتعاليم الشريعة حرام حيث أنه قتل نفساً زكية بغير نفس ودون وجه حق، وفي الحقيقة كان قتل الغلام واجباً وإقامته للجدار كان كذلك . ثم نرى الخضر يفسر هذه التصرفات لموسى عليه السلام بما حكاه القرآن الكريم فقال تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من

(١) ذاته ص ٤٢٦، ٤٢٧ .

ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً^(١) وعن
أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن موسى قام خطيباً فى
بنى إسرائيل فسأل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا، فعذب الله عز وجل
عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لى عبداً بمجمع البحرين
هو أعلم منك، قال موسى يا رب فكيف لى به ؟ قال : تأخذ حوتاً
فتجعله فى مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فانطلق موسى : ومعه
فتاه (يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما
واضطرب الحوت فى المكمل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله
فى البحر سرياً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل
الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقاء يومهما
وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتتا غداً لقد لقينا من
سفرنا هذا نصباً - قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى
أمره الله به - فقال فتاه ﴿أرأيت إذ أونا إلى الصخرة فإنى نسيت
الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر
عجباً﴾^(٢) قال فكان للحوت مسرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى ﴿ذلك
ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾^(٣) قال رجعا يقصان آثارهما
حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا هو مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال
الخضر : وأنى بأرضك السلام من أنت ؟ قال : أنا موسى، قال موسى
بنى إسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿قال إنك لن
تستطيع معى صبراً﴾^(٤) . يا موسى إنى على علم من علم الله لا تعلمه

(١) سورة الكهف آية رقم ٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦٣ .

(٣) سورة الكهف الآية ٦٤ .

(٤) سورة الكهف الآية ٦٧ .

عَلَّمْنِيهِ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عِلْمَكَ لَا أَعْلَمُهُ (١) .

ويروى أن الخضر كان يجلس مع موسى عليهما السلام فجاء طائر ووقع على ورك الخضر ثم طار ونقر ماء البحر بمنقاره فقال الخضر لموسى أتعرف ما يقوله لى هذا الطائر؟ قال له موسى : لا فقال الخضر إنه يقول لى (إن الله علّم موسى علماً من علمه لم يعلمه للخضر، وعلّم الخضر علماً من علمه لم يعلمه لموسى، وعلّمنى (الطائر) علماً من علمه لم يعلمه لك ولا لموسى وما مثل علمى وعلمك وعلم موسى إلا كهذه القطرة التى علقت بمنقاره من البحر . فقال موسى ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (٢) فقال له الخضر : ﴿ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (٣) فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول - أى بدون أجر - فلما ركبا فى السفينة لم يقجا إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها لقد جنت شيئاً إمرأاً ﴾ (٤) وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً، وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى ﴿ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً

(١) الطبرى ج ١٥ ص ٢٨٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦٩ .

(٣) سورة الكهف الآية ٧٠ .

(٤) سورة الكهف الآية ٧١ .

بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً»^(١) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً قال سفيان : وهذه أشد من الأولى » قال إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذراً»^(٢) فانطلقا »حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض »^(٣) فقال الخضر بيده هكذا - أى أشار بيده - فأقامه فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا » لو شئت لاتخذت عليه أجراً»^(٤) قال الخضر : » هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً »^(٥) قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما!! أخرجه الشيخان وقال العلامة القرطبي : "كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحاسد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف، والصيفية فى الشتاء، وما ظهر على يدها حيث هزّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهى ليست بنبيه، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار"^(٦)

والتصوف من وجهة نظرهم : طريقة وحقيقة معاً كما أنه لا بد

(١) سورة الكهف الآية ٧٤ .

(٢) سورة الكهف الآية ٧٦ .

(٣) سورة الكهف الآية ٧٧ .

(٤) سورة الكهف الآية ٧٧ .

(٥) سورة الكهف الآية ٧٨ .

(٦) صفوة التفاسير تأليف محمد على الصابوني - المجلد الثانى دار القرآن الكريم بيروت

- الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م ص ٢٠٣ .

فى التصوف من التأثير الروحى وتركيز الذهن فى المأ الأعلى، وأعلى الدرجات لديهم (درجة الولى) كما يرون الالتزام بالشريعة من الأمور الضرورية يقول سهل التستري : أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ويعنى القرآن الكريم، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصى، ولزوم التسوية، وأداء الحقوق) . ويقول أبو الحسن الشاذلى : (إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف) فهذا دليل حاسم على أن التصوف مقبوس من الكتاب والسنة وليس بخارج عنهما ويقول أيضاً (إذا لم يواظب الفقير ويعنى الصوفى على حضور الصلوات الخمس فى جماعة فلا تعباً به، وقال أيضاً : من لم يؤد الصلوات الخمس فى أوقاتها فليس بصوفى ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء . وهذه دعوة من الشاذلى للمتصوفة إلى الالتزام بالكتاب والسنة والحفاظ على تأدية الصلاة فى أوقاتها . ولكن ما نراه من المتصوفة أو أدعياء التصوف فى هذا العصر الأنكد وما يسمون بالدرأيش من أن بعضهم أو جلهم يدعى افتراءً وكذباً أن الصلاة مرفوعة عنه وأنه غير مكلف بها حيث قد بلغ مرحلة من مراحل التصوف أدت به إلى الكشف والمشاهدة فذلك محض افتراء حيث إن المتصوفة العلماء دعوا إلى التمسك بالكتاب والسنة وعدم التقصير فى الصلاة حيث إنها من أركان الإسلام، بل هى الركن الثانى وقدمت على الصوم والزكاة والحج وجاء ذكرها بعد الشهادتين مباشرة لأهميتها ولأنها صلة بين العبد وربّه فكيف يدعى الكشف والمشاهدة وينكر ركناً من أركان الإسلام . إن المسلم الذى يدعى هذا الادعاء معتقداً هذا الاعتقاد فإنه ليس بصوفى بل هو كافر دعى . فإن الصلاة لم ترفع عن أحد حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويقول أبو يزيد البسطامى (لو نظرتم إلى رجل أعطى من

الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى) . أى كيف حاله وسلوكه فى اتباع الأوامر واجتناب النواهي، ويقول الإمام الغزالي : (لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان) وما نراه من سلوك (الصوفية) وال دراويش فى هذا العصر إنما هو وصمة عار فى جبين الإسلام والمسلمين حيث إن لهم من التصرفات والعادات والأعراف ما يكون سبباً فى وصف الإسلام بما هو منه براء فنحن نرى ونشاهد فى الموالد والأذكار التى يقيمونها ويحضر فيها حشد كبير وتجمعات غفيرة سلوكيات تشمأز منها النفس المسلمة حيث ترى اختلاط النساء بالرجال بحجة أنها أخته فى الطريقة وينامون سوياً على الأرصفة والطرقات على مرأى ومسمع من الناس وهذا أمر يتنافى وخلق المسلم وبخاصة إذا كان منخرطاً فى سلك المتصوفة، ومعدوداً من بين صفوفهم . كما أن حلقات الذكر التى يقيمونها هؤلاء ويتميلون فيها على نغمات الدف والمزامير والآلات الموسيقية الحديثة وتعالى الصيحات أحياناً بألفاظ مبهمّة تشبه الطقوس الغامضة التى تؤدى دون فهم لمعانيها وألفاظها لدى غير المسلمين فإن ذلك جميعه ليس من الإسلام، بل هو تشويه لصورة الإسلام ذات الروفق والبهاء . وبخاصة لدى المستشرقين الذين يكيدون للإسلام كيدا، ودأبوا على دس السم فى الدسم فيأخذون هذه الصور المشينة ويصورون الإسلام بصورة لا تليق . كما أنهم يسمون التمايل على أصوات الأناشيد ونغمات الموسيقى (بالرقص الدينى) فهم يسمونه رقصاً وبذلك يشوهون صورة الإسلام بما يرتكبه المسلمون أو المتصوفة من المسلمين من مخالفات لشرع الله فيما يقيمونه من موالد لدى أضرحة الأولياء فالتصوف إسلامى لحمة وسدى وهو مقبوس من

الكتاب والسنة فكل من يرتكب مخالفة من مثل هذه المخالفات فليس بصوفى ولو ظهرت على يديه بعض الكرامات . فإنه شيطان . كما ان الموالد التي تقام فى المناسبات ولدى أضرحة الأولياء والعارفين ترتكب فى ساحاتها المناكر والآثام، بل أصبحت مركزاً لتجمعات الشباب والشباب مما يتنافى وأخلاق ديننا الحنيف . والأفضل أن يكون احتفال الصوفية بالأولياء والعارفين بإلقاء المحاضرات عن الإسلام، والتصوف الإسلامى، والتعريف بهذا الولى وتاريخه وسلوكه ونشأته وحياته ليتخذ الناس هذا الولى قدوة حسنة فى السلوك والالتزام وطرح الترهات، وما يحدث من هؤلاء من شعبذات وخرافات تشوه صورة الإسلام والمسلمين وهما من ذلك براء .

بين الزهد والتصوف :

إن الزهد هو أول حركات التصوف فى الإسلام وقد انتشرت حركة الزهد فى عصر الرسول وبعده، وبخاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك . ويون شاسع بين الزهد والتصوف فالتصوف زهد فى الدنيا لكسب رضا الله، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة . والتصوف دخول فى جمال الملأ الأعلى وروحه ورحمته، والزهد دخول فى مجال التقوى خوفاً من عذاب الله ونقمته وجبروته، والتصوف فلسفة روحية فى الإسلام . والزهد منهج عملى من مناهج بعض المسلمين^(١)، ويقول صاحب المنازل (الزهد هو أول إسقاط الرغبة عن الشئ بالكلية) ويريد بالشئ المزهود فيه ما سوى الله . والإسقاط عنه إزالته عن القلب وإسقاط تعلق الرغبة به وقوله (بالكلية) أى بحيث لا يلتفت إليه، ولا يتشوق إليه، وهو للعمامة

(١) المدخل إلى التصوف الإسلامى للأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى ص ٢٥:٣٠ .

قربة، وللمريد ضرورة، وللخاصة خشية . يعنى أن العامة تتقرب به إلى الله (والقربة) ما يتقرب به المتقرب إلى محبوبته (١) ، وهو ضرورة للمريد كضرورته إلى الطعام والشراب (٢) ، والزهد فى لغة العرب والتى هى لغة الإسلام تعنى الانصراف عن الشىء احتقاراً له، وتصغيراً لشأنه، وذلك للاستغناء عنه بخير منه ولم يرد فى القرآن الكريم إلا فى شأن الذين شروا يوسف عليه السلام قال تعالى : ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾ (٣) والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الإنسان فى هذه الحياة بما يجعله بلاءاً وعوناً للمهتدين على الإيمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين فيكون باقياً صالحاً للأخرة، وعوناً على الكفر والفسوق والعصيان عند الغافلين الكافرين، والزهد فى ذلك إعراض عن نعم الله وتحقير لها وليس هذا من هدى رسول الله ﷺ، ولا هدى أصحابه، وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبها والفرح بفضل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به (٤) . والآيات القرآنية الواردة فى الزهد كثيرة كاثرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله سبحانه ﴿ما عندكم ينفذ وما عند الله باق﴾ (٥) وقال تعالى ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل

(١) مدارك السالكين لابن قيم الجوزية ج ٢ ص ١٥ دار الكتب العلمية بيروت - لبنان -

بدون تاريخ .

(٢) ذاته .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٠ .

(٤) ذاته ص ٩ هامش رقم ١ .

(٥) سورة النحل آية رقم (٩٦) .

غيث أعجب الكفار . نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴿١﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ ﴿٢﴾ وقوله سبحانه ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً ﴾ ﴿٣﴾ وقوله سبحانه ﴿ بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ ﴿٤﴾ وقوله عز وجل ﴿ ولولا أن يكون للناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقف من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ ﴿٥﴾ وقوله عز وجل ﴿ والآخرة عند ربك خير للمتقين ﴾ ﴿٦﴾ وقد أكثر الناس من الكلام فى (الزهد) وكل أشار إلى نوقه، ونطق عن حاله وشاهده، فإن غالب عبارات القوم عن أنواقهم وأحوالهم والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق وأقرب إلى الحجة والبرهان . يقول ابن تيمية : الزهد ترك ما لا ينفع فى الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرورة فى الآخرة، وهذه العبارة من أحسن ما قيل فى الزهد والورع أجمعها . وقال سفيان الثورى : الزهد فى الدنيا قصر الأمل . ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء . وقال الجنيد : سمعت سرياً يقول :

(١) سورة الحديد آية رقم (٢٠) .

(٢) سورة يونس آية رقم (٢٤) .

(٣) النساء آية رقم (٧٧) .

(٤) سورة الأعلى (١٧، ١٦) .

(٥) سورة الزخرف آية رقم (٣٣) .

(٦) الزخرف آية رقم (٣٥) .

(إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها لـ عن أصفياؤه وأخرجها من قلوب أهل وداده . لأنه لم يرضها لهم . وقال الزهد في قوله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾^(١) فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود^(٢)، ولقد كان رسول الله ﷺ في أسعد عيش وأرغده في حياته كلها . يملأ الله يديه بالخير فيضعه حيث أحب ربه ومات رسول الله ﷺ وعنده بما أفاء عليه من بنى النضير وخيبر وغيرهما ما كان سبباً في خصومة على والعباس رضى الله عنهما لأبى بكر وعمر . وكان ﷺ يحب الطيبات ويستمتع بها في غير سرف ولا مخيلة . وخير الهدى هدى محمد ﷺ . ويقول يحيى بن معاذ : الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح . وقال ابن الجلاء : الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينيك، فيسهل عليك الإعراض عنها . وقال ابن خفيف : الزهد وجود الراحة في الخروج من الملك، . وقال الجنيد : الزهد هو خلو القلب عما خلت منه اليد^(٣) . وقال عبدالله بن المبارك : هو الثقة بالله مع حب الفقر، وقيل الزهد في الدينار والدرهم . وقال يحيى بن معاذ : لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال : عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة، والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد هو سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة، ومتعلقة ستة أشياء لا يستحق العبد اسم (الزهد) حتى يزهد فيها وهي: المال، والصور،

(١) الحديد آية رقم (٢٣) .

(٢) مدارك السالكين لابن قيم الجوزية ج ٢ ص ١١ .

(٣) ذاته ص ١١ .

والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله^(١) . وليس معنى ذلك أن نترك الدنيا لغيرنا يكدر فيها ويجد، ويبتكر ويخترع وإنما ألزمتنا الإسلام بالعمل للدارين بحيث لا تطغى كفة على أخرى قال تعالى : ﴿ وقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) وقال ﷺ (لو قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها) وقد عمل الأنبياء عليهم السلام، قال عليه الصلاة والسلام : (ما بعث نبي إلا وهو راع للغنم) وقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما . وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق وله تسع نسوة، وكان على بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين من الزهاد مع ما كان معهم من الأموال وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن، وأغناهم . وكان عبدالله بن المبارك من الأئمة الزهاد، وكان له مال كثير وكذلك الليث بن سعد كان له مال كثير وكان يقول لولا هو لتمنل بنا هؤلاء، ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن وغيره : ليس الزهد في الدنيا بتجريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك وهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه^(٣) .

والزهد على ثلاث درجات :

(١) ذاته ص ١٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥ .

(٣) ذاته ص ١٤، ١٣ .

الدرجة الأولى : الزهد فى الشبهة بعد ترك الحرام بالحنذر من المعتبة، والأئفة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفسق .

أما الزهد فى الشبهة فهو : ترك ما يشتبهه على العبد هل هو حلال أم حرام ؟ كما فى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : (الحلال بَيْنَ والحرام بَيْنَ وبين ذلك أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات اتقى الحرام . ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله محارمه . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد . ألا وهى القلب) (١) .

فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام وقد جعل الله عز وجل بين كل متبليئين برزخاً، كما جعل الموت وما بعده برزخاً بين الدنيا والآخرة، وجعل المعاصى برزخاً بين الإيمان والكفر، وجعل الأعراف برزخاً بين الجنة والنار (٢) .

الدرجة الثانية : الزهد فى الفضول : وهو ما زاد على المسكة والبلاغ من القوت، باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت . وحسم الجأش، والتعطى بحلية الأنبياء والصدقين) (٣) .

فالفضول ما يفضل عن قدر الحاجة، والمسكة ما يمسك النفس من القوت والشراب واللباس والمسكن والزواج إذا احتاج إليه، والبلاغ وهو

(١) ذاته ص ١٦ .

(٢) ذاته ص ١٦ .

(٣) ذاته ص ١٢ .

البلغة من ذلك يتبلغ به المسافر فى منازل السفر فيزهد فيما وراء ذلك اغتناماً لتفرغه لعمارة وقته وعمارة الوقت الاشتغال فى جميع إنائه بما يقرب إلى الله أو يعين على ذلك من مأكّل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة فإنّه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات^(١). بل لا تحسب عمارة الوقت بالصلاة ونحوها فحسب. فإن عمارة الوقت بالعمل الصالح شكراً لله بالزراعة والصناعة، والعمل فى عمارة الأرض واستخراج كنوزها وإصلاحها، وتنمية الثروات وإعداد القوة والعدد لتكون الأمة قادرة على تمكين دينها، وإقامة شرائع الإسلام وقد ظل عدله ورحمته على الناس، وإخراجهم به من الظلمات إلى النور، وكذلك حسن العشرة مع الأهل والولد والجار بكل ما يجعل العشرة حسنة من مأكّل ومشرب وملبس ومباولة للزوج وغير ذلك مما يهيئ الحياة الرغيدة، والعيش السعيد للأسرة لتكون فى جو وبيئة صالحة كريمة لإنشاء جيل جديد من أبناء صالحين نافعين عاملين لقوة الأمة وعزتها. وكذلك التمهّر فى الصناعات والحرف التى تسبق بها الأمة غيرها فى مضمار العمران. كل ذلك ونحوه من شكر الله على نعمه فيما أعطى، وحسن الانتفاع به. ومن الغفلة التى جرتها الصوفية على المسلمين، فردتهم على أعقابهم فى ميدان الحياة. زعمهم أن لزوم المساجد والانتقطاع للصلاة والصيام بالتقليد الأعمى وتكرير كلمات وأوراد من القرآن الكريم أو غيره بدون فقه ولا تدبر والزعم أن ذلك هو الذى يعمر الوقت فذلك جهل بالقرآن

(١) ذاته ص ١٨.

الكريم وجهل أيضاً بسنة رسول الله ﷺ . فإن الإسلام دين مرن ويساير العصر ولقد دعا الإسلام إلى العمل وعده من أبواب الجهاد فى سبيل الله فقال تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾^(١) وقال ﷺ : (لو قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها) إلى غير ذلك من النصوص الواردة فى الكتاب والسنة مما يضيق المقام عن ذكرها واستحصائها . وحسم الجأش فهو قطع اضطراب القلب المتعلق بأسباب الدنيا رغبة ورهبة وحباً وبغضاً فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه حيث أن الزهد زهد القلب، وليس زهد الترك من اليد والتحلّى بحلية الأنبياء والصدّيقين فإنهم أهل الزهد فى الدنيا حقاً^(٢) .

الدرجة الثالثة : الزهد فى الزهد . وهو بثلاثة أشياء :

أولاً : استحقاق ما زهدت فيه .

ثانياً : استواء الحالات فيه عندك .

ثالثاً : الذهاب عن شهود الاكتساب ناظراً إلى وادى الحقائق وقد

فسر الشيخ مراده بالزهد فى الزهد بثلاثة أشياء .

أحدها : احتقاره ما زهد فيه فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرياناً . لأن الدنيا يراها لا تساوى عند الله جناح بعوضة فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له . وأما استواء الحالات فيه عنده فهو

(١) التوبة آية رقم (١٠٥) .

(٢) ذاته ص ١٩ .

أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده، إذ ليس له عنده قدر، وهذا من دقائق فقه الزهد . فيكون زاهداً في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه (١) . وأما الذهاب عن شهود الاكتساب فمعناه أن من له من استصغر الدنيا بقلبه، واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة البتة، لأنها أصغر في عينه من أن يرى أنه اكتسب بتركها الدرجات . وفيه معنى آخر وهو أن يشاهد تفرد الله عز وجل بالعطاء والمنع، فلا يرى أنه ترك شيئاً، ولا أخذ شيئاً بل الله وحده هو المعطى المانع . فما أخذه هو مجرى لعطاء الله إياه كمجرى الماء في النهر، وما تركه لله فأنه سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه فإذا نظر للأشياء بعين الجمع وسلك في وادي الحقيقة غاب عن شهود اكتسابه وهو معنى قوله (ناظرا إلى وادي الحقائق) وهذا أليق المعنيين بكلامه فهذا زهد الخاصة . قال الشاعر :

إذا زهدتني في الهوى خشية الردى جلت لي عن وجه يزهد في الزهد
اصطلاحات الصوفية :

الألف : إشارة يشار به إلى الذات الأحدية، أي الحق من حيث هو أول الأشياء في أزل الأزال .

الاتحاد : هو شهود الوجود الحق الواحد الذي الكل به موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به، معدوماً بنفسه، لا من حيث أن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال .

الأحد : هو اسم الذات باعتبار انتفاء تعدد الصفات والأسماء والنسب والتعينات عنها، والأحدية اعتبارها مع إسقاط الجمع .

(١) ذاته ص ٢٠ .

الأحوال : هي المواهب الفائضة على العبد من ربه، إما واردة عليه ميراثاً للعمل الصالح المزكى للنفس المصفى للقلب، وإما نازلة من الحق امتثاناً محضاً . وإنما سميت أحوالاً لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الخفية ودرجات القرب، وذلك هو معنى الترقى وتعتبر الأحوال فى رأى القاشانى ثمرة طبيعية للإحصاء الذى يرقى الإنسان من خلالبه حتى يصل فى النهاية إلى التحقق بالأسماء الإلهية والصفات الحسنى والترتيب الذى ذكره القاشانى هنا فى الأحوال ترتيب صاعداً يبدأ بالأدنى وينتهى بالأرقى فالأحوال إن كانت واردة على الإنسان إرثاً من صالح العمل فالعبد فى جنة الأفعال، وإن كانت مفاضة من مقام المنة والإحسان فالعبد إنما يراد له تجاوز الحدود الخلقية أى الارتباط بالخلق ورسومهم . وقطع دركات البعد والانتقطاع وتجاوزها والدخول فى صفات الحق ودرجات القرب وحدوث الترقى الحقيقى^(١) .

الإحسان : هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة ربوبيته بنور البصيرة أى رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته فهو يراه تعيناً ولا يراه حقيقة . ولهذا قال عليه السلام : " كأنك تراه " لأنه يراه من وراء حجب صفاته بتعيين صفاته . فلا يرى الحقيقة بالحقيقة لأنه تعالى هو الرائى، وصفه بوصفه وهو دون مقام المشاهدة فى مقام الروح . ويلاحظ أن الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى تفسيره للإحسان يستند إلى الحديث النبوى المشهور الذى يذكر فيه سؤال

(١) اصطلاحات الصوفية للشيخ كمال الدين عبدالرازق القاشانى تحقيق وتعليق الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ م ص ٢٦ .

جبريل للنبي صلوات الله وسلامه عليه عن الإسلام والإيمان والإحسان وقد ورد فيه أن الإحسان " هو أن تعبد الله كأنك تراه - فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وفي هذا يفرق القاشاني تفرقة دقيقة بين رؤية الله بنور البصيرة تعييناً واستحضاراً، ورؤيته حقيقية وجهاراً ويستند في هذا إلى نصوص الألفاظ الواردة في الحديث " كأنك تراه " وهي تشير بأنه لا يراه حقيقة. والضمير في قوله وراء حجب صفاته يعود على لفظ الجلالة ويكون المعنى أن العبد يرى الله جل جلاله من وراء حجب صفاته العلية فلا يراه ذاتاً على الحقيقة لأنه لا يرى الذات على الحقيقة إلا الذات على الحقيقة وهذا هو ما أشار إليه الصوفية الأول برؤية الذات في ميدان الفاعلية والتدبير وآثار الصفات وتعدد الجهات والإحاطة وبهذا أوضح القاشاني أن مثل هذه الرؤية تقل في المقام عن المشاهدة في مقام الروح حيث لا تحجب الصفات ونرى أن الحسن والإحسان إنما تحقق في هذا المقام لدوام مراعاة العبد لمقتضيات هذه الرؤية التي إن لم تكن على الحقيقة فهي في مجال الاستحضار الدائم كأنها على الحقيقة لتحقق ثمراتها (١) .

الإرادة : جمرة من نار المحبة في القلب، مقتضية لإجابة دواعي الحقيقة ويعرف ابن عربي الإرادة بأنها " هي لوعة في القلب يطلقونها ويريدون بها إرادة التمني وهي منة وإرادة الطبع ومتعلقها الحظ النفسي وإرادة الحق ومتعلقها الإخلاص " (٢) .

(١) ذاته ص ٢٧ .

(٢) كتاب اصطلاح الصوفية لابن عربي ج ١ الأولى ١٣١٧ هـ ١٩٤٨ م مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ص ٢ . وورد هذا الكتاب ضمن رسائل ابن عربي ج ١ إحياء التراث العربي بيروت - لبنان .

أركان التوحيد : هي الأسماء الذاتية لكونها مظاهر الذات، إذ هو في الحضرة الواحدية .

الاسم : باصطلاحهم ليس هو اللفظ بل " هو ذات " المسمى باعتبار صفة وجودية كالعليم والقدير، أو عدمية كالقدوس والسلام .

الأسماء الذاتية : هي التي لا يتوقف وجودها على وجود الغير وإن توقف على اعتباره وتعقله كالعليم والقدير وتسمى الأسماء الأولية، ومفاتيح الغيب، وأئمة الأسماء . ويخالف القاشاني هنا العرف اللغوي في التفرقة بين الاسم وذات المسمى إذ يرى أن الصوفية يوحّدون بين الاسم والمسمى في الذات الإلهية من حيث دلالاته على صفة وجودية أو صفة عدمية ولا يقصد بالجانب العدمي أو السلبي إلا جانب التنزيه الممثل لبعد الذات عما لا يليق وإلا فدلالة القدوس والسلام ليست عدمية بالمعنى العام أي لا أثر لها ففي التقديس والجلال الوجه الإيجابي الموحى بالصفاء والقدس والسلام والأمان ، ما إلى ذلك^(١) .

الاسم الأعظم : هو الاسم الجامع لجميع الأسماء، وقيل هو الله لأنه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات، أي المسماة بجميع الأسماء، ولهذا يطلقون الحضرة الإلهية : من حيث هي ، هي على حضرة الذات من جميع الأسماء . وعندنا هو اسم الذات الإلهية من حيث هي هي أي المطلقة الصادقة عليها : مع جمعيّتها كقوله تعالى : ﴿ والله الأسماء الحسنى ﴾^(٢) . أو مع بعضها كقوله تعالى : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾^(٣) أو لا مع واحد منها كقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾^(٤) .

(١) اصطلاحات الصوفية - للشيخ كمال الدين عبد الرازق القاشاني . ص ٢٨ .

(٢) سورة الإعراف الآية ١٨٠ .

(٣) وردت في أكثر من آية ومن هذه الآيات .. الآية ١٠٠ سورة النساء .

(٤) سورة الإخلاص الآية رقم ١ .

وتعريف القاشاني للاسم الأعظم يطابقه تعريع سهل التستري ت ٢٨٣ هـ وتعريف ابن مسرة الأندلس ت ٣١٩ هـ وقد ذهب سهل في " رسالة الحروف " إلى أن الاسم الأعظم تضمنه سورة يس وقد كشف البوني في شمس المعارف على أنه المعنى بقوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾^(١) باعتباره متضمناً للرحمة العامة، على حين أنه في نصوص أخرى لسهل يشير إلى أنه لفظ الجلالة " الله " وقد ذكر ابن مسرة ذلك بالإشارة إلى ما يسميه " الاسم المضممر " وهو " الله " بغير أداة التعريف . وقد رأى بعض العلماء أن أصل اشتقاق هذا الاسم هو من " لاه " بمعنى " احتجب " واختفى من قولهم " لاهت العروس " أي احتجبت على أن تكون أداة التعريف هنا رمزاً للخلق لأن بالخلق عرف الله جل جلاله بناء على القول المأثور الذي تحمّل عليه صفة الحديث القدسي " كنت كنزاً مخفياً " وقد يذهب بعض الصوفية إلى عكس ذلك وهو أن الخلق إنما يعرف بالله بمعنى أن الصوفى يعرف إلهه أولاً، ثم يعرف أن له خلقاً، وذلك تمييزاً له عن سنن علماء الكلام والفلاسفة على أن هناك آراء أخرى في أصل اشتقاق لفظ الجلالة " الله " . وروى المنذرى عن أبى الهيثم أنه سأل عن اشتقاق اسم الله تعالى في اللغة فقال : كان حقه " الاله " أدخلت الألف واللام تعريفاً فقيل " الإلاه " ثم حذف العرب الهمزة استئقالاتها، فلما تركوا الهمزة حولوا كسرتها^(٢) في اللام التي هي لام التعريف، وذهبت الهمزة أصلاً فقالوا " أللاه " فحركوا لام التعريف التي لا تكون إلا ساكنة ثم التقى لامين فتحركتان

(١) سورة يس الآية ٥٨ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة " له " ص ١١٤ ج ١ دار المعارف بالقاهرة .

فأدغموا الأولى فى الثانية فقالوا " الله " كما قال الله عز وجل : ﴿ لَكُنَّا
هو الله ربى ﴾ وقد قالت العرب "باسم الله" بغير مادة اللام وحذف مادة
" لاه " وقال أبو الهيثم " فالله " أصله " إلاه " قال الله عز وجل : ﴿ ما
اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذاً لذهب كل اله بما خلق ﴾ (١)
والإلاهة : الشمس الحارة . والإلاهة والألوهة والألوهية : العبادة .
والإلاهة أيضاً : الحية العظيمة . وإلاهة : اسم موضع بالجزيرة . قال
الشاعر :

كفى حزناً أن يرحل الركب غدوة وأصبح فى عليا إلاهة ثاوياً
والإلاهة : اسم (مغارة سماوة كلب) وبها دفن قاتل هذا البيت
وهو الشاعر " أفتون التغلبى " واسمه " صريم بن معشر " (٢) .

والمقصود هنا أن لفظ الألوهية يحتوى بالضرورة على خلاصة
جمل الأسماء الحسنى كلها بالنسبة لذات الله سبحانه وتعالى من غير
مراعاة لأية إضافات يقتضيها النظر إلى آثاره أو لخلقه (٣) .

الأفق الأعلى : هو نهاية مقام الروح، وهى الحضرة الواحدية
والحضرة الإلهية .

الأفق المبين : هو نهاية مقام القلب (٤) .

الأمناء : هم الملامتية . واللامتية : لفظ يستعمله القاشانى هنا

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة "آله " ص ١١٥، ١١٦ . ج ١ دار المعارف بالقاهرة .

(٣) اصطلاحات الصوفية ص ٢٩ .

(٤) ذاته ص ٣١ .

ولا يريد به تلك الفرقة المشهورة فى خراسان التى تعمدت المبالغة فى إخفاء وسائل قربها من الله أو صلاحها فى الحال وقد نقدهم بعض الناضجين من الصوفية نقداً دقيقاً حيث نبه إلى أن المبالغة فى الاحتراس من الناس تعنى أن الناس يحتلون من نفس الملامتى مكاناً هاماً فقد أدى ملاحظة ترك الناس وعدم الاهتمام بأحكامهم إلى عكس ما قصد منه حتى قيل إن إخلاص الملامتى فى هذا يحتاج إلى إخلاص، والأصوب هو الاسترسال مع الله سبحانه على ما يريد وعلى ما أتاح من ظرف وهى من أسباب فليس إخفاء الطاعة أمراً محبوباً على الدوام فقد يكون إظهارها أنفع وأتم فى بعض المواقف من أجل الاقتداء أو من أجل قبول النصيح والاكتمال والنقد . ويلاحظ أن القاشانى لقيهم بالأمناء حيث أنهم لم يفشوا أسرارهم ولم يظهروا ما فى بواطنهم من معان وحقائق . ولعل فرقة الملامتية المشهورة معتبرة فى نظر القاشانى من تلامذة هؤلاء الأمناء لا أنهم هم الأمناء أنفسهم واللامتية فرقة تنتمى إلى حمدون القصار وقد اشتق اسمها من الحال التى لازمت هؤلاء من حيث كثرة لومهم لأنفسهم، فى كل آن (١) .

وهم الذين لم يظهر لما فى بواطنهم أثر ظواهرهم، وتلامذتهم يتقلبون فى مقامات أهل الفتوى (٢) .

الإمامان : هما الشخصان اللذان أحدهما عن يمين الغوث أى القطب ونظره فى الملكوت، والآخر عن يساره ونظره فى الملك وهو أعلى من صاحبه وهو الذى يخلف القطب .

(١) ذاته ص ٣١ واللامتية وأهل الفتوى للمرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى .

(٢) اصطلاحات الصوفية ص ٣٢ .

أم الكتاب : وهو العقل الأول .

الإنانية : الحقيقة التى يضاف إليها كل شىء من العبد كقوله
نفسى وروحى وقلبى ويدى^(١) .

الإنية : تحقق الوجود العينى من حيث رتبته الذاتية .

الانزعاج : تحرك القلب إلى الله تعالى بتأثير الوعظ والسماع
فيه .

الأوتاد : هم الرجال الأربعة الذين على منازل الجهات الأربع من
العالم أى الشرق والغرب والشمال والجنوب، بهم يحفظ الله تعالى
الجهات لكونهم محل نظره تعالى^(٢) .

أئمة الأسماء : هى الأسماء السبعة الأول المسماة بالأسماء
الإلهية وهى الحى، والعالم، والمريد، والقادر، والسميع، والبصير،
والمتكلم، وهى أصول الأسماء كلها، وبعضهم أورد مكان السميع
والبصير . والجواد، والمقسط . وعندى أنهما من الأسماء التالية،
لاحتياج الجود والعدل إلى العلم والإرادة والقدرة بل إلى الجميع
لتوقفهما على رؤية استعداد المحل الذى يفيض عليه الجواد الفيض
بالقسط، وعلى سماع دعاء السائل بلسان الاستعداد، وعلى إجابة دعائه
بكلمة " كن " على الوجه الذى يقتضيه استعداد السائل من الأعيان الثابتة
فهما كالموجد والخالق والرازق التى من أسماء الربوبية وجعلوا " الحى
" إمام الأئمة لتقدمه على العالم بالذات لأن الحياة شرط فى العلم

(١) ذاته ص ٣٣ .

(٢) ذاته .

والشرط متقدم على المشروط طبعاً . وعندى أن " العالم " بذلك أولى لأن الإمامة أمر نسبى يقتضى بعد الذى قام به معلوماً . والحياة لا تقتضى غير الحى فهو عين الذات غير مقتضية للنسبة . وأما كون العلم أشرف منها فظاهر . ولهذا قالوا إن العلم هو أول ما يتعين به الذات دون الحى، لأنه فى كونه غير مقتضى للنسبة كالوجود والواجب ولا يلزم من التقدم بالطبع الإمامة ألا ترى أن المزاج المعتدل للبدن شرط الحياة ؟ ولا شك أن الحياة متقدمة عليه بالشرف^(١) .

(١) ذاته ص ٣٤ .

باب الباء

الباء : يشار به إلى أول الموجودات الممكنة وهو المرتبة الثانية من الموجودات .

البارقة : هي لائح يرد من الجنب الأقدس وينطفئ سريعاً وهي من أوائل الكشف ومبادئه .

الباطل : ما سوى الحق، وهو العدم إذ لا وجود في الحقيقة إلا للحق لقوله عليه السلام " أصدق بيت قاله العرب قول لبيد ^(١) :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

البدلاء : هم سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك فيه جسداً على صورته بحيث لا يعرف أحد أنه فقد وذلك معنى البدل لا غير، وهم على قلب إبراهيم عليه السلام ^(٢) .

البرق : أول ما يبدو للعبد من اللائح النورى فيدعوه إلى الدخول في حضرة القرب من الرب للسير في الله .

البرزخ : هو الحائل بين الشيتين، ويعبر به عن عالم المثال أعنى الحاجز بين الأجساد الكثيفة وعالم الأرواح المجردة أعنى الدنيا والآخرة، ومنه الكشف الصورى ^(٣) .

(١) اصطلاحات الصوفية ص ٣٥ .

(٢) ذاته ص ٣٦ .

(٣) ذاته ص ٣٦ .

البسط : فى مقام القلب بمثابة الرجاء فى مقام النفس . وهو وارد يقتضيه إشارة إلى قبول ولطف ورحمة وأنس . ويقابله وارد القبض كالخوف فى مقابلة الرجاء فى مقام النفس والبسط فى مقام الحق ، وهو أن يبسط الله العبد مع الخلق ظاهراً ويقبضه الله إليه باطناً رحمة للخلق ، وهو يسع الأشياء ولا يسعه شيء^(١) . ويقول ابن عربى : يسع الأشياء ولا يسعه شيء ، وقيل هو حال الرجاء وقيل هو وارد توجيه إشارة إلى قبول ورحمة وأنس^(٢) .

البصيرة : قوة للقلب منورة بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس الذى ترى به صور الأشياء وظواهرها وهى القوة التى يسميها الحكماء القوة العاقلة النظرية . أما إذا تتورت بنور القدس ، وانكشف حجابها بهداية الحق فيسميها الحكيم القوة القدسية^(٣) .

بيت الحكمة : هو القلب الغالب عليه الإخلاص .

بيت العزة : وهو القلب الواصل إلى مقام الجمع حال الفناء فى الحق .

البيت المحرم : وهو قلب الإنسان الكامل الذى حرم على غير الحق^(٤) .

(١) ذاته ص ٣٧ .

(٢) اصطلاح الصوفية لابن عربى ص ٥ .

(٣) ذاته ص ٣٨ .

(٤) ذاته .

باب الجيم

الجدبة : هى تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهيئة له كل ما يحتاج إليه فى طى المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعى منه .

الجرس : إجمال الخطاب بضرب من القهر .

الجسد : ما ظهر من الأرواح وتمثل فى جسم نارى أو نورى .

الجلاء : هو ظهور الذات المتقدمة لذاتها فى ذاتها ولاستجلاء ظهورها لذاتها فى تعيناتها ^(١) .

الجلال : هو احتجاب الحق تعالى عنا بعزته أن نعرفه بحقيقته وهويته كما يعرف هو ذاته فإن ذاته سبحانه لا يراها أحد على ما هى عليه إلا هو ^(٢) .

الجمال : هو تجليه تعالى بوجهه لذاته فلجماله المطلق جلال هو قهاريته للكل عند تجليه بوجهه، فلم يبق أحد حتى يراه وهو علو الجمال وله دنو يدنو به منا وهو : ظهوره فى الكل كما قيل :

جمالك فى كل الحقائق سافر وليس له إلا جلالك سائر

ولهذا الجمال جلال، هو احتجابه بتعينات الأكوان، فكل جمال جلال ووراء كل جلال جمال، ولما كان فى الجلال ونعوته معنى الاحتجاب والعزة، لزمه العلو والقهر من الحضرة الإلهية والخضو والهيبة منا . ولما كان فى الجمال والجلال ونعوته معنى الدنو والسفور، لزمه اللطف والرحمة والعطف من الحضرة الإلهية والأنس

(١) اصطلاحات الصوفية ص ٣٩ .

(٢) ذاته ص ٤٠ .

منا . وقد عرف محيي الدين بن عربي الجمال بأنه " نعوت الرحمة والألطف من الحضرة الإلهية " وما ذكره القاشاني أكثر استيعابا وإفادة في هذا الباب لا سيما معالجة العلاقة بين الجلال والجمال وتلازمهما مع اختلاف آثارهما ^(١) . ويقول ابن عربي هو ^(٢) : " نعوت الرحمة والألطف من الحضرة الإلهية " .

الجمع : شهود الحق بلا خلق - ويقول ابن عربي (الجمع إشارة إلى حق بلا خلق) .

جمع الجمع : شهود الخلق قائما بالحق، ويسمى الفرق بعد الجمع ويقول ابن عربي (هو الاستهلال بالكلية في الله) .

جنة الوراثة : هي جنة الأخلاق الحاصلة لحسن متابعة النبي ﷺ .

جنة الصفات : وهي الجنة المعنوية من تجليات الصفات والأسماء الإلهية، وهي جنة القلب .

جنة الذات : هي مشاهدة الجمال الأحدي ، وهي جنة الروح ^(٣) .

(١) ذاته .

(٢) اصطلاح الصوفية لمحيي الدين بن عربي ص ٦ .

(٣) ذاته ص ٤١ وأيضا اصطلاح ابن عربي ص ٦ .

جواهر العلوم والأنبياء والمعارف :

هى الحقائق التى لا تتبدل ولا تتغير باختلاف الشرائع والأمم والأزمنة ^(١) كما قال الله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ^(٢).

باب الدال

الدبور : صوله داعية هوى النفس واستيلائها ، شبهت بريح الدبور التى تأتى من جهة المغرب لإنشائها من جهة الطبيعة الجسمانية التى هى مغرب النور ويقابلها القبول وهى ريح الصبا التى تأتى من جهة المشرق : وهى صوله داعية الروح واستيلائها، ولهذا قال عليه السلام " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " .

الدرة البيضاء : هى العقل الأول لقوله عليه السلام " أول ما خلق الله درة بيضاء " وأول ما خلق الله العقل " والدرة البيضاء : يقتصر ابن عربى فى تفسير هذا المصطلح على ما ورد دون أن يشير إلى النص الأصيل الذى استند إليه فى هذا المعنى ^(٣) .

باب الهاء

الهباء : هى المادة التى فتح الله فيها صور العالم، وهو العنقاء المسماة بالهيولى ^(٤) . والهباء سماه ابن عربى السبخة (اصطلاح - ١٢) كلمة استعملت فى الأصل لتدل على التفاهة والحقارة وعدم الأهمية

(١) ذاته ص ٤٣ .

(٢) سورة الشورى آية رقم (١٣) .

(٣) ذاته ص ٤٤ . واصطلاح الصوفية لابن عربى ص ١٢ " مرجع سابق "

(٤) ذاته ص ٤٥ .

والتناهى فى الصغر وهوان الشأن كما تدل على العدم أحياناً كما جاء فى القرآن الكريم (سورة الفرقان - ٢٣) ثم استعملت لتؤدى معنى كونياً يشرح عملية الخلق من حيث تحول غير المرنى إلى المرئى بواسطة النور^(١). وانتقلت الكلمة إلى المجال الصوفى حيث اكتسبت خصائص روحية فاستعملت لتدل على الطاقة الكلية الإلهية .

ويستعمل ابن عربى هذه الكلمة فى نفس المعنى الذى استعمله فيه من قبله سهل التستري، ويذكر صراحة نسبة هذا المعنى إلى الإمام على كرم الله وجهه^(٢) .

الهوى : هو ميل النفس إلى مقتضيات الطبع، والإعراض عن الجهة العلوية بالتوجه إلى الجهة السفلية .

الهواجس : هى الخواطر النفسانية . الهواجس : يذكرها القاشانى بالجمع ويذكرها ابن عربى بالافراد ويعرفه بأنه خاطر الأول ويقول ابن عربى " هو لا يخطيء أبداً " وقد يسميه سهل التستري (متوفى سنة ٢٨٣ هـ) السبب الأول ونقر الخاطر، وإذا تحقق فى النفس سموه إرادة، وإذا تردد الثالثة سموه همأ، وفى الرابعة سموه عزمأ، وعند التوجه إلى الفعل إن كان خاطر فعل سموه قصداً، ومع الشروع فى الفعل سموه نية (اصطلاح - ٢) .

الهواجم : ما يرد على القلب بقوة الوقت، من غير تعمد من العبد - وهى البوادة المذكورة^(٣).

(١) بول كراوس - جابر بن حيان - ٢ - ١٥٤ هـ - ٦ .

(٢) القرطبى تفسير ١٣ ص ٢٢ الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٣٢٥ والتهانوى كشاف اصطلاحات ٩٢، ١٥٣٨ .

(٣) اصطلاحات الصوفية ص ٤٦ .

باب الواو

الواو : هو الوجه المطلق فى الكل .

الواحد : اسم الذات بهذا الاعتبار .

الوارد : كل ما يرد على القلب من المعانى من غير تعمد العبد - ويقول ابن عربى (هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحموده من غير تعمد ويطلق بإزاء كل ما يرد من كل اسم على القلب .

الواقعة : كل ما يرد على القلب من عالم الغيب بأى طريق كان^(١) . ويقول ابن عربى (هو ما يرد على القلب من ذلك العالم بأى طريق كان من خطاب أو مثال)^(٢) .

وجه الحق : هو ما به يكون الشىء حقاً، إذ لا حقيقة لشىء إلا به تعالى، وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾^(٣) وهو عين الحق المقيم بجميع الأشياء، فمن رأى قيومية الحق للأشياء، فهو الذى يرى وجه الحق فى كل شىء^(٤) .

وجهة جميع العابدين :

هى الحضرة الألوهية^(٥) .

الوفاء بالعهد : هو الخروج عن عهدة ما قيل عند الإقرار بالربوبية بقول بلى حيث قال الله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾^(٦) . وهو

(١) ذاته ص ٤٧ .

(٢) اصطلاح الصوفية لابن عربى ص ٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ١١٥ .

(٤) اصطلاحات الصوفية للقائى ص ٤٩ .

(٥) ذاته ص ٤٩ .

(٦) سورة الاعراف الآية ١٧٢ .

للعامة العبادة رغبة في الوعد ورهبة من الوعيد . وللخاصة العبودية على الوقوف مع الأمر (النفس الأمر) وقوفاً عند ما حدّ ووفاء بما أخذ على العبد لا رغبة ولا رهبة ولا غرضاً . ولخاصة الخاصة العبودية على التبرى من الحول والقوة . وللمحب صون قلبه عن الاتساع لغير المحبوب . ومن لوازم الوفاء بعهد العبودية أن ترى كل نقص يبدو منك راجعاً إليك . ولا ترى كملاً لغير ربك^(١) .

الوقت :

ما حضرك في الحال، فإن كان من تصريف الحق فعليك الرضا والاستسلام حتى تكون بحكم الوقت و يخطر ببالك غيره، وإن كان مما يتعلق بكسبك فالزم ما أهمك فيه لا تعلق لك بالمضى والمستقبل . فإن تدارك الماضي تضيق للوقت الحاضر، وكذلك الفكر فيما يستقبل فإنه عسى أن لا تبلغه وقد فاتك الوقت . ولهذا قال المحقق : الصوفي ابن الوقت . ويعرفه محيي الدين بن عربي بأنه (عبارة عن حالك في زمن الحال، لا تعلق له بالماضي والمستقبل) (اصطلاح ٣) .

الولى : من تولى الله أمره وحفظه من العصيان، ولم يخله ونفسه بالخذلان حتى يبلغه في الكمال، مبلغ الرجال قال الله تعالى : ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾^(٢) .

الزاجر : واعظ الله في قلب المؤمن وهو لأزور المقنوف فيه الداعي له إلى الحق^(٤) .

(١) ذاته ص ٥٢، ٥٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٦ .

(٣) ذاته ص ٥٤ .

(٤) ذاته ص ٥٥ .

الزيتونة : هى النفس المستعدة للاشتعال بنور القدس بقوة الفكر .

الزيت : نور استعدادها الأصلي^(١) .

الحال : ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل (واجتلاب) كحزن أو خوف، أو بسط، أو قبض، أو شوق، أو ذوق يزول بظهور صفات النفس سواء أعقبه المثل أو لا . فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً^(٢) .

حفظ العهد : هو الوقوف عند ما حذّه الله تعالى لعباده، فلا يفقد حيث ما أمر، ولا يوجد حيث ما نهى .

حقيقة الحقائق : هى الذات الأحدية الجامعة لجميع الحقائق وتسمى حضرة الجمع، وحضرة الوجود^(٣) .

الحقيقة المحمدية : هى الذات مع التعيين الأول فله الاسم الحسنى كلها وهو الاسم الأعظم . والحقيقة المحمدية : ينظر إلى هذا المصطلح من زاويتين : الجانب الإبداعى بمعنى أن تكون هذه الحقيقة وسيلة الإبداع لما سواها، والجانب التقريرى الخاص بأبعادها النورانية وأسبقيتها وفضلها من حيث كونها مصدراً لكل هداية ومجمعاً لكل مكرمة وكونها البدء والختام . أما بالنسبة للجانب الأول فيلاحظ مثلاً أن سهلاً التسترى - ٢٨٣ هـ لم يذكر صراحة أن النبى محمد فى (حقيقته) هو وسيلة الإبداع والخلق ولكن حديثه عن خلق آدم قد يفهم

(١) ذاته ص ٥٦ .

(٢) ذاته ص ٥٧ .

(٣) ذاته ص ٥٩ .

منه ما يدنو من هذه الفكرة إلا أنه يعنى التنبيه على أولوية النبى فى الشرف والأبوة الروحية^(١) - ويلاحظ أن ابن عربى يذكر صراحة كون الحقيقة المحمدية آلة الخلق، وهو يتبع خط ابن برجان فى تسمية الحقيقة المحمدية (بالحق المخلوق به) على حين يستعمل التسترى لفظ العدل بمعنى الحق وهو يسميه السبب الأول، لكنه يرتبط فى نظر التسترى بمجال يختلف عن المجال الذى يرتبط به لدى ابن عربى .. فلفظ العدل يستعمل عند ابن عربى مأخوذاً من قولهم (عدل عن الطريق) أى انصرف عنه ومال ويريد بذلك ميل الذات من التفرد والذاتية المنزهة التى لا تدرك إلى الربوبية بما تستتبع من وجود الكائنات التى هى مربوبة لله^(٢) . أما التسترى فيربطه بالمجال الإنسانى أكثر من ربطه بالمجال الإلهى ليشير بذلك إلى كيفية صدور الأفعال ووقوع الأعمال من المخلوقين أما الجانب الثانى فيمكن استيعابه من تأمل العلاقة التى رسمها الصوفية وبعض المفكرين بين (الشمس) وبين (يس) من حيث أن كلا منهما يرسل أشعته ويفيض نوره على ما ومن حوله والمقارنة هنا بين الشمس وبين النبى فالشمس بالنسبة للكائنات الظاهرة مصدر الحياة والحيوية والقوة والحركة لكل من الإنسان والحيوان والنبات، ويس مصدر الحياة الروحية والحيوية بالنسبة لقلوب المؤمنين، كما اعتبرت النفوس بمنزلة القمر الذى يتلقى الضوء من غيره - وهناك أسس قرآنية لخلق صفات النورانية والإشراق والإضاءة على الرسول وقد استند إليها هؤلاء الصوفية^(٣) من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا

(١) رسالة الحروف للتسترى .

(٢) الفتوحات - ٢ - ٧٩ قارن رسائل ابن عربى ٢ (مصطلحات)

(٣) اصطلاحات الصوفية ص ٦٠

النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً^(١).

حق اليقين : وشهود الحق حقيقته في مقام عين الجمع الأحدية.
ويقول ابن عربي (هو ما حصل من العلم بما أريد له من ذلك المشهود) .

الحكمة : هي العلم بحقائق الأشياء، وأوصافها، وخواصها وأحكامها، على ما هي عليه وارتباط الأسباب بالمسببات وسر انضباط نظام الموجودات والعمل بمقتضاه^(٢) (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)^(٣). الحكمة مفهوم هذه الكلمة في الاستعمال العربي يدل على تنوع لا نظير له . ومن الصحيح أن استعمال الكلمة كان يقصد به في كثير من الأحيان وبخاصة في المراحل المبكرة للإسلام : الاتجاه إلى الجانب السلوكي الذي يتسم بالسداد والتوفيق والإصابة بأيسر الطرق لكنه المصطلح بعد ذلك ربط بالشرائع كما هو عند التفتازاني وقد ذكر التهانوي أن هذا لا يناقئ ما ذكر من أن السالكين بطريق أهل النظر والاستدلال وطريق أهل الرياضة والمجاهدة إن اتبعوا ملة فهم المتكلمون والصوفية وإلا فهم الحكماء المشائون والإشراقيون إذ لا يلزم منه ألا يكون المتكلم والصوفي حكيماً، بل غاية ما يلزم منه ألا يكون حكيماً مشائياً أو إشراقياً . ومن المعاني التي فسرت بها كلمة حكمة على الترتيب : القرآن وذلك استناداً إلى حديث نبوي، النبوة وبه

(١) سورة الأحزاب آية ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) ذاته ص ٦١ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

فسرت الآية القرآنية ﴿.... وآتيناها الحكمة﴾^(١) أى النبوة الفقه والفهم عن الله وقد ترتبط الكلمة بالمجال الفكرى العام دون التقيد ضرورة بجانب دينى، وقد تربط بالمجال النفسى والموقف السلوكى كقولهم الحكمة (خشية الله) ويلاحظ بعضهم أن العرب تقول (حكمة الرجل) إذا منعته من الضرر والخروج عن الحق . ومن هنا استتبط أن الحكمة جماع العلوم كلها وقد ورد فى القرآن عن الحكمة أنها الخير الكثير وفسرت فى الآية الكريمة (واذكروا ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة)^(٢) بالسنة وقد فسرت فى غير ذلك بالكمال الحاصل للنفس الخارجة من القوة إلى الفعل، وقد تتطابق مع الفلسفة كما هو الحال عند ابن سينا، ويرى الغزالي أن أطراف الحكمة فى جوانب ثلاثة جانب الاعتقادات، جانب الأقوال، ثم جانب الأفعال فيقول حقيقة الحكمة معرفة الحق من الباطل فى الاعتقادات، والصدق والكذب فى الأقوال والحسن والقبیح فى الأفعال^(٣). ويرد العاملى تعريف يصور نظرية المتأخرين من الصوفية إذ يقول (إنها العلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه، وارتباط الأسباب بالمسببات وأسرار انضباط نظام الموجودات والعمل بمقتضاه)^(٤). ومن استقراء أقوال الصوفية يفهم أن الحكمة نوعان : منطوق بها وهى العلوم الشرعية والنظرية ومسكوت عنها وهى أسرار الحقيقة ولعل القاشانى يؤيد هذا الرأى وقد أورد صاحب البحر المحيط تسعة وعشرين رأياً فى تحديد مفهوم الحكمة^(٥).

(١) سورة ص الآية ٢٠ .

(٢) الأحزاب آية رقم ٣٣ .

(٣) روضة الطالبين ص ٣٢٥ .

(٤) الكشكول للعالمى ج ٢ ص ٤١٣ .

(٥) ذاته ص ٦١ .

الحكمة المنطوق بها :

هى : علوم الشريعة والطريقة .

الحكمة المسكوت عنها :

هى أسرار الحقيقة التى لا يفهمها علماء الرسوم والعوام على ما ينبغي فيضرهم أو يهلكهم، كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجتاز فى بعض سكك المدينة ومعه أصحابه فأقسمت عليهم امرأة أن يدخلوا منزلها فدخلوا، فرأوا ناراً مضرمة وأولاد المرأة يلعبون حولها فقالت : يا نبي الله آله أرحم بعباده أم أنا بأولادى؟ فقال : (بل الله أرحم الراحمين) فقالت : (أترانى يا رسول الله أحب أن ألقى ولدى فى النار ؟) قال : لا، قالت : (فكيف يلقي الله عبده فيها وهو أرحم الراحمين ؟) قال الراوى : فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (هكذا أوحى إلى)^(١) .

الحكمة المجهولة :

عندنا هى ما خفى علينا وجه الحكمة فى إيجاده كإيلاام بعض العباد، وموت الأطفال، والخلود فى النار فيجب الإيمان به، والرضا بوقوعه، واعتقاد كونه عدلاً وحقاً^(٢) .

الحكمة الجامعة :

معرفة الحق، والعمل به، ومعرفة الباطل والاجتناب عنه كما قال صلى الله عليه وسلم : (اللهم

(١) ذاته ص ٦٢ .

(٢) ذاته ص ٦٢ .

أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه (اللهم أرنا الأشياء كما هي)^(١) .

الكتاب المبين :

وهو اللوح المحفوظ المراد بقوله تعالى : ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾^(٢) .

كلمة الحضرة :

إشارة إلى قوله (كن) كقوله : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾^(٣) فهي صورة الإرادة الكلية .

كلمة الحضرة الإلهية كن : يلاحظ اتباع ابن مسرة لسهل التستري في رأيه في الكلمة الإلهية (كن) من حيث كونه تحقيقاً لصورة ذاتية الشيء المكون (بصيغة اسم المفعول) وإخراجه إلى الفعل ويؤيد ذلك ابن عربي مع إضافة إيجابية الشيء المكون معتمداً على أن الآية القرآنية (يس - ٨١) تذكر أن الشيء يكون (مبنى للمعلوم) لا يكون (مبنى للمجهول) وفيه إشارة إلى حتمية الوقوع وطبيعته، كما يفترض ابن عربي سبق وجود العين أو الذات التي توجه إليها هذه الكلمة التي هي في الواقع فعل وليست قولاً ويسجل ابن عربي ذلك في أبياته المشهورة حيث يقول :

فاعلم بأن الذي سمعت من قول (كن) منه قد خلقت

(١) ذاته ص ٦٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٣) سورة النمل الآية ٤٠ .

فظاهر الأمر كان قولاً وباطن الأمر أنت كنت

لو لم تكن ثم يا حبيبي إذ قال (كن) لم تكن سمعت

ومن قبل ذهب الكرامية إلى هذا الرأي الذي نقده البغدادي ولا ينبغي أن يفهم من رأى التستري أو ابن مسرة أو ابن عربي تشخص الكلمة وصيرورتها شيئاً مستقلاً يقف واسطة بين الله والخلق كما زعم ذلك بعض المستشرقين ومن شايعهم من الدارسين العرب - لأن هذا الرأي وقف على الباطنية والإسماعيلية بصفة خاصة الذين يرون تمثيل الكلمة إما لبعض الأفلاك أو لبعض أشخاص الأئمة ويرون أن (كن) مكونة من حرفين : الكاف وهي تشير إلى (السابق) والنون : وهي تشير إلى (التالي) ويذهب بعض الباحثين إلى أن المسلمين استقوا أفكارهم حول الكلمة (كن) من أبيانوس الحكيم ذلك الفيلسوف الفيثاغوري الذي ذاع صيته في القرن الأول الهجري، ويستند إلى وجود مخطوطة له كتبت في جمادى الآخرة ٩٨٥ هـ لكنها مأخوذة من مخطوطة أسبق ٣٤٣ هـ كما يرى مقابلة هذا الاستعمال لاستعمال مصطلح (اللوجوس) الذي كان يعنى فلسفياً في الأصل (القانون العام) ثم تطور استعماله على يد فيلون السكندري في القرن الأول الميلادي . ونرى أن الاستعمال الأساسي يجد أصلاً واضحاً في القرآن الكريم حيث يتصل ذلك بلفظ الكلمة ذاته فقد فسرت (كلمات الله) بخلق الله ومخلوقاته ومن الطريف أن نعلم أن الممثلين للفلسفة الدينية المثالية في روسيا حاولوا إحياء فكرة اللوجس الإلهي أما في الفلسفة الشرقية فيمكن أن يوجد ما يناظر فكرة اللوجس مثل (التاو) وإلى حد ما (ذارما) ولكن الملاحظ أن هذا المصطلح لا يستعمل في الأدب الماركسي (١) .

(١) ذاته ص ٦٩ والأدب الماركسي للدكتور جعفر - ومذاهب المسلمين في الكلمة - مجلة كلية الآداب ١٩٣٥ وتعليقاته على نصوص الحكم لابن عربي .

اللطيفة : كل إشارة دقيقة المعنى، يلوح منها فى الفهم معنى لا تسعه العبارة^(١) - ويقول ابن عربى (هى كل إشارة رقيقة المعنى تلوح فى الفهم لا تسعها العبارة وقد تطلق بإزاء النفس الناطقة) .

المجذوب : من اصطنعه الحق لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسه، وطهره بماء قدسه فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب^(٢) .

المحق : فناء وجود العبد فى ذات الحق . كما أن المحو فناء أفعاله فى فعل الحق . والطمس فناء الصفات فى صفات الحق . فالأول لا يرى فى الوجود فعلاً لشيء إلا للحق، والثانى لا يرى لشيء صفة إلا للحق^(٣) .

المحاضرة : حضور القلب مع الحق فى الاستفاضة من أسمائه تعالى^(٤) . وهى عند ابن عربى (حضور القلب بتواتر البرهان وعندنا مجازاة الأسماء بينها بما هى عليها من الحقائق) .

سجود القلب : هو فناؤه فى الحق عند شهوده إياه بحيث لا يشغله ولا يصرفه عند استعمال الجوارح^(٥) .

سدرة المنتهى : هى البرزخية الكبرى التى ينتهى إليها سير الكل وأعمالهم وعلومهم . وهى نهاية المراتب الأسمائية التى لا تعلوها رتبة.

(١) اصطلاحات الصوفية ص ٧٣ .

(٢) ذاته ص ٧٧ .

(٣) ذاته ص ٨١ .

(٤) ذاته ص ٨١ وابن عربى ص ٩ .

(٥) ذاته ص ١٠٠ .

وسجود القلب : مسألة سجود القلب كانت من المشكلات التى عرضت للسهل التسترى فى صباه ومن أجل العثور على جواب شافى بشأنها طاف فى البلاد حتى أراحه حمزة العبادانى فى عبادان فلزمه ولم ينصرف حتى أذن له، وقد وصف ابن عربى التسترى بساجد القلب ويسجل ابن عربى مناقشة دارت بينه وبين سهل فى بعض آراؤه حول فكرة التوحيد ونور المعرفة حيث قال ابن عربى ناقداً سهلاً فى تصوره تعدد نور المعرفة بتعدد مصدريها العقل والإيمان (لقد قيدته من حيث لا تشعر ولهذا سجد قلبك من أول الطريق فوق الخطأ)^(١) .

سر التجليات : هو شهود كل شىء، وذلك بانكشاف التجلى الأول للقلب، فيشهد الأحدية الجمعية بين الأسماء كلها، لاتصاف كل اسم بجميع الأسماء لاتحادها بالذات الأحدية وامتيازها بالتعينات التى تظهر فى الأكوان التى هى صورها، فيشهد كل شىء فى كل شىء .

سر القدر : ما علمه الله تعالى من كل عين فى الأزل مما انطبع فيها من الأحوال التى يظهر عليها عند وجودها . فلا يحكم على شىء إلا بما علمه الله من عينه فى حال ثبوتها^(٢) .

سر الربوبية : هو توقفها على المربوب، لكونها نسبة لا يد لها من المنتسبين وإحدى المنتسبين هو المربوب وليس إلا الأعيان الثابتة فى العدم والموقوف على المعدوم معدوم، ولهذا قال سهل إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت الربوبية . وذلك البطلان ما يتوقف عليه^(٣) .

(١) ذاته ص ١٠٠ .

(٢) ذاته ص ١٠١ .

(٣) ذاته ص ١٠٢ .

العارف : من أشهده الله ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله فالمعرفة حال تحدث عن شهود .

العالم : من أطلعه الله على ذلك لا عن شهود بل عن يقين^(١) .

العامّة : هم الذين اقتصر علمهم على الشريعة . ويسمى علمائهم علماء الرسوم^(٢) .

القطب : هو الواحد الذي هو موضع (نظر الله تعالى من العالم في كل زمان وهو على قلب إسرائيل عليه السلام) .

القطبية الكبرى : هي مرتبة قطب الأقطاب وهو باطن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يكون إلا لورثته، لاختصاصه عليه السلام بالأكمالية، فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة^(٣) .

الراعي : هو المتحقق بمعرفة العلوم السياسية المتمكن من تدبير النظام الموجب إصلاح نظام العام .

الزّان : هو الحجاب الحائل بين القلب وبين عالم القدس باستيلاء الهيئات النفسانية عليه، ورسوخ الظلمانية الجسمانية فيه، حيث ينحجب عن أنوار الربوبية بالكلية^(٤) .

(١) اصطلاحات الصوفية ص ١٠٦ .

(٢) ذاته ص ١٠٧ .

(٣) ذاته ص ١٤٥ .

(٤) ذاته ص ١٤٧ .

شواهد التوحيد :

تعينات الأشياء فكل شيء له أحدية خاص يمتاز بها عن كل ما عداه كما قيل ففي كل شيء له آية : تدل على أنه واحد^(١) .

الخاطر : ما يرد على القلب من الخطاب أو الوارد الذي لا تعمل للعبد فيه^(٢) ويقول ابن عربي (هو ما يرد على القلب والضمير من الخطاب ربانياً كان أو ملكياً أو نفسياً أو شيطانياً من غير إقامة وقد يكون لكل وارد لا تعمل لك فيه)^(٣) .

السُكر : (غيبية بوارد قوى) .

الذوق : (أول مبادئ التجليات الإلهية) .

الشرب : (هو أوسط التجليات) .

الرئ : (غاياتها في كل مقام)^(٤) .

القرب : (القيام بالطاعة، وقد يطلق القرب على حقيقة قاب قوسين) .

البعد : (الإقامة على المخالفات، وقد يكون البعد منك ويختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يراد به قرائن الأحوال وكذلك القرب) .

الحقيقة : ﴿ سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك . منك لا أنت "ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها" ﴾^(٥) .

(١) ذاته ص ١٥٤ .

(٢) ذاته ص ١٥٨ .

(٣) اصطلاح الصوفية لمحيي الدين بن عربي ص ٧ .

(٤) اصطلاح الصوفية لابن عربي، ص ٦ .

(٥) سورة هود الآية ٥٦ .

شطحات الصوفية

مدخل :

" شطح " بالكسر وتشديد الطاء " شطّح " زجر للعريض من أولاد المعز ، لم يتعرض لها ولما قبلها أكثر أئمة اللغة وإنما ذكر بعض أهل الصرف هذا اللفظ الذى ذكره المصنف فى " أسرار الأصوات " . قال شيخنا واشتهر بين المتصوفة " الشطحات " وهى فى اصطلاحهم عبارة عن كلمات تصدر منهم فى حالة الغيبوبة ، وغلبة شهود الحق تعالى عليهم ، بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق كقول بعضهم " أنا الحق " ، " ليس فى الجبة إلا الله " ونحو ذلك . وذكر الإمام " أبو الحسن اليوس " شيخ شيوخنا فى حاشيته الكبرى ، وقد ذكر الشيخ " السنوس " فى إسناده " الشطحات " " لم أقف على لفظ الشطحات فيما رأيت من كتب اللغة كأنها عامية وتستعمل فى اصطلاح " التصوف ^(١) " ويقول صاحب اللسان : " مادة " شطح " يقول : وزاد أيضاً " شطح " بكسر أوله وثانيه المشدد . زجر للعريض من أولاد المعز ^(٢) . ويقول صاحب المعجم الوسيط " شطح " فى السير أو فى القول يعنى تباعد واسترسل . الشطحة فيقال لفلان الصوفى له أحوال وشطحات ^(٣) ونحن نرى صدق ما ذهب إليه الشيخ " السنوس " حيث إننا راجعنا جلّ المعاجم اللغوية فلم نرى معنى لهذه الكلمة يشفى الغلة ويبل الأوام ويبدو أنها عامية

(١) تاج العروس من جواهر القاموس - محمد مرتضى الزبيدي - منشورات دار مكتبة

الحياة - بيروت - لبنان مادة (شطح) ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) لسان العرب لابن منظور . ج ٢ ص ٤٩٨ دار صادر بيروت لبنان .

(٣) المعجم الوسيط ج ١ ص ٥٠١ مادة (شطح) - مجمع اللغة العربية الطبعة الثالثة

ربيع الأول سنة ١٣٩٢ هـ مايو سنة ١٩٧٠ م .

أشتهرت بين أهل التصوف، واستحدثت كمصطلح لهم وهو الانتقال من حال إلى حال، مما يؤدي بالمتصوف إلى الشطح وهو البعد عن الحقائق والألفاظ المعروفة إلى كلمات غريبة مبهمة لدى السامعين لا يفطن معناها إلا من كان من جملتهم .

والشطح في لغة العرب : هو (الحركة) يقال شطح يشطح إذا تحرك، ويقال للبيت الذي يحوزون فيه الدقيق (المشطاح) قال الشاعر:

قف بشط الفرات مشرعة الخيل قبيل الطريق بالمشطاح
بالطواحين من حجارة بطريق بدير الغزلان دبر الملاح

وإذا لاح بالمسناة ظبى قد كساه الإشراق ضوء الصباح
فاقر ذاك الغزال منى سلاماً كلما صاح صائح بفلاح^(٤)

وإنما سمي ذلك البيت (المشطاح) من كثرة ما يحركون فيه الدقيق فوق ذلك الموضع الذي يتحلون به، وربما يفيض من جانبه من كثرة ما يحركونه، فالشطح : لفظة مأخوذة من الحركة، لأنها حركة أسرار الواصلين إذا قوى وجدهم فعبروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها، فمفتون هالك بالإتكار والطعن عليها إذا سمعها، وسالم ناج برفع الإتكار عنها والبحث عما يشكل عليه منها بالسؤال عما يعلم علمها، ويكون ذلك من شأنها . ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق فيفيض من حافته ؟ - يقال شطح الماء في النهر فكذاك المرید الواجد : إذا قوى وجدّه، ولم يطق حمل ما يرد على قلبه

(٤) اللع للطوس ص ٤٥٣ تحقيق الإمام د/ عبدالحليم محمود وطه سرور . سنة ١٣٨٠
هـ سنة ١٩٦٠ م .

من سطوة أنوار حقائقه، سطع ذلك على لسانه، فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشككة على فهم سامعيها، إلا من كان أهلاً، ويكون متبحراً في علمها فسُمي ذلك على لسان أهل الاصطلاح : شطحاً^(٥) . ومعناه : " عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه وغلبته "^(٦) . وبعد فإن الله تعالى فتح قلوب أوليائه وأذن لهم بالإشراف على درجات متعالية، وقد جاء الحق تعالى على أهل صفوته والمتحققين بالتوجه والاتقطاع إليه بكشف ما كان مستتراً عنهم قبل ذلك من مراتب صفوته ودرجات أهل الخصوص من عبادته . فكل واحد منهم ينطق بحقيقة ما وجد ويصدق عن حاله ويصف ما ورد عن سره بنطقه ومقاله، لأنهم لا يرون حالاً أعلى من حالهم حتى يحكموها، فإذا أحكموها فعند ذلك يسمون بهمهم إلى حالة أعلى من ذلك حتى تنتهي الطرق والأحوال والأماكن إلى غاية ونهاية، هي أعلى النهايات وغاية الغايات . قال الله تعالى : (وفوق كل ذي علم عليم)^(٧) وقال : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات)^(٨) وقال : (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)^(٩) وليس لأحد أن يبسط لسانه بالواقعية في أوليائه ويقيس بفهمه ورأيه ما يسمع من ألفاظهم وما يشكل على فهمه من كلامهم، لأنهم في أوقاتهم متفاوتون، وفي أحوالهم متفاضلون ومتشاكلون ومتجانسون بعضهم لبعض، ولهم أشكال ونظراء معروفون، فمن بان شرفه وفضله على أشكاله، بفضل علمه وسعة معرفته، فله أن

(٥) ذاته ص ٤٥٤ .

(٦) ذاته ص ٤٥٣ .

(٧) سورة يوسف : ٧٦ .

(٨) الزخرف : ٣٢ .

(٩) الإسراء : ٢١ .

يتكلم فى عليهم وإصابتهم، ونقصانهم وزيادتهم، ومن لم يسلك سبلهم، ولم ينح نحوهم ولا يقصد مقاصدهم، فالسلامة له فى رفع الإتكاف عنهم، وأن يكمل أمورهم إلى الله تعالى (ويتهم نفسه بالغلط فيما ينسبهم إليه من الخطأ) (١٠) .

شطحات الصوفية :

سلك بعضهم طريق تحضير الأرواح معتقدا بأن ذلك من التصوف، كما سلك آخرون طريق الشعوذة والدجل . وقد اهتموا ببناء الأضرحة وقبور الأولياء وإنارتها وزيارتها والتمسح بها وكل ذلك من البدع التى ما أنزل الله بها من سلطان - يقول بعضهم بارتفاع التكاليف عن الولي أى أن العبادة تصير لا لزوم لها بالنسبة إليه لأنه وصل إلى مقام لا يحتاج معه إلى القيام بذلك، ولأنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره انقطع عن حفظ الباطن وتشوش عليه الالتفات عن أنواع الواردات الباطنية إلى مراعاة الظاهر - وينقل عن الغزالي انتقاده لمن غلبهم الغرور ويعدد فرقهم :

- فرقة اغتروا بالزى والهيئة والمنطق .
- وفرقة ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال .
- وفرقة وقعت فى الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحوال وسووا بين الحلال والحرام . وبعضهم يقول :

الأعمال بالجوارح لا وزن لها وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله وواصله إلى معرفة الله، وإنما نخوض فى الدنيا بأيدينا

وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب .

- هنالك أقوال تنسب لأبى يزيد البسطامي، ولكن كلاً من عبدالله الهروي (ت ٤٨١ هـ) والمستشرق نيكلسون يشككان في صحة نسبة هذه الأقوال وهي : - قوله (سبحاني ما أعظم شأنى) . وقوله " إني لا إله إلا أنا فاعبدون " . وقوله : " جرت بحراً وقف الأنبياء عند سواحه " وقوله : " صعدت إلى السماء وضربت قبتي بإزاء العرش " .

- للحلاج الذى يعتبر صاحب مدرسة الاتحاد والحلول أقوال منها:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدننا
فإذا أبصرتنى أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا
فرجت روحك فى روحى كما	تمزج الخمرة فى الماء الزلال
فإذا مسك شئ مسنى	فإذا أنت فى كل حال

يستخدم الصوفيون لفظ (الغوث والغياث)، لكن ابن تيمية يقول في ص ٤٣٧ من كتاب التصوف (مجموع الفتاوى) : فأما لفظ (الغوث والغياث) فلا يستحقه إلا الله، فهو غوث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرب ولا نبي مرسل . لقد أجمعت كل الطرق على ضرورة الذكر، وهو عند النقشبندية لفظ (الله) مع ملاحظة المعنى، وعند الشاذلية (لا إله إلا الله)، وعند غيرهم مثل ذلك مع الاستغفار والصلاة على النبي، وبعضهم يقول عند اشتداد الذكر : هو هو، بلفظ الضمير . لكن ابن تيمية يقول في كتاب السلوك من مجموع

الفتاوى ص ٢٢٩ : (وأما الاختصار على الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة إلى أنواع من البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد) .

- ويقول ص ٢٢٧ أيضاً (من قال : يا هو يا هو، أو هو هو، ونحو ذلك لم يكن الضمير عائداً إلا إلى ما يصوره القلب، والقلب قد يهتدى وقد يضل) . يأتي بعض المنتسبين إلى التصوف بأعمال عجبية وخوارق، وابن تيمية ص ٤٩٤ من كتاب التصوف يقول : " وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات فليس هذا من شعار أحدهم من الصالحين ولا من الصحابة ولا من التابعين ولا شيوخ المسلمين ولا من المتقدمين ولا من المتأخرين ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ بمدة طويلة " . يقول ابن تيمية ص ٥٠٤ من كتاب التصوف : " وأما التدللموتى من الأنبياء والمساكين وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى " . ويقول ص ٥٠٦ من كتاب التصوف : " وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء، والمشائخ والملوك وغيرهم فإنه منهي عنه " . ويقول ص ٥٠٥ من كتاب التصوف : (وأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب وخلوتهم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة فهذا حرام باتفاق المسلمين ومن جعل ذلك من الدين فهو من إخوان الشياطين) . فى مقام الفناء عند شهود ما سوى الرب وهو الفناء عن الإرادة يقول ابن تيمية ص ٣٣٧ من كتاب السلوك : " وفى هذا الفناء قد يقول : أنا الحق أو سبحانه أو ما فى الجبة إلا الله، إذا فنى بمشهوده عن شهوده وبموجوده عن وجوده وفى مثل هذا المقام يقع السكر الذى يسقط التمييز مع وجود

حلاوة الإيمان كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور .. ويحكم على هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرمة بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمراً محرماً .. وكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وأفعالهم على الصحة، بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكليف الظاهرة " . أما في مقام الفناء عن وجود السوى فيقول ص ٣٣٧ من كتاب السلوك أيضاً : " الثالث : فناء عن وجود السوى بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبلياني والتلمساني والقونوي ونحوهم، الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات وأنه لا وجود لغيره، لا بمعنى أنه قيام الأشياء به ووجودها به لكنهم يريدون أنه عين الموجودات فهذا كفر وضلال .

الجزور الفكرية والعقائدية :

-إن المجاهدات الصوفية إنما ترجع إلى زمن سحيق في القدم من وقت أن شعر الإنسان بحاجة إلى رياضة نفسه ومغالبة أهوائه - لا شك أن ما يدعوا إليه الصوفيون من الزهد، والورع والتوبة والرضا.. إنما هي أمور من الإسلام، وأن الإسلام يحث على التمسك بها والعمل من أجلها . لكن الذي وصل إليه بعضهم من الحلول والاتحاد والفناء، وسلوك طريق المجاهدات الصعبة، إنما انحدرت هذه الأمور إليه من مصادر دخيلة على الإسلام كالهندوسية والجينية والبوذية والأفلاطونية والزرادشتية

والمسيحية- المستشرق ميركس يرى بأن التصوف إنما جاء من رهبانية الشام - المستشرق جونز يرده إلى فيدا الهند - نيكلسون يقول بأنه وليد الاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية، أو بعبارة أدق وليد لاتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي . إن السقوط في دائرة العدمية بإسقاط التكاليف وتجاوز الأمور الشرعية إنما هو أمر عرفته البرهمية حيث يقول البرهمي (حيث لكون منحدرًا مع براهما لا أكون مكلفًا بعمل أو فريضة)

- قول الحلج في الحلول، وقول ابن عربي في الإنسان الكامل يوافق مذهب النصارى في عيسى عليه السلام . لقد كان التصوف المنحرف باباً كبيراً دخلت منه كثير من الشرور على المسلمين مثل التواكل، والسلبية، وإلغاء شخصية الإنسان، وتعظيم شخصية الشيخ، فضلاً عن كثير من الضلالات التي يخرج بعضها صاحبه من الإسلام .

الانتشار ومواقع النفوذ :

لقد عملت الطرق الصوفية على نشر الإسلام في كثير من الأماكن التي لم تفتحها الجيوش وذلك بما لديهم من تأثير روحي يسمونه (ال جذب) مثل إندونيسيا ومعظم إفريقيا وغيرها من الأقطار النائية .

لقد اعتمد الحكام على أقطاب الصوفية في التعبئة الروحية للجهاد ولصد غارات الكفار ومن هؤلاء أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي والشاذلي .

-انتشر التصوف على مدار الزمان وشمل معظم العالم الإسلامي،

وقد نشأت فرقهم وتوسعت في مصر والعراق وشمال غرب إفريقيا
ووسط وشرق آسيا .

- لقد تركوا أثراً مهماً في الشعر والنثر والموسيقى وفنون الغناء
والإنشاد، وكانت لهم آثار في إنشاء الزوايا والتكايا والملاجيء
والمستشفيات والمرابط .

-لقد كان للروحانية أثر في جذب الغربيين الماديين إلى الإسلام ومن
أولئك (مارتن لنجز الذي يقول : إننى أوروبى وقد وجدت خلاص
روحى ونجاتها فى التصوف) .

وتراجعت الصوفية وذلك ابتداءً من نهاية القرن التاسع عشر
ومطلع القرن العشرين ولم يعد لها ذلك السلطان الذى كان لها فيما قبل.

الشعر الصوفي

سماته وألوانه

الشعر لغة الوجدان، ورقة الإحساس، ودفق المشاعر وفيض
الخاطر، وما سمت العرب الشعر شعراً إلا لأنها شعرت به وفطنت
إليه. وكانت العرب لا تقيم الموائد والاحتفالات إلا إذا ولد لأحدهم
مولود ذكر، أو فرس أنتجت. أو نبغ فيهم شاعر، وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إنما الشعر كلاماً مؤلف فما وافق
الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه، وقال عليه
الصلاة والسلام إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب) . وقالت
عائشة رضى الله عنها (الشعر فيه كلام حسن وقبيح، فخذ الحسن،
واترك القبيح)^(١) . وعنها أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى
لحسان بن ثابت فى المسجد منبراً ينشد عليه الشعر . وقال عمر بن
الخطاب رضى الله عنه (الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه)^(٢)
وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : (الشعر ميزان القول)
ورواه بعضهم (الشعر ميزان القوم) وروى ابن عائشة يرفعه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الشعر كلام من كلام العرب
جزل، تتكلم به فى بواديها، وتسئل به الطعائن من بيتها . وأنشد ابن
عائشة قول " أعشى بنى قيس بن ثعلبة " :

قلدتك الشعر يا سلامة ذا فايش والشىء حيثما جوال
والشعر يستنزل الكريم كما ينزل رعد السحابة السبلا^(٣)

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى ج ١ ص ٢٧ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - دار

الجيل - بيروت - لبنان ج ١ الخامسة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) ذاته .

(٣) ذاته ص ٢٨ .

ويروى أن عمر بن الخطاب مرّ "بحسان" وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ ثم قال : أرغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان : دعنى عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك، فقال عمر صدقت. وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى، ومعرفة الأنساب^(١). وقال معاوية رحمه الله : يجب على الرجل تأديب ولده. والشعر أعلى مراتب الأدب وقال : (اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأتى ليلة الهزير بصفين وقد أتيت بفرس، أغل محجل، بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب شدة البلوى، فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطناية :

أبت لى همتى وأبى بلائى	وأخذى الحمد بالثمن الربيع
وإقحامى على المكره نفسى	وضربى هامة البطل المشيع
وقولى كلما جشأت وجاشت	مكانك تحمذى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات	وأحمى بعد عـن عرض

صحيح^(٢)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكماً) وقيل " أحكمة " فترن صلى الله عليه وسلم البيان بالسحر فصاحة منه عليه السلام وجعل من الشعر حكماً، لأن السحر يخيل للإنسان ما لم يكن، وذلك لطاقته وحيلة صاحبه، وكذلك

(١) ذاته .

(٢) ذاته ص ٢٨، ٢٩ .

البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل، والباطل بصورة الحق وذلك لركة معناه، ولطف موقعه، وأبلغ البيانيين عند العلماء الشعر بلا مدافعة يقول رؤية :

لقد خشيت أن تكون ساحراً راوية مرّاً ومرّاً شاعراً
فقرن الشعر أيضاً بالسحر لتلك العلة^(١) .

والشعر الصوفي لون من ألوان الشعر الإسلامي الرفيع الذي عني بالانفس الإنسانية والحديث عنها عناية فائقة، وهو يلجأ إلى أسلوب التحليل النفسى الدقيق يقول ابن الفارض :

وفى عالم التذكار للنفس علمها المقدم تستهديه منى فتيتى^(٢)

والعلماء يعدون ابن الفارض بهذا البيت المتقدم هو مكتشف علم النفس كما عرفه علماء النفس فى العصر الحديث فابن الفارض يرى أن النفس الإنسانية تكتسب علمها الأول من التذكر لكل ما يستقر فيها من مشاعر وخيالات وصور، فالعلم ليس منبعه العقل، بل منبعه النفس، وليس مصدره المعرفة العقلية بل الإلهام النفسى، وليس منهجه ترتيب المعلومات وفهمها، بل هو تذكر المعلومات الإنسانية عن طريق الوحي والإلهام والتذكر، والنفس عالم كبير، والتذكر النفسى عالم أوسع، وبهذا يوضح ابن الفارض جانباً كبيراً مما كتب حوله الصوفيون من دراسة للنفس الإنسانية، ومن أدب التحليل النفسى الذى أبدع فيه الصوفيون^(٣).

(١) ذاته ص، ٢٧ .

(٢) الديواز، ص .

(٣) دراسات فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد عبدالمعنى خفاجى ج ٢ ص ١٤٠
يتصرف .

والشعر الصوفى برمزتيه الأسلوبية والموضوعية صاحب ترعة
سريالية ذلك المذهب الذى يدعو إلى التحلل من كل المنطق التقليدى،
وبين دور اللاوعى فى العمل الفنى، مؤكداً التداخل بين الأحلام
والواقع، فالسريالية هى التعبير عن الفكرة فى غيبة أية رقابة قد
يمارسها العقل ويعيداً عن أى اهتمام جمالى وكذلك ينزع الشعر
الصوفى الذى يتحدث عن أعماق النفس، حديث الرؤى والأحلام والعقل
والباطن^(١). لقد نزع الصوفيون فى شعرهم ترعة ذاتية عميقة،
فضربوا فى عالم ما وراء الحس، وحاولوا الوصول بقلوبهم إلى ما لا
يتسنى للعقل والحواس الوصول إليه، وبذلك قد أثرى الصوفيون الشعر
العربى بهذه السريالية وبتلك الرمزية الصوفية إثراءً عظيماً حيث
فتحوا أمام الشعر النواقد والأبواب ووسعوا جوانبه ومذاهبه فى الأداء
والتعبير وطرقوا عالم الأرواح يجولون فى أسرارهِ وأنواره، وبهتهم فى
ذلك الحقيقة، ودافعهم الحب، ورغبتهم الظفر بالوصول والمشاهدة
جامعين فى ذلك بين مناهج الرمزية الصوفية الأدبية، ومعالم السريالية
فى الأخذ من الباطن ومن اللاشعور. وقد عبر الشعر الصوفى عن
الحب الإلهى أعظم تعبير واتخذ مذهباً له فى الحياة واحترقوا بناره
وفى ذلك يقول ابن الفارض :

وعن مذهبي فى الحب مالى مذهب	وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتى
ولو خطرت لى فى سواك إرادة	على خاطرى سهواً قضيت بردتى
لك الحكم فى أمرى فما شئت فاصنعى	فلم تك إلا فيك لا عنك رغبتي

(١) ذاته ص ١٤٠ بتصرف .

ويتميز الشعر الصوفي بالتحليق في عالم الروح، ولذلك ترى بوناً شاسعاً بين المرميين : مرمى الغزل الصوفى، ومرمى الغزل الحسى ولذا رد كثير من العلماء غزل الشاعر " عمر الخيام " وخمرياته إلى التصوف وردها قوم إلى الحب المادى ونحن نرى بل نكاد نجزم أن غزل الخيام وخمرياته تصوف إسلامى، وشعر صوفى أسلوبه الرمز والتمثيل والتخيل^(١) . والشعر الصوفى واسع الخيال ثرى المعنى متنوع الأغراض مع القدرة على استخدام الألفاظ كما يتميز الشعر الصوفى بأنه تعبير عن وجدان الشاعر وذاته وأعماق نفسه، فهو أدب وجدانى، ومذهب رومانسى حالم، والشعر الصوفى متنوع فى موضوعاته بين الزهد، والحب الإلهى، والمدائح النبوية، وشعر الآداب والحكم، والدعاء، والتسبيح . ومن فنونه أيضاً " الاستغاثه " وهى لون من ألوان الأدب الرفيع، ومن موضوعات الدعاء، ويون بين الاستغاثه، والأحزاب والأوراد حيث أن الاستغاثه تكون شعراً ونثراً، أما الأحزاب والأوراد لا تكون إلا نثراً وهى دعاء الله بإلحاح قال ﷺ (إن الله يحب العبد اللحوح عليه فى الدعاء) ومن أقدم الاستغاثات الشعرية منظومة السهيلي التى يقول فيها :

يا من يرجى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن	امن فإن الخير عندك أجمع
ما لى سوى فقرى إليك وسيلة	وبالافتقار إليك فقرى أدفع
ما لى سوى قرعى لبابك حيلة	فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنع

(١) عمر الخيام للشخ مبشر الطرازى . نشر القاهرة عام ١٩٦٠ م .

ومن الاستغاثات النثرية الرائعة، استغاثات ابن عطاء الله
السكندري ومنها (إلهي أنا الفقير في غنى، فكيف لا أكون فقيراً في
فقرى، إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي)^(١)،
إلهي وصفت نفسك باللطف والرافة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني
منهما بعد وجود ضعفي، إلهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق
بكرمك، إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك،
إلهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما آيسنتي أوصافي،
أطمعنتي منتك^(٢) وللصوفية مذاهب جديدة في النقد وصور الأداء
تستحق الوقوف أمامها طويلاً ومنها نقد ناقد (لمحيي الدين بن عربي)
في قوله :

حار أرباب الهوى في الهوى واربتكوا

فقال : يا عجباً كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها، والهوى
شأنه التعميم، يخدر الحواس، ويذهب العقول، ويدهش الخواطر، ويذهب
بصاحبه في الزاهيين، فأين الحيرة وما هنا باق فيحار، والطريق لسان
الصدر .

ويقول الياقعي عفيف الدين صاحب كتاب (روض الرياحين في
مناقب الصالحين) وكتاب (نشر المحاسن العالية في فضل أصحاب
المقامات العالية) :

وقائلة ما المجد للمرء ما الفخر؟ فقلت لها شيء لبيض العلا مهر

(١) دراسات في الأدب الصوفي د/ خفاجي بتصرف ص ١٤٢، ١٤٣ .

(٢) شرح الرندي على الحكم ج ٢ ص ٨٩ - ٩٩ بتصرف .

فأما بنو الدنيا ففخرهم الغنى كزهر نضير فى غد يبس الزهر
وأما بنو الأخرى ففى الفقر فخرهم نضارته تزداد ما بقى الدهر (١)
فيصف الفقر بالنضارة، والفقر لا يوصف بالنضارة إلا عند
الصوفية وفى عرفهم (٢) .

ومن الشعر الصوفى الرائق الذى يفيض بالمشاعر والأحاسيس
والحب الإلهى، وحب الرسول ﷺ شعر الإمام " البوصيرى " وهو
(شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبدالله
ابن حيان بن صنهاج بن ملاك الصنهاجى البوصيرى أو الذلامى فلقبه
شرف الدين ويكنى بأبى عبدالله وهو من قبيلة " صنهاجة " التى عاشت
فى المغرب واختلف أمرها أبربرية هى أم عربية (٣)، ويؤكد ابن
خلدون (٤) أنها عربية يمنية . والحق الذى تشهد به المواطن والعجمة
أنهم من " البربر " بمعزل عن العرب إلا ما زعمه نسبة العرب فى
"صنهاجة ولواته " وقبيلة " صنهاجة " إحدى قبائل المغرب وتفرقت فى
الشمال الإفريقى كله فالبوصيرى عربى وإن كان عهده بالعروبة
الصحيحة بعيداً لطول إقامة " صنهاجة " بالمغرب وتأثرها بلغة البربر،
وهو إن فاته من نسبه العربى سلامة الملكة لا يفوته كثير من صفات
العرب التى عرفوا بها لأن هذه الصفات لم يغير منها إقامة " صنهاجة "
بين البربر إذ كانت معيشتهم وحالة اجتماعهم لا تختلفان عما للعرب فى
جزيرتهم . وكان صريحاً فى قوله شديداً فى الحق وقد ولد "البوصيرى"

(١) نشر المحاسن ج ٢ ص ٤١ .

(٢) التصوف الإسلامى لركى مبارك ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) دراسات فى الألب الصوفى د/ خفاجى ج ٢ ص ١٨٣ بتصرف .

(٤) مقدمة ابن خلدون، والأعلام للزركلى .

رضى الله عنه فى مصر عام ٦٠٨ هـ وعاش بها وتوفى فى مصر عام ٦٧٥ هـ وكان أحد أبويه من " أبو صير " والآخر من " دلاص " فركب له نسب منهما ف قيل له " الدلاصيرى " ولكنه اشتهر "بالبوصيرى" ودلاص، وأبوصير . من أعمال محافظة " بنى سويف " ويرجح أن "دلاص " بلدة والده، " وبوصير " بلدة والدته وأنه ولد بدلاص ونشأ بأبوصير^(١) ويعد علماً من أعلام الشعراء فى عصره، واشتهر ببرديته التى سارت مسير الشمس وكانت مضرب الأمثال فى البلاغة والروعة والبيان، وجل شعره من نسق واحد وهو شعر خال من التكلف والمحسنات المتعمدة المستكرهة، فقد كان مطبوعاً على قول الشعر وللانطباع أدلة منها : الجمع بين الغث والسمين، لأن النفس لا تكون بمثابة واحدة فى كل حال .

ثانيها : بساطة القول وعدم الاحتفال بالزينة اللفظية .

والثالث منها : طول النفس، وقد جاء طول نفسه فى الشعر لهذا الانطباع الذى وصف به، ومن شعره الذائع الصيت " الهمزية التى فصل فيها الشاعر حياة رسول الله ﷺ منذ ولادته مع ذكر معجزاته وكثرة كاثرة من غزواته ومطلعها .

كيف ترقى رقيق الأنبياء	يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا	ل سناً منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك لنا	س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل	فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء

(١) دراسات فى الأدب الصوفى د/ خفاجى ج ٢ ص ١٨٤ وأيضاً ديوانه .

لك ذات العلوم من عالم الغيب
لم تزل فى ضمائر الكون تختا
ما مضت فترة من الرسل إلا
تتباهى بك العصور وتسمو

ومنها لآدم الأسماء
ر لك الأمهات والآباء
بشرت قومها بك الأنبياء
بك علياء بعدها علياء^(١)

وأما قصيدته " ذخر المعاد " فهي معارضة لقصيدة كعب بن
زهير المشهورة التى أولها :

بانيت سعد فقلبى اليوم مشغول
وجاءت قصيدة " البوصيرى " أطول من قصيدة " كعب " ومنها
هذه الأبيات المختارة :

إلى متى أنت بالذات مشغول
فى كل يوم ترجى أن نتوب غداً
أما يرى لك فيما سن من عمل
فجرد العزم إن الموت صارمه
واقطع حبال الأمانى التى اتصلت
أنفقت عمرك فى مال تحصله
محصول

ورحت تعمر داراً لإبقاء لها
جاء النذير فشمّر للمسير بلا
وصن مشييك عن فعل نشان به
لا تتكرنه وفى الفودين قد طلعت
فإن أرواحنا مثل النجوم لها

وأنت عنها وإن عمرت منقول
مهل فليس مع الإنذار تمهيل
فكل ذى صبوة بالشيب معزول
منه الثريا وفوق الرأس إكليل
من المنية تسيير وترحيل^(٢)

(١) الديوان .

(٢) الديوان .

الحلاج

ولد أبو المغيث الحسين بن منصور بن محمى البيضاءوى فى قرية الطور فى الشمال الشرقى من مدينة البيضاء من مدن مقاطعة فارس بإيران وإلى الشمال من مدينة شیراز على بعد ثلاثين كيلو متراً، فى نحو سنة ٢٤٤ هـ / ٨٥٧ م، وكان جده محمى مجوسياً - وتنقل الحلاج بين شبوخ التصوف المعاصرين حتى وصل إلى بغداد ليأخذ عن الجنيد البغدادى شيخ الطائفة الصوفية لأيامه (ت ٢٩٨ هـ / ٩١٠ - ١١ م) لكن هذا لم يقبله قبولاً حسناً لنقّة الحلاج المفرطة بنفسه ومبالغته فى ممارسة الرياضيات النفسية والجسدية - قصد الحلاج مكة حاجاً ليعود منها إلى الأهواز، بالقرب من موطنه القديم، واعظاً . وإذ لم ينجح النجاح المطلوب، جعل يتنقل فى خراسان وفارس والعراق ليلقى عصا الترحال فى بغداد - لكنه رحل عنها ثانية - بعد أن ترك أسرته فيها - حاجاً ثانية، ثم لم يعد إليها مباشرة وإنما قصد إلى الهند والصين فى رحلة طويلة طور فيها أفكاره الصوفية وراض نفسه على التصوف الهندى، ثم عاد إلى بغداد ليستقر فيها ابتداءً من نحو سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م وله من العمر ست وأربعون سنة^(١) . وفى بغداد صنف الحلاج كتبه التى بلغت عنواناتها تسعة وأربعين وكان اثنان منها فى السياسة وكان من أهمية أحدهما وهو (الساسة والخلفاء والأمراء) أن وجد فى خزنة كتب على بن عيسى الوزير . ولم يبق الزمان من كتب الحلاج إلا على كتابه (الطواسين)، أى الآيات، الذى ألفه فى فترة سجنه وقبل أن يعدم . وبعد انتهاء حياة الحلاج تحول من زعيم صوفى إلى إمام قيل

(١) الديوان - صنعه وأصلحه الدكتور كامل مصطفى الشبيى ص ١١ .

بمهديته ورجعته وقامت طائفة صوفية دانت بفكرة الحلول ونسبتها إليه خطأ وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى وفى أيام أبى العلاء المعرى^(١). وبعد سنين قليلة انتدب الغزالى، الشافعى الأشعرى، للدفاع عن الحلاج وتفنيد المآخذ عليه ثم تلاه الشيخ عبدالقادر الجيلى الحنبلى، وكثير غيره فتحول الحلاج إلى شهيد وقديس وانتشر صيته حتى غطى العالم الإسلامى كله من القرن الخامس إلى يومنا هذا وفى مطلع القرن العشرين أحيا " ماسنيون " ذكر الحلاج حين زار بغداد سنة ١٩٠٨ م، ضمن بعثة آثارية، فصور قبر الحلاج وغيره ثم كتب عن عبارته " أنا الحق " بحثاً ألقاه فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى أثينا سنة ١٩١٢ م، ونشر ديوانه وكتابه " الطواسين " وأخباره والنصوص التى دارت حوله، وتوج ذلك كله برسالة مطولة للدكتوراه كان عنوانها " عذاب الحلاج " فنبه بذلك الأدباء والشعراء الباحثين فى الشرق والغرب إلى أهميته الأدبية والتاريخية والفكرية كما نبههم فيتز جرالده، قبل ذلك، إلى الخيام وجمال رباعياته - وابتداءً من الخمسينات، صار الحلاج رمز الشهيد الحر والزعيم المؤثر والنموذج الرفيع للرجل الباذل لوجوده من أجل مبدئه والإنسانية فى الأدب العربى نفسه، فكتب فى رثائه وتمجيده، فى شكل صريح ورمزى كثير من الشعراء والأدباء، من أبرزهم : شاعرنا عبدالوهاب البياتى . والشاعران السوريان على أحمد سعيد وعدنان مردم بك والقاصن اللبنانى ميشال فريد غريب وغيرهم ممن يصلح إنتاجهم موضوعاً لكتاب برأسه^(٢).

(١) ذاته ص ١٣ .

(٢) ذاته ص ١٤ .

نماذج من شعر الحلاج

" إلى مبارز من لا يراه "

إلى كم أنت فى بحر الخطايا تبارز من يراك ولا تراه ؟
وسمّتك سمت ذى ورع ددين وفعلك فعل متّبّع هـواه ؟
فيا من بات يخلو بالمعاصى وعين الله شاهدة تراه
أتطمع أن تتال العفو ممن عصيت، وأنت لم تطلب رضاه ؟
أتفرح بالذنوب وبالخطايا وتتساه ولا أحد سواه ؟
فتب قبل الممات وقبل يوم يلاقى العبد ماكسبت يده^(١)

(عمى الأبصار والبصائر)

وأى الأرض تخلص منك حتى تعالوا يطلبونك فى السماء
تراهم ينظرون إليك جهراً وهم لا يبصرون من العماء^(٢)

(الإنسان والقدر)

ما يفعل العبد والأقدار جارية عليه فى كل حال، أيها الرائي ؟
ألقاه فى اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبذل بالماء^(٣)

روحان فى بدن ...

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
نحن مذكنا على عهد الهوى تضرب الأمثال للناس بنا

(١) ذاته ص ١٧ .

(٢) ذاته ص ١٨ .

(٣) ذاته ص ١٩ .

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
أيها السائل عن قصتنا لو ترانا لم تفرق
بيننا

روحه روحى وروحى روحه من رأى روحين حلت بدنا؟ (١)
الكيف منه معروف والغيب منه هو مجهول .

سر السرائر مطوى بإثبات من جانب الأفق من نور بطيات
ككيف والكيف معروف بظاهرة؟ فالغيب باطنه للذات بالذات
تاه الخلائق فى عمياء مظلمة قصداً ولم يعرفوا غير الإشارات
بالظنّ والوهم نحو الحق مطلبهم نحو السماء يناجون السماوات
والرب بينهم فى كل منقلب محل حالاتهم فى كل ساعات
وما خلوا منه طرف العين، لو علموا، وما خلا منهم فى كل أوقات (٢)

محاورة قلبية مع الحق ..

رأيت ربى بعين قلبى فقلت : من أنت؟ قال: أنت
فليس للأين منك أين وليس أين بحيث أنت
وليس للوهم منك وهم فيعلم الوهم أين أنت ؟
أنت الذى حزت كل أين بنحو " لا أين " فأين أنت ؟
ففى فنائى فنا فنائى وفى فنائى وجدت أنت

(١) ذاته ص ٥٥ .

(٢) ذاته ص ٢٥ .

سألت عنى فقلت : أنت	فى محو اسمى ورسم جسمى
فنبئت عنى ودمت أنت	أشار سرى إليك حتى
فحيثما كنت كنت أنت	أنت حياى وسر قلبى
فكل شىء أراه أنت	أحطت علماً بكل شىء
فليس أرحو سواك أنت ^(١)	فمن بالعفو يا إلهى

العشق موت وحياة..

موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا	والله لو حلف العشاق أنهم
ماتوا، وإن عاد وصل بعده بعثوا	قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا
كفتية للكهف: لا يدرون كم لبثوا ^(٢)	ترى المحبين صرعى فى ديارهم

(١) ذاته ص ٢٦ .

(٢) ذاته ص ٢٧ .

ابن الفارض

هو الشاعر " شرف الدين عمر بن علي المعروف بان الفارض " أشهر شعراء مصر في عصر الدولة الأيوبية، وهو شاعر صوفي أوقف شعره على التصوف، والعشق الإلهي، وقد ورث الروح الصوفية عن والده - وبعد وفاة والده هاجر إلى مكة المكرمة، وأقام بها خمسة عشر عاماً، ثم عاد إلى القاهرة، وأقام بها حتى لقي الله عز وجل ودفن بسفح المقطم عن ستة وخمسين عاماً وكان من أصحاب المذهب الرمزي في شعره الذي نحا فيه منحى كبار الصوفية، وأكثر فيه من صنعة البديع، مع الإجادة والرقّة وطول النفس، مع الاتكاء على مصطلحات الصوفية ورموزهم وقد ذاع صيته واشتهر شعره بين الأدباء والشعراء والنقاد والصوفية والمستشرقين، وله ديوان شعر معروف وقد نهض بشرحه " حسن البوريني " و " عبدالغنى النابلسي " وشرحه أيضاً " رشيد بن غالب " وكان ابن الفارض ورعاً زاهداً، متصوفاً يتحلى بالصلاح والتقوى، وكان الناس يجلبونه، ويقدره الملوك والأمراء وكان إذا مشى في القاهرة يزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء، مع الهيبة والوقار، فكان إذا خاطبه الخاصة من الناس فكأنما يخاطبون سلطاناً عظيماً، وكان شديد التأثير بالجمال في كل مظهر من مظاهره يميل إلى الخلوة والتقشف، حسن العشرة، كريم السجايا مولع بالعشق الإلهي حتى سمي " سلطان العاشقين " وقد تجلت جميع هذه السمات وتلك الخصائص في شعره وقد جاء شعره ممتلاً باصطلاحات الصوفية وعشقهم وآلامهم وأحوالهم من وجد وسكر، وصحو وهوى وشطح وتجريد، وغير ذلك من قصص حبهم الروحي الخالص، ويعد ابن الفارض أشهر شعراء الصوفيين ويغلب على شعره

أسلوب عصره، وهو عصر " القاضى الفاضل " (١) . و " العماد الأصبهاني " و " ابن النبيه " و " البهاء زهير " وابن سناء الملك وغيرهم فهو مولع بالصناعة البديعية من جناس، وطباق، ومقابلة، وطى ونشر، ومشاكلة وتورية . ويمتاز أسلوبه بلطف العبارة، والإشارة وحلاوة الجرس، ودقة الوصف، والتشبيه والتمثيل، ومما ميز شعره " الرمزية " التى اعتمد عليها اعتماداً كبيراً فى شعره، مع التعسف فى الصناعة البديعية اللفظية وأوقف جل شعره على الحب الإلهى المملوء باصطلاحات السالكين، وقد كان لعصره وبيئته وأسرته التى ترعرع فى أحضانها أثر واضح فى ثقافته وشعره . ويعد ابن الفارض من أكثر الشعراء الذين عنى النقاد بشعرهم دراسة وتحليلاً (٢) - وهذه قصيدة من شعره وهى بائية من بحر الرمل وقد نظمها الشاعر وهو مقيم فى الحجاز وهى قصيدة مشهورة بين الأدباء والنقاد، واستهل بها ديوانه وتبلغ نحو الخمسين والمائة بيتاً، ويروى أن الملك الكامل الأيوبي كان يحب أهل العلم ويحاضرهم فى مجلس مختص بهم، وكان يميل إلى فن الأدب، فتذكروا يوماً فى الشعر وأصعب القوافى، فقال الكامل من أصعبها " الياء الساكنة " فمن كان منكم يحفظ شيئاً منها فليذكره،

(١) ابن الفارض والحب الإلهى لمحمد مصطفى حلمى - التصوف الإسلامى لزكى مبارك ج ١ ص ٢٩٠ وما بعدها - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٧ .

(٢) الديوان، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٨٣ والخطط المقرئية وحسن المحاضرة للسيوطى وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى فى أخبار عام ٦٢٢ هـ بتصرف - أيضاً أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى لأبى المقدس ص ٣٦٩ : ٤٠٢ .

فتذكروا فى ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات، فقال الكامل : أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة وذكرها، فاستحسن الحاضرون ذلك، فقال القاضى : شرف الدين كاتب سر الملك : أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة، فقال الكامل : يا شرف الدين : جمعت فى خزائنى أكثر دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام وأنا أحب هذه القافية، فلم أجد فيها أكثر مما ذكرته لكم . فأنشدنى هذه الأبيات التى ذكرت، فأنشده يائبة ابن الفارض، فقال الكامل : يا شرف الدين لمن هذه القصيدة ؟ فلم أسمع بمثلها، فقال : هذه من نظم الشيخ " شرف الدين عمر بن الفارض " فبعث الملك إليه بهدية ثمينة مع كاتب سره، فرفضها ابن الفارض، فذهب الكامل لزيارته حيث كان يعتكف فى قاعة الخطابة بالأزهر الشريف، فخرج الشيخ من الجامع وسافر إلى الإسكندرية أياماً ثم رجع إلى الجامع الأزهر مريضاً فأرسل إليه الكامل يستأذنه أن يبنى له خلوة بقبة الإمام الشافعى فلم يأذن له بذلك^(١) . وقد اخترنا من القصيدة هذه الأبيات وهى :

سائق الأظعان يطوى البيد طى	منعماً عرج على كئبان طى
وبذات الشيخ عنى إن مرر	ت بحى من عريب الجزع حى
وتلطف واجر ذكرى عندهم	علهم أن ينظروا عطفاً إلى
قل : تركت الصب فيكم شبحاً	ماله مما يراه الشوق فى
يا أهيل الود أنى تتكرو	نى كهلا بعد عرفانى فتى؟

(١) شرح رشيد ابن غالب لديوان ابن الفارض ج ١ ص ١٠٩ ج ١ المطبعة الخيرية بالقاهرة .

نصباً أكسبني الشوق كما
رجع اللاحى عليكم آيا
أيعينيه عمى عنكم كما
بل أسينوا فى الهوى أو أحسنوا
وروح القلب يذكر المنحنى
لم يرق لى منزل بعد القفا
آه وأشواقى لضاحى وجهها
فبكل منه والأحاط لى
لست أنسى بالثنايا قولها
سألهو مستخبروا أنفسهم
ما رأت مثلك عيني حسناً
نسب أقرب فى شرع الهوى
ساعدى بالطيف إن عزت منى
كاد لولا أدمعى - أستغفر الله-
أى صبا أى صبا هجت لنا
كان لى قلب بجرعاء الحمى
أى عيش مر لى فى ظله
ذهب العمر ضياعاً وانقضى

تكسب الأفعال نصب لام كى
من رشادى وكذلك العشق غى
صمم عن عزله فى أذنى ؟
كل شىء حسن منكم لدى
وأعده عند سمعى يا أخی
لا، ولا مستحسن من بعد مى
وظماً قلبى إلى ذاك اللمى
سكرة ، واطربا من سكرتى
كل من فى الحى أسرى فى يدى
هل نجت أنفسهم من قبضتى
وكمثل بك صبا لم ترى
بيتاً من نسب من أبوى
قصر عن نيلها فى ساعدى
يخفى حبكم عن ملكى
سحراً : من أين ذياك الشذى
ضاع منى هل له رد على
أسفى إذا صار حظى منه أى
باطلاً إن لم أفر منك بشىء

الدراسة والتحليل :

١ - السائق هو الذى يمشى خلف المطية يزعجها لتجد فى السير .
الأطعان : جمع طعينة وهو الهودج سواء أكانت فيه امرأة أو لا .
يطوى : يقطع . - البيد : جمع بيداء وهى الفلاة . - طى :
مصدر مؤكد - المنعم : المتفضل - أو هو القاصد وادى نعمان -
عرج : مل أو أقم أو أجس المطية - الكتبان : مفردهما كتيب وهو
مجتمع الرمل - طى : اسم القبيلة .

المعنى : أيها الحادى للإبل فى الفلوات يطوى البيداء طياً مسرعاً
لا يتوقف قاصداً (وادى نعمان) تمهل قليلاً ومل بالإبل إلى كتبان طى
حيث الأحبة والأصفياء - ويقول شارح الديوان إن السائق كناية عن
الله تعالى، وكتبان طى : كناية عن المقامات المحمدية الكثيرة، فكأنه
يتضرع إليه أن يوصله لما يوصل جميع المؤمنين إليها .

٢ - ذات الشيخ : اسم موضع من ديار بنى يربوع - الحى :
البطن من العرب - العريب : تصغير عرب وهم سكان المدن من غير
العجم - الجزع : منعطف الوادى أو وسطه وهو قرية عن يمين
الطائف - حى : فعل أمر مأخوذ من " حياه تحية " إذا سلم عليه .

المعنى : يقول حى نيابة عنى أحبائى وخلائى إن مررت بذات
الشيخ حيث هم مستقرون فى هذا المكان مع عرب الجزع . ويقول
شارح الديوان إنه كنى بذات الشيخ عن مقام الحيرة فى الله، وبالحى
عن المشاهد العلا، وأراد بالجزع أنه موضع حط الرحال، حيث تتعطف
عليه جميع الآمال .

٣ - تَلَطَّف : يعنى ارفق - أجر : اطرَح - عَطَفَا : شَفَقَة .

المعنى : ترفق أيها الحادى مع هؤلاء الأحاباب، وانتَهز الفرصة المواتية لتذكرنى عندهم، وتشرح حالى وما ألاقيه فى حبيهم، فلعلهم يشملونى بنظرة عطف، ويغمروننى بالحنو ومشاعر المودة والعطف علىّ لتخفيف ما أعانيه فى حبيهم، وشوقى إلى لقائهم، ونعيمى بمودتهم .

٤ - الصب : المنيَم فى العشق : - الشبَح : الشخص يبدو ظله ولا يرى جسمه - براه : أسقمه وأضناه - الشوق : العشق - (فى) أصلها الفىء وهو ما كان شمساً ثم نسخه الظل وهو الظل الذى فاء ورجع عن الشاخص .

المعنى : قل يا أيها السائق للأحاباب تركتكم محبكم سقيماً هزياً أنحله الضنى حتى أضمحَلَ رسمه وأصبح لا يرى ظله .

٥ - أهيل : تصغير أهل - أنأى : بمعنى كيف والاستفهام هنا بمعنى التعجب - كهلاً : يعنى شيخاً - فتى : تصغير فتى وهو الشاب .
المعنى : يا أهل المحبة عجباً لإتكاركم إياى كهلاً بعد معرفتكم لى وأنا شاب فتى .

٦ - النصب : التعب والنصب يسكون الصاد الفتح وبينهما جناس - الشوق : شدة الحب .

المعنى : إن الشوق إلى الأحبة أكسبنى السقام والضنى مثل ما أكسبت " لام كى " النصب للأفعال المضارعة .

٧ - اللاهى : اللاثم - والآيس : اسم فاعل من " آيس " إذا قنط ولم يبق له طمع فى شىء - الرشاد : الاهتداء - الغى : خلاف الرشاد .

المعنى : رجع اللاتم لى على حبكم قانطاً من هذى، قاطعاً أمله منه فإن العشق يدفع صاحبه إلى التماذى فى الحب وترك نصيح الناصحين .

٨ - أبغينه عمى؟ الاستفهام هنا للتعجب - العمى : عدم البصر - الصم : عدم السمع - العذل : الملامة - والعاذل : اللاتم .

المعنى : هل عمى العزال لى فى حبكم عن الجمال الساحر الذى يتمنى حتى أشبه عمى عينيه . صمم أذننى عن لومه وعذله فلا أطيع له لوماً، ولا أسمع له عذلاً .

المعنى :

٩ - يقول للعزال : أسيئوا أو أحسنوا فكل شىء منكم مقبول منى حسن لدى فوصالكم وهجركم وقربكم وبعدكم تقر به عينى، ولا أعسده منكم إساءة .

١٠ - روح القلب : أعطه الراحة - القلب : الفؤاد - الذكر : التذكر - المنحنى منعطف الوادى أى موضع انعطافه وانحنائه وهواسم مكان معروف فى بلاد الحجاز - أخى : بتشديد الياء : تصغير لكلمة أخ .

المعنى : أذكر أيها الصديق اسم المكان الذى فيه أحببتى ففى ذكره سلوى للقلب، وراحة لوجدانى، وكرر ذكره على سمعى ففى تكراره لذة وشفاء، من العناء والشقاء .

١١ - راق لقلان المكان : أى صفت له معيشته فيه - المنزل : مكان النزول - النقا : القطعة من الرمل - لا : تأكيد للنفى المفهوم من قوله " لم يرق لى " - مستحسن : مأخوذ من استحسنت الشىء أى

عدده حسناً - " مى " : اسم محبوبية ذى الرمة، وكنى بها هنا عن محبوبته .

المعنى : فارقت مسكنى وسكنى، فلم ألق بعدهما ما يغنى عنهما فالوطن محبوب، والحبیب لا تطيب بدونه الحياة .

١٢ - " آه " كلمة تقال عند الشكاية والتوجع والألم - الضاحى : المشرق - الظماً إلى الشيء : الشوق إليه - اللمى : مصغر " لمى " وهو سمرة فى الشفة وهى أماره جمال عند العرب .

المعنى : ما أشد سقمى وشوقى إلى وجه " مى " الجميل المشرق، وما أكثر شوقى إلى ريقها العذب .

١٣ - الألاحظ : مفردھا " لخط " وهى العيون - السكره اسم المرة من السكر - الطرب : الفرح وهو أيضاً الحزن فهو من أسماء الأضداد .

المعنى : لى سكراتان، واحدة من الحبيبة وعذب ريقها والأخرى من سحر لحاظها، فواشدة شوقى من هاتين السكرتين وقريب من هذا المعنى قول ابن الفارض فى تائيته .

وبالحق استغنيت عن قدحى ومن شمائله لا من شمولى نشوتى

١٤ - الثنايا: جمع ثنية وهى العقبة أو الحيل أو الطريق فيهما. الحى: القوم المجتمعون النازلون فى مكان. أسرى: جمع أسير.

المعنى : لقد سحرتنى حبيبتى بقولها لى فى هذا المكان "إن كل من فى هذا الحى أسرى حبى وجمالى".

١٥ - أنفس: اسم تفضيل من النفاسة وهى الشئ الثمين والمراد أحسنهم. أنفس جمع نفس، وبينهما جناس، وكنى بالقبصتين عن تمام السلطان والقدرة، والبيت كله من كلام المحبوبة.

المعنى : اسأل أيها الحبيب الحى، واستخبر من أشرافهم وأبرارهم، هل نجوا ونجت قلوبهم من سحرى وسلطانى.

١٦ - الصب المتيماً حباً، والمعنى: لم تر عيني إنسانة مثلك حسناً وجمالاً، ولن ترى مثلى بحبك صباً مستهماً.

١٧ - المعنى : إن الحب بيتا نسب وياله من نسب فهو أقرب وأشد صلة من نسب الأبوين، وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لابن الفارض مناماً: يا عمر أنت منا، أنت منا، فأشار إلى ذلك فى هذا البيت.

١٨ - ساعدى : أسعفى من المساعدة وهى الرعاية أو المعاونة. الطيف: خيال الأحباب فى النوم. المنى: جمع منية وهو ما يتمناه الإنسان. القصر ضد الطول. نيلها: إدراكها. ساعدى: مثنى ساعد.

المعنى : إن عز تحقيق آمالى فى لقاءك وقربك ومشاهدتك وزيارتك، فزورينى طيفاً فى المنام لاشفى لواعج أحزاني وآلامى، فإن يدي تقتصران عن نيل ما أتمنى، وإدراك ما أريد.

١٩ - كاد : قرب - أدمع - جمع دمع. أستغفر الله: جملة اعتراضيه.

المعنى : لولا الدموع التى تتساقط من عيني لكاد أن يخفى حبي لكم عن الملكين الموكلين بكتابة أعمالى، وأستغفر الله مما أقول.

٢٠- الصبا: ربح الشمال، وأى لنداء القرب والصبا الثانية -
المحبة هجت: ثرت. الشذى تصغير شذى وهو الرائحة الطيبة.

المعنى : أيها الربح الطيبة لقد هجت لنا أرواحًا عاشقة وذكريات
طيبة، بشذاك الطيب العطر الذى يحكى لنا شذى المحبوب وعطره.

٢١- جرعاء الحمى : اسم موضع.

المعنى : إن قلبى قد تركته عند أحبابى فى هذا المكان وافترقته
بعد ذلك فلم أجده فهل يعود إلى يومًا من الأيام؟.

٢٢- أى: اسم استفهام يقصد منه التهويل والتعظيم ظله: أى ظل
هذا المكان المذكور قبله. الأسف: أشد الحزن.

المعنى : ما أطيب العيش وأحلاه قديمًا وأنا مقيم فى هذا المكان
وما أعظم أسفى إذ صار حظى من هذا الماضى الجميل أن أتذكره أسفًا
حزينًا.

٢٣- المعنى : يتأسف الشاعر على ما فات من عمره ضياعًا
ويتحسر على ما انقضى باطلاً، إذ لم يقر من مراده بالمراد فأما إذا فاز
منه بحظ ولو كان قليلاً فإنه يكون قد أدرك الخير الكثير والجد العظيم.

هذه القصيدة من "بحر الرمل" وهو بحر غنائى مشهور، ومع أن
قافيتها صعبة وهى الياء المشددة الساكنة، ومع ذلك فقد ذللت روح ابن
الفارض الغنائية الأصيلة كل أثر لهذه الصعوبة لذلك جاءت القصيدة فى
قمة الحسن والإحسان والروعة والبيان والموسيقى الجياشة. والوحدة
الموضوعية ظاهرة فى القصيدة حيث إنها جاءت فى موضوع واحد
وهو الحب الإلهى، والوحدة الفنية أيضًا واضحة فى القصيدة حيث

جاءت الألفاظ والصور مترابطة مع التجربة ترابطاً وثيقاً، ولذلك عبرت أصدق تعبير عما فى القصيدة من انفعالات وعواطف وأفكار. والقصيدة تمثل تجربة ذاتية للشاعر وهى عاطفة الحب الإلهى كما أن فيها إيقاعات موسيقية عذبة، وتتواكب فيها صور متلاحقة تعد أجزاء مترابطة من التجربة تعبر عن حالة الشاعر الوجدانية، كما أن القصيدة تعد لوحة فنية وقد جاءت متوائمة مع الفكرة، والصورة الشعرية فى القصيدة جاءت فى أعلى درجاتها من العذوبة، والموسيقى متفاعلة مع التجربة، وتبدوا الصور الشعرية فى أساليبه الرائعة، وفى تصوير الشاعر لمعانيه ولعواطفه ولتجربته تصويراً دقيقاً مؤثراً موجباً ولابن الفارض فى هذا المضممار قدرة بارعة، وتمثل القصيدة الصناعة الفنية لدى ابن الفارض تمثيلاً قوياً حيث حرص الشاعر فيها على الجناس مثل "طى وطى" و "حى وحى" و "تصباً ونصباً" و "أنفسهم وأنفسهم" و "صبا وصبا" - كما حرص على الطباق والمقابلة مثل قوله "يطوى وعرج" ففيها مقابلة "ورشاد وغى" و "أسيئوا وأحسنوا" أنى تتكرونى كهلاً بعد عرفانى فتى، كما حرص على التزام مراعاة النظرير فى قوله: "واشوقى وظما قلبى" و "عمى وصمم" و "سائق الأظعان ويطى" "كثبان طى" كما ترى لديه التشبيهات البليغة الرائعة كقوله "تركت الصب فيكم شبحاً" أى كالشبح. وقوله "تصباً أكسبنى الشوق كما" .. وفى القصيدة كثرة كائنة من المبالغات المقبولة والمجازات والاستعارات مثل "براه الشوق". "كل من فى الحى أسرى فى يدى" والاستعارة التمثيلية فى قوله "قصر عن نيلها فى ساعدى" كما ترى الغزل الرقيق العذب فى قوله: "وتلطف واجر ذكرى عندهم"، "كان لى قلب بجرعاء الحمى" وهذه

الرقعة مبعثها الحب الذى أضناه، والوجد الذى تيممه، والغرام الذى أسكره، ولا يوجد بين المتصوفة من يحاكي ابن الفارض فى هذا الميدان، ويقول الدكتور خفاجى، عندما نحكم على القصيدة وفق المذهب الفقهى أو اللغوى أو البلاغى تظلم القصيدة لأننا سننظر إلى اللغة والأسلوب والتشبيه والاستعارات وصور التعبير اليبانى والبديعى والمعنوى وحدها ولكننا إذ حكمنا عليها وفق المذهب الفنى فسوف ننصف القصيدة انصافاً كبيراً ونرفع من منزلتها إلى درجة عالية، لأننا سننظر إلى تجربتها الشعرية وإلى الوحدة فى القصيدة وإلى الفكرة وإلى مادة التجربة من عاطفة أو انفعال وإلى الخيال والصور الشعرية والموسيقى، وسنخرج من كل ذلك بحكم عادل على ابن الفارض فى قصيدته هذه وهو ما فعلناه فى نقدنا لهذه القصيدة التى بدأ بها الأدباء القدامى "ديوان ابن الفارض" وعددها المحدثون من جيلاد شعره^(١). والرمز فى القصيدة هو نقلها إلى جو نعرف عنه بالذوق ولا نحدده بالصفة، وحول هذا الرمز يدور ابن الفارض فى تصوير الحب الإلهى، وفى القصيدة ظاهرة واضحة وهى كثرة الكلمات التى استعملها الشاعر فى قصيدته مصغرة، والتصغير إذا كان عند المتنبى تعاضماً وكبرياء وخيلاء، فإنه عند ابن الفارض تواضع وإيناس وبشاشة. وتكثر فى شعر ابن الفارض ألفاظ: للشوق والوجد، والحب والخمر، والأفراح والهم، والسكر والوصل^(٢)، فبحق كان ابن الفارض إمام العاشقين وسلطانهم، وله قصيدة أخرى فى الحب الإلهى يطلب فيها رؤية الله عز وجل، وأن

(١) دراسات فى الألب الصوفى للدكتور/ خفاجى، ج ٢، ص ٦٤، ٦٥.

(٢) ذاته بتصرف.

يسمح له بالرؤية ولا يقول له كما قال لموسى عليه (لن ترانى ولكن
انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى)^(١) ثم يعاود نفسه
ويخشى ألا تتحقق له الرؤية فيحذر قلبه من اليأس والقنوط فيقول أنت
وعدتنى فى حبهم صبراً فإياك أن تضجر أو تضيق ذرعاً لعدم تحقق
الرؤية واستجابة الرغبة فإن الغرام هو الحياة فحقك أن تموت فى سبيل
ذلك ولك كل العذر، ثم يخلو مع الحبيب وبينهما سر أرق من النسيم إذا
سرى، فينطلق ابن الفارض يعزف على قيثارة الحب الإلهى والغرام
الذى أسكره فانطلق مغرداً شادياً عازفاً أرق الألحان وأجملها فيقول:

زدنى بفرط الحب فيك تحيراً	وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة	فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى
يا قلبى أنت وعدتنى فى حبهم	صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به	صبا فحقك أن تموت وتعذرا
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا	سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفى نظرة أملتها	فغدوت معروفاً وكنت منكراً
فدهشت بين جماله وجلاله	وغدا لسان الحال عنى مخبرا
فأدر لحاظك فى محاسن وجهه	تلقى جميع الحسن فيه مصوراً
لو أن كل الحسن يكمل صورة	ورآه كان مهللاً ومكبراً ^(٢)

(١) الأعراف، آية رقم ١٤٣.

(٢) ديوان ابن الفارض، ص

رابعة العدوية

هى المتصوفة الزاهدة (رابعة بنت إسماعيل العدوية) وتكنى بأُم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية. كانت امرأة صوفية صالحة مشهورة وهى من أهل البصرة ومولدها بها وتوفيت بالقدس^(١)، يقول ابن خلكان (وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقية على رأس جبل يسمى الطور) وقال كانت وفاتها ١٣٥هـ والذي يوافق ٧٥٢ من الميلاد. كما فى شذور العقود لابن الجوزى. وقال غيره كانت وفاتها سنة ١٨٥هـ^(٢) وفى مجلة "لغة العرب" أن للسيدة "مرغريت سميث" الإنجليزية كتاباً عن "رابعة العدوية" رجحت فيه وفاتها سنة ١٨٥هـ وقالت: إنها عاشت وتوفيت ودفنت بالبصرة^(٣). ويقول الدكتور خفاجى: هى رابعة العدوية القيسية المضرية كانت زاهدة عابدة، عاشت فى البصرة، وخطبها "محمد بن سليمان الهاشمي" وكانت غلة ملكه كل يوم "ثمانين ألف درهم" ووعدا بكل ماله فكتبت إليه "أما بعد فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فصم الدهر، واجعل فطرك الموت، وأما أنا فلو خولنى الله أمثال ما خولك وأضعافه ما سرنى أن أشتغل عن ذكر الله تعالى طرفة عين، والسلام". وكانت لها همة عالية، ومجاهدات عظيمة^(٤). وكانت "رابعة العدوية" هى أول من دعا إلى حب الله لذاته، لا لرغبة فى الجنة، ولا لخوف من النار، ومن جيد شعرها:

(١) الأعلام لخير الدين الزركلى، ج٣، ص ١٠.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٢.

(٣) الأعلام، ج٣، ص ١٠ هامش رقم (٢) أسفل الصفحة رقم ١٠.

(٤) دراسات فى التصوف الإسلامى، ج٢، ص ٧٢، هامش رقم (٣).

كلهم يعبدون من خوف نارٍ ويرون النجاة حظاً جزيلاً
أو بأن يسكنوا الجنان فيحفظوا بقصور ويشربوا سلسبيلاً
ليس لى فى الجنان والنار حظ أنا لا أبتغى بحبى بديلاً
وهى القائلة أيضاً فى الحب الإلهى وهو ديدن الصوفية جميعاً:
أحبك حين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فحب شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل لـه فكشفك للجُب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا(١)
وتقول رابعة:

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحث جسمى من أراد جلوسى
فالجسم من للجلوس مؤانس وحببيلاً قلبى فى الفؤاد أنيسى(٢)

(١) ذاته ص ٧٢، والإحياء للغزالي، ج ٥، ص ١٠٩.

(٢) ذاته.

الفنر الأءبى لءى الصوففة

النثر الصوفى باب غزير، وبحر متلاطم الأمواج، حافل بالمعاني الجبلية، والألفاظ الرائقة، والعبارات الرائعة التى تدل على صفاء النفس، وسمو الروح، والحب الإلهى الذى شغلهم عن الدنيا وزبرجها الكاذب، وزخرفها الخداع، لذا جاء نثرهم الأدبى مترع بالحكمة، ومنعهم بالألفاظ المنتقاء التى وردت على ألسنتهم عفو الخاطر كثمرة من ثمار الوجد والحب الإلهى وتعلقهم بالآخرة، وعزوفهم عن اللهو وحرمانهم لأنفسهم متع الحياة ولذا نذها، وانصرفهم بكليتهم إلى الآخرة والاستعداد لهذا اليوم بالسهر والتجافى عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، خوفاً من عذابه، وطمعاً فى رحمته. وهذا النثر الأدبى الصوفى جاء أيضاً خلاصة عقول مؤمنة، وقلوب متصوفة، وأنفس زاهدة. ولذلك كان للأدب الصوفى عامة ميزات مازته عن الأدب العربى الذى اتسم بسمات تميزه عن غيره فى كل الأعصر مع الاختلاف بين أعصر الأدب العربى فى الإيجاز والإطناب، والميل إلى الصنعة البديعية أو الإعراض عنها، إلى غير ذلك من الخصائص المعروفة للأدب العربى أما الأدب الصوفى فله ميزاته الخاصة به والتى تميزه عما سواه من الآداب، والعصور التى يمثلها الأدب الصوفى عصور طويلة، حيث إنه يبدأ من القرن الثانى الهجرى إلى يومنا هذا وعصرنا الذى نعيش فيه. ولا ريب فى أن الأدب الصوفى أدب يعبر عن الإسلام ويقبى منه كل معانيه، أما ما نلمحه فى الأدب الصوفى من معانى فلسفية، وحكم غير عربية ومن تأثره بالتقافات الأخرى أحياناً، فإنما يرجع ذلك إلى ثقافات الصوفيين أنفسهم، فهم العلماء القارئون المتقنون الذين يطلعون على ثقافات غيرهم من الدول والأمم وليس لذلك من أثر واضح فى أدبهم

غير اتساع المعانى ورحابة الفكر. ولكن الصوفيين لهم أدبهم وألفاظهم وأذواقهم ومواجيدهم التى تخصهم وحدهم دون غيرهم فمثلاً (ذو النون المصرى) وهو أحد المتصوفة الذين يمتازون بأدبهم الراقى، وألفاظهم الجزلة، وحكمهم ونثرهم الأدبى الرفيع ومع ذلك كان صاحب ثقافة مميزة ومعرفة بالفلسفة اليونانية، وبخاصة الأفلاطونية الحديثة^(١). وكان الشاعر (أبو العتاهية) يدعى العلم بفلسفة اليونان^(٢)، وكان الحسين بن منصور الحلاج لديه معرفة بالطب والكيمياء^(٣)، كما كان ذا معرفة واسعة بالديانة المسيحية واليهودية^(٤)، وكان الجيلانى^(٥) يستعين بالفلسفة اليونانية بين الحين والحين فى كتابه المعروف (الإسنان الكامل) كما كان يفعل محى الدين بن عربى حيث كان يقبس من الفلسفة اليونانية^(٦)، فالصوفى (عبد الكريم الجيلانى) يدور كتابه حول ما يجب أن يعرف المرید من ألوان الثقافة الصوفية وهو يستعين فيه بالفلسفة اليونانية من حين إلى حين كما كان يفعل محى الدين بن عربى^(٧)، ويقول السهروردي: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ﴾^(٨) جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة العبد لربه، وجعل جزاء

(١) التصوف فى الشعر العربى تأليف عبد الحكيم حسان، ص ٣٣٠ بتصرف.

(٢) الأغاني للأصفهاني، ج ٤، ص ٢٩.

(٣) شذرات الذهب فى خبر من ذهب لابن العماد الحنبلى، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٤) التصوف الشعر العربى لعبد الحكيم حسان، ص ٣٤٩، بتصرف.

(٥) التصوف الإسلامى، ج ٢، ص ٢٢٠.

(٦) الأدبى الصوفى للأستاذ الدكتور/ محمود فرج العقدة، ص ١٦.

(٧) التصوف الإسلامى، للدكتور/ زكى مبارك، ج ١، ص ٢٢٠.

(٨) سورة آل عمران آية ٣١.

العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه، فأوفر الناس حظاً من متابعة الرسول أوفرهم حظاً من محبة الله تعالى. والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم، ووقفوا عما نهاهم قال الله تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)^(١) ثم اتبعوه في أعمالهم من الجد والاجتهاد في العبادة، والتهجد، والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه من الحياء، والحلم، والصفح، والعفو، والرأفة والشفقة، والمداراة، والنصيحة، والتواضع، ورزقوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة، والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهّد والتوكل، فاستوفوا جميع أقسام المتابعة وأحيوا سنته بأقصى الغايات^(٢) ومن أشرف ما ظفر به الصوفى من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف وهو: (دوام الاقتدار ودوام الالتجاء)^(٣).

ويقول السهروردي في عوارف المعارف: (بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين مالت خلافة النبوة إلى أن تكون دولة سياسية وملكاً عضوداً، وانقسم أهل ذلك العصر عدة أقسام: قسم باشر هذه الفتن وزج بنفسه فيها طلباً للخلافة وولاية الحكم، وقسم جاريهم ورأى نفسه أحق بها منهم، وقسم محايد رأى أن من شرائط

(١) سورة الحشر، الآية رقم ٧.

(٢) عوارف المعارف للسهروردي تحقيق الإمام الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، ج ١، ص ١٣٣، ط. دار المعارف.

(٣) ذاته، ص ١٣٤.

الإسلام ألا يزج بنفسه فى هذه الفتن وأن يحايدها حتى تتجلى، مثل ابن عمر، وأبى ذر، وعكاشة، ومنهم أيضاً من زج بنفسه فى غمارها وهم الشيعة وقد أسموا أنفسهم بالعلويين تعصباً لعلى، وعنهم تفرعت الطائفة الإسماعيلية وهى من أخص الشيعة تطرفاً، وقد أسموا أنفسهم باطنية، وبذا حصل اللبس، وأدمجهم من لا يعلم ماهية التصوف فى زمر الصوفية^(١).

وكان ممن يعدون من المتصوفة فى عصر بنى أمية وما بعده (الزهاد والعباد، والنسك، من أمثال عمر بن عبد العزيز وغيره من أئمة الفقه والشريعة الإسلامية مثل (الإمام مالك بن أنس والإمام أحمد ابن حنبل والإمام الشافعى والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وابن سيرين وبشر بن الحارث الحافى) ولأولئك أحوال عظيمة وأقوال فى التصوف الإسلامى تنسب إليهم. وللمتصوفة كثرة كائنة من الأدب الرفيع فى الأدعية والأذكار والأوراد والمناجاة الإلهية وكتبهم تعج بهذه الألوان السامية ونسجل هنا أمثلة ونماذج لكل ما أومأنا إليه آنفاً.

أولاً: المناجاة:

النجوى والنجى "الستر" والنجو السر بين اثنين يقال نجوته نجواً وناجيته مناجاة أى ساررته، والاسم النجوى قال الشاعر:

فبت أنجوا بها نفساً تكلفنى ما لا يهيم به الجثامة الورع

وفى التنزيل: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾^(٢) فجعلهم هم النجوى، وإنما النجوى فعلهم، قال الفراء وقد يكون النجى والنجوى اسماً ومصدرًا

(١) عوارف المعارف للسهروردى.

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٧ .

وفى حديث الدعاء (اللهم بمحمد نبيك وبموسى نبيك) هو المناجى
المخاطب للإنسان والمحدث له، وقد تتاجيا مناجاة وانتجاء. وفى الحديث
(لا يتجى اثنان دون الثالث) وفى رواية أخرى (لا ينتجى اثنان دون
صاحبهما) أى لا يتسارران منفردين عنه لأن ذلك يسوءه، وفى حديث
على كرم الله وجهه دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الطائف
فأنتجاه فقال الناس (لقد طال نجواه! فقال: ما انتجيتّه ولكن الله إنتجاه!
أى أمرنى أن أناجيه، وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما (قيل له ما
سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النجوى؟ يريد مناجاة
الله تعالى للعبد يوم القيامة، وفى حديث الشعبى (إذا عظمت الحلقة فهى
بذاء ونجاء) أى مناجاة، يعنى يكثر فيها ذلك والنجوى اسم للمصدر،
وقوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو
سادسهم)^(١) يكون على الصفة والإضافة وناجى الرجل مناجاة ونجاءً
(سارّه) وانتجى القوم وتتاجوا (تساروا) وانشد ابن برى:

قالت جوارى الحى لما جينا

وهنّ يلعبن وينتجينا

ما لمطايا القوم قد وجينا؟

وفى التنزيل ﴿فلما استئنسوا منه خلصوا نجياً﴾^(٢) أى اعتزلوا
متناجين وانتجاه إذا اختصه بمناجاته، وناجية اسم وبنو ناجية قبيلة^(٣)،

(١) سورة المجادلة الآية ٧ .

(٢) سورة يوسف الآية ٨٠ .

(٣) لسان العرب لابن منظور مادة (نجا) المجلد السادس، ط. دار المعارف بالقاهرة،

ص ٤٣٥٩ وما بعدها.

وأدب المناجاة هو الحديث إلى الله عز وجل والتضرع والابتهال إليه وغالبًا ما يكون ذلك في الليل حينما يتبتل العبد ويتهجد لربه سبحانه وتعالى. بعيدًا عن ضوضاء الناس وعجيج الكون، وعدم وجود أحد معه لذلك سمي مناجاة. وذلك الأدب الرفيع هو الذي أنشأه المتصوفة في مناجاتهم لله عز وجل والتحدث إليه مستغرقين بكليتهم في خطابيه سبحانه فهو أدب راقٍ بليغ ولون بديع من ألوان النثر الأدبي الغنى يخص الصوفية وحدهم، ومن صور المناجاة، مناجاة لذي النون المصري، وقد ورد فيها (إلهي ما أصغيت إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طير، ولا تنعم ظل، ولا دوى ريح، ولا قعقة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أن ليس كمثلك شيء، وأنت غالب لا تغلب، وعالم لا تجهل، وحليم لا تسفّه، وعدل لا تجور، وصادق لا تكذب إلهي فإنني أعترف بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه صنعك، وأشهد لك بما دل عليه فعلك، فهب لي طلب رضاك برضاى. إلهي من لم ينسه جميع الهموم رضاه عنك، ولم يله عن جميع الملامى تعداد آلائك، ولم يقطع عن الأانس بغيرك مكانه منك، كانت حياته مية، وميته حسرة، وسروره غصة، وأنسه وحشة، إلهي عرفنى عيوب نفسى، وافضحها عندى لأتضرع إليك، وابتهل بين يديك خاضعًا ذليلًا فى أن تغسلنى منها، واجعلنى من عبادك الذين شهدت أبدانهم، وغابت قلوبهم، تجول فى ملكوتك، وتتفكر فى عجائب صنعك، لترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك، قد البستهم خلع محبتك، وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك. إلهي لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابًا إلا فتكته، ولا حاجزًا إلا رفعته، ولا وعرا

إلا سهلته، ولا باباً إلا فتحتّه، حتى تقيم قلبي بين حفياء معرفتك وتنيقني
طعم محبتك وتبرد بالرضا منك فؤادي. وجمع أحوالي حتى لا أختار
غير ما تختاره، وتجعل لي مقاماً بين مقامات أهل ولايتك ومضطرباً
فسيحاً في ميدان طاعتك. إلهي كيف أسترزق من لا يرزقني إلا من
فضلك، أم كيف أسخطك في رضى من لا يقدر على ضرى إلا
بتمكينك؟ فيا من أسأله ايناساً به وإيحاشاً من خلقه، ويا من إليه التجائي
في شدتي ورجائي، ارحم غربتي وهب لي من المعرفة ما أزداد به
يقيناً، ولا تكلني إلى نفسي الأمانة بالسوء طرفة عين).

ومن ألحان معروف الكرخي في تمجيد رب العزة:

(سیدی: بك تقرب المتقربون في الخلوات، ولعظمتك سبحت
الحيثان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافحت الأمواج
المتلاطمات. أنت الذي سجد لك سواد الليل، وضوء النهار، والفلک
الدوار، والبحر الزخار، والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شيء
عندك بمقدار، لأنك العلى القهار).

وهذه مناجاة لابن عطاء الله السكندري (٦٥٨ - ٧٠٩) وقد جاء

فيها:

(إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقرى. إلهي أنا
الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلى؟ إلهي منى ما يليق
بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك، إلهي وصفت نفسك بالالطف والرافة بى
قبل وجود ضعفى، أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى؟ إلهي ما أطفك بى
مع عظيم جهلى، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى. إلهي ما أقربك منى
وما أبعدنى عنك، إلهي حكمك الناقد ومشيتك القاهرة، لم يتركك لذى

مقال مقالاً ولا لذي حال حالاً. إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي، قبل حلول رمسي، بل أستتصر فأنصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخينني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وبيابك أقف فلا تطردني، إلهي إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنني، فكن أنت النصير لي تنصرني، وتتصر بي، واغتنى بفضلك حتى استغنى بك عن طلبي، أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانتم لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك. لقد خاب من رضى دونك بدلاً ولقد خسر من بغى عنك متحولا) .

وقد ابتكر ابن عطاء الله أيضاً مناجاة من الله لعبده على لسان هواتف الحقائق، ومنها ما قاله ابن عطاء في هذه المناجاة الإلهية^(١):
(أيها العبد ألق سمعك وأنت شهيد بأنك منى المريد، وأصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد، كنت بتدبيرى لك قبل أن تكون لنفسك، فكن لنفسك بأن لا تكون لها، وتوليت رعايتها قبل ظهورك، وأنا الآن على الرعاية لها. أنا المتفرد بالخلق والتصوير وأنا المتفرد بالحكم والتدبير، لم تشاركني في خلقى وتصويرى فلا تشاركني في حكمى وحكمى وتدبيرى، أنا المدبر له اكى وليس لى فيه ظهير، وأنا المنفرد بحكمى فلا أحتاج إلى وزير، أيها العبد من كان لك بتدبيره قبل الإيجاد فلا تشاركه في المراد، ومن عودك حسن النظر منه إليك فلا تقابله

(١) تاج المروس لابن عطاء الله السكندري، ص ٥٦.

بالعناد، عودتك حسن النظر منى لك فعورتى إسقاط التدبير منك
معى.. أشكا بعد وجود التجربة وحيرة بعد وجود البيان وضلالاً بعد
وضوح الهدى، وقد سلمت لى قيامى بمملتى وأنت من مملكتى فلا
تفازع ربوبيتى ولا تضاد بتدبيرك مع وجود ألوهيتى. منى أحوجتك
إليك حتى تختال عليك، متى وكلت شيئاً من مملكتى لغيرى حتى أكل
ذلك إليك، متى خاب من كنت له مدبراً ومتى خذل من كنت له ناصرًا
أيها العبد: يكفيك من الجهل أن تسكن لما فى يدك ولا تسكن لما فى
يدي، أنا أختار لك أن تختارنى أفتختار على، يا مهموماً بنفسه لو ألقيتها
إلينا لاسترحت، ويحك اعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية وليس يقوى
عليها ضعيف البشرية ويحك أنت محمول فلا تك حاملاً أردنا راحتك
فلا تكن لنفسك متعباً. أيها العبد: أمرتك بخدمتى، وضمنت لك نعمتى
فأهملت ما أمرت وشككت فيما ضمنت ولم أكتف بقسمتى لك، بالضمنان
أقسمت ولم أكتف بالقسم حتى مثلت فخاطبت عبداً يفهمون فقلت ﴿ وفى
السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل
ما أنكم تنطقون ﴾^(١) وقد رزقت من غفل عنى وعصانى فكيف لا
أرزق من أطاعنى ودعانى. ويحك الغارس للشجرة ساقبها، والممد
للخليفة هو بارئها منى كان الإيجاد وعلى دوام الإمداد منى كان الخلق،
وعلى دوام الرزق، أَدْخَلَكَ دَارِى وَأَمْنَعُكَ وَجُودِ عُونِى؟ أأُخْرِجُكَ إِلَى
وَجُودِى وَأَمْنَعُكَ جُودِى؟ لك هيات فتتى وفيك ظهرت رحمتى وما قنعت
بالدنيا حتى ادخرت لك جنتى وما اكتفيت لك بذلك حتى أتحنفك برؤيتى،
فإذا كانت هذه أفعالى فكيف تشك فى أفضالى فاخترنى ولا تختار على

(١) سورة الذاريات الآية ٢٢ ، ٢٣ .

ووجه قلبك بالصدق إلى فإن فعلت أريتك غرائب لطفى وبدائع وجودى
وأمتع سرك بشهودى).

ومناجاة لجلال الدين الرومى:

(يا من هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن، يا من فيه غناء
الروح عند مرارة الفقر والعوز، يا من نحوه أولى وجهى فى حياتى
ووجودى، يا من هو أنسى وفرحتى وسرورى. لو أنى وهبت ملكى لا
يبلى، أو أن كنزاً خفياً فتح لى يحوى كل ما فى الوجود، لسجدت لك
روحى، ووضعت وجهى فى الثرى، وصحت قاتلاً: ليس لى مراد غير
حبك، كل شىء يزول ويفنى ويذهب إلى العدم، ويبقى نور الحب خالداً
سرمدياً).

هذه ألوان وصور لمناجاة المتصوفة وهى ألوان كلها تخص
بالبلاغة، وتقويض بالخشوع، ويعلوها الطهر والشفافية، والروحانية التى
تشذب النفس، وتهذب الروح، وذلك ديدن الصوفية، وهجيراهم فى
الخشوع والتبذل إلى الله ومناجاته.

مكاتبات الصوفية والصدور والدعوات والرسائل

وتلك مكاتبة أخرى وهى (سمعت جعفر الخلقى رحمه الله يقول:
سمعت الجنيد رحمه الله يقول: دفع إلى (سرى السقطى) رقعة وقال:
هذا مكان قضائك لحاجتى. ففتحت الرقعة فإذا فيها مكتوب سمعت حاديا
فى البادية يحدوا ويقول:

أبكى وهل تدرين ما يبكىنى

أبكى حذارا أن تفارقينى

وتقطعى وصلى وتهجرينى^(١)

وكتب شيخ من الأجلة إلى بعض المشايخ: (وجدى بك حماني عن
الإشارة إليك، وما بدا من قربك غيب عني مؤنة الذكر لك فحقيقتك
ظاهرة، وأعلامك زاهرة، وسطوتك قاهرة، ظهرت سطوتك فحسنت
معرفتي عند ظهورها وزهل عقلى عند ورودها، وقصر علمي عند
شرح بيان ظهورها. وقصرت عبارتي عند استيلاء حقيقتك. والسلام^(٢)).

وكتب بعض المشايخ كتابا فكان فيه هذا الفصل (تفكرى فى
مرارة البين^(٣)) يمنعنى من التمتع بحلاوة الوصل، وتكره عيني أن يقر
بقربك، مخافة أن تسخن ببعدك، فعلى عند الاجتماع كبد ترجف وعند
التئائي^(٤) مقلة تكف^(٥)، وأقول كما قال الشاعر:

وما فى الدهر أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق

(١) ذاته، ص ٣٠٧.

(٢) ذاته، ص ٣٠٨.

(٣) البين - الفراق .

(٤) التئائي - البعد .

(٥) تكف - تمتع .

تراه باكيًا في كل حين مخافة فرقة أو الاشتياق
فيبك إن نأوا شوقًا إليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التئاني وتسخن عينه عند التلاقي^(١)

وفيما حكى عن ابن مسروق عن سري السقطي رحمه الله أنه قال: (كتب لي بعض إخواني، فكتبت إليه يا أخى أوصيك بتقوى الله الذى يسعد بطاعته من أطاعه، وينتقم بمعصيته ممن عصاه، فلا تدعوك طاعته إلى الأمن من عذابه، ولا تدعوك معصيته إلى اليأس من رحمته جعلنا الله وإياكم حذرين من غير قنوط، وله راجين من غير اغترار)^(٢).

ثانيًا: فى صدور الكتب والرسائل:

وهذه صدور لكتبهم ورسائلهم ترى فيها الإشارات اللطيفة والرموز الخفية التى تعبر عن الحقائق المشككة، وتنبؤ عن السرائر والخصوصية التى تنفرد بها جماعة المتصوفة فى تجريد التوحيد، وحقيقة التفريد، فإن فى ذلك لأهل الفهم فوائد كما أن فيها من المعانى والإشارات ما يدل على مراتب القوم ولطائف إشاراتهم، وطهارة أسرارهم وخصوصيتهم بالفهم، والعلم، والعقل، والأدب لأن من عادة أهل المعرفة والأدب أن يعرفوا أشكالهم بمخاطباتهم، وأشعارهم، ومكاتباتهم وذلك إذا لم يتمكنوا من مجالسة هؤلاء الإخوان والأصدقاء والأحباب ومخالطتهم فبذلك يدفعهم الشوق والمحبة إلى مراسلة ومكاتبة

(١) ذاته، ص ٣٠٩.

(٢) ذاته، ص ٣١٠.

إخوانهم، وبث لواج أشواقهم إليهم، فهذا صدر للجنيذ رحمه الله: أكرمك بطاعته، وخصك بولايته، وجلالك بستره، ووفقك لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأطلعك على فهم كتابه، وأنطقك بالحكمة، وأنسك بالقرب، وخصك بالفوائد، ومنحك الزيادات، وألزمك بابه، وكلفك خدمته، حتى تكون له موافقاً، ولكأس محبته ذائقاً، فيتصل العيش بالعيش والحياة بالحياة، والروح بالروح، فتتم النعمة، وتسلم من المعنبة، فتصح العافية، وتكمل السلامة^(١).

وصدر آخر للدقي: أكرمك الله وأعلاك، وقربك بعطائه وأدناك، وقسم لك من نواله وأرضاك، وأعاذك من بلائه وشفاك، وتولاك فيما ألزمك وكفاك، إنه وليٌ قدير، ذو رافة لمن التجأ إليه، ومهيمن على من استند إليه، نعوذ بالله لنا ولك من كل بلية، ونستعيذه ونستغفره من كل خطيئة^(٢).

وصدر آخر: توند الله إليك بعطفه، ولا أخلاك من نائله ولطفه وأعاذك من بلائه وعنفه، ولا حجبك بفعالك عن ذكره، ولا سترك بعملك عن شكره إنه وليٌ قدير^(٣).

ثالثاً: الدعاء:

بدهى أن الدعاء فى الإسلام مفتاح لأحوال نفسية جديدة تتغير بها حياة الرجل ثم تستقيم بعدها خطاه وتلاحقه غاية الله سبحانه وتعالى، يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: دخل رسول الله صلى الله

(١) ذاته، ص ٣١٣.

(٢) ذاته، ص ٣١٦.

(٣) ذاته، ص ٣١٧.

عليه وسلم المسجد ذات يوم فإذا هو برجل من الأنصار يقال له (أبو أمامة) فقال: يا أبا أمامة مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة؟ فقال: هموم لزممتي وديون يا رسول الله قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك، وقضى عنك دينك قلت بلى يا رسول الله، قال قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك فأذهب الله همي وقضى عني ديني^(١)، فاستطاع الرسول عليه السلام بهذا الدعاء أن يرده إلى حقل الإيمان وعالجه مما يعانى وذلك بدعاء يفتح به يومه ويختم به أعماله اليومية حتى يعمل ويمشى وينام وهو على صلة بربه عز وجل، وعن شداد بن أوس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن نقول (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب). وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم حتى يدعوا بهؤلاء الدعوات لأصحابه (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به خشيتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا، واجعل ثارنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا)^(٢).

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه الترمذى.

إن هذه الأدعية أشبه ما تكون بالأناشيد الحماسية التى تثير عواطف الركب السائر فهى ليست جوار القاعدين ولا أمانى الهامدين، بل هى أمداد دافقة من الحق والضيء واليقين يتغلب بها البشر على مشكلات العيش ومضايق الأيام، ثم هى تحديد للمعانى التى يصح التمسك بها والتغلب فى جوها وهى معانٍ قوامها عقد العزم على العمل فى ظل الإيمان والعافية والعدالة. وبهذا المنهج يطيب المرء روحاً وبدناً ويكمل ديناً ودنياً، وبعض الناس يتصور أن الدعاء موقف سلبي من الحياة فهو من وجهة نظرهم عرض حاجات وانتظار إجابة. ويوم يكون الدعاء كذلك لا يدعو ترويد أمانى وارتياب فرج من الغد المجهول فإن الدعاء يكون لغواً ولا وزن له عند الله^(١). إن الدعاء أولاً تحديد وجهة، ورسم مثل أعلى، فسينا إبراهيم عليه السلام حينما دعا قائلاً (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء)^(٢). كان بهذا الدعاء يجعل إقامة الصلاة منهجاً للحياة ومشغلة إنسان. وكذلك عباد الرحمن حينما قالوا (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً)^(٣) فإنهم بهذا الدعاء، وذلك النداء ينشدون فى المجتمع البشرى الأسرة المستقرة، والبيت السعيد بلغة العصر الحديث وإذا تحدثنا عن (أدب الدعاء) لدى الصوفية فنستطيع القول بأن أدب الدعاء لدى الصوفية أدب جم غزير، ورائع وفير.

(١) جند حياتك للعالم الجليل والمفكر الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله.

ط، دار القلم، دمشق، سوريا.

(٢) سورة إبراهيم، الآية رقم ٤٠.

(٣) الفرقان، آية رقم ٧٤.

ومن هذه الأدعية أيضاً ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم وعن الصوفيين أيضاً، فمن أدعية رسول الله عليه السلام: (اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي لساني نوراً، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري) (١).

ومن أدعيته أيضاً صلى الله عليه وسلم: (اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، اغفر فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) (٢). ومن ألوان الأدعية ما يتبدأ بالاستعاذة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي (اللهم إني أعوذ بك من البخل) (٣) وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أُرَد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع، وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم).

ومن الأدعية أيضاً ما يتبدأ بلفظة (استغفر الله) و (سبحان الله) وطلب الغوث من الله عز وجل، ومن الأدعية الشهيرة دعاء زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو: (اللهم لك قلبي ولساني، وبك نجائي وأمائي، وأنت العالم بسري وإعلائي، فأمت قلبي عن البغضاء، وأصمت لساني عن الفحشاء، وأخلص

(١) إحياء علوم الدين للغزالي، ج ١، ص ٢٦٥.

(٢) البخاري، ج ٤، ص ٦٧.

(٣) الإحياء، ج ١، ص ٣٢٩.

سريرتى. وعلانييتى من علائق الأهواء، واكفى بأمانك عواقب الضراء،
واجعل سرى معقوداً على مراقبتك، وإعلاني موافقاً لطاعتك وهب لى
جسمًا روحانيًا، وقلبًا سماويًا، وهمة متصلة بك وبقينا صادقاً فى
حبك^(١). ومن ضراعات الأقطاب، وابتهالات العارفين ما دعا به (ذو
النون المصرى): (اللهم إن الحول حولك، والطول طولك، ولك فى
خلقك مدد وقوة وحول، وأنت الفعال لما تشاء، لا العجز والجهل
يطرحانك، ولا النقصان والزيادة يجبلانك، لا يحد قدرتك أحد، ولا
يشغلك شأن عن شأن)، ولذى النون أيضًا: (اللهم اجعل العيون منا
فوارات بالعبرات والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات، واجعل قلوبنا
غواصة فى موج قرع أبواب السماوات، تائهة من خوفك فى البوادر
والفلوات، افتح لأبصارنا باباً إلى معرفتك ولمعرفتنا أفهاماً إلى النظر
فى نور حكمتك. يا حبيب قلوب الوالهيين، ومنتهى رغبة الراغبين،
اللهم تقبل ما مننت به علينا من الإسلام والإيمان، ولا تمنعنا عفوك
عند السؤال فإننا إليك آيئون، ومن الإصرار على معصيتك تائبون).

ومن دعاء شيخ الطريقة وإمامها وسيد طائفة المتصوفين الإمام
الجنيد: (اللهم إني أسألك يا خير السامعين، وبجودك ومجدك يا أكرم
الأكرمين وبكرمك وفضلك يا أسمح السامحين أسألك سؤال خاضع
خاشع، متذل متواضع ضارع، اشتدت إليك فاقته، وعظمت فيما عندك
رغبته، وعلم أن لا يكون شئ إلا بمشيئتك، ولا يشفع شافع إليك إلا من
بعد إذنك، إلهى وسيدى وسندى، أنا بك عائد لائذ مستغيث مستجد)^(٢).

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ج ١، ص ٥٧٨.

(٢) دراسات فى التصوف الإسلامى الدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى، ج ١، ص ١٤٩،
نشر مكتبة القاهرة، دار الطباعة المحمدية بالأزهر.

وإن كتب المتصوفة لتغص بهذه الأدعية ممثلة في الأوراد والأحزاب، والفرق بين الورد والحزب أو الورد يقرأ في أوقات منتظمة معروفة في الصباح والمساء والنهار والليل أما الحزب فليس لقراءته وقت معين فهو يقرأ في أى وقت من ليل أو نهار، ومن الكتب التي تعج بهذه الأدعية على سبيل المثال لا الحصر كتب أبو الحسن الشاذلي ومنها حزبه الشهير (حزب البر)، و (دلائل الخيرات)، و (شوارق الأتوار في ذكر الصلاة على النبي المختار) للشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان ابن أبي بكر الجدولي المتوفى عام ٨٧٠هـ بمدينة سوس بالمغرب، وقصيدة أسماء الله الحسنى لصبغة الله الشهرزوري الكيالي وقد شرحها الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ومما كان يدعو به ذو النون رحمه الله: اللهم اجعل العيون منا فواراتٍ بالعبرات، والصدور منا محشوةً بالخير والحرقات، واجعل قلوبنا غواصةً في موج قَرَع أبواب السماوات، تائهة من خوفك في البوادي والقلوات افتح لأبصارنا باباً إلى معرفتك، ولمعرفتنا أفهاماً إلى النظر في نور حكمتك، يا حبيب قلوب الوالهيين، ومنتهى رغبة الراغبين^(١).

ودعاء ليوسف بن الحسين رحمه الله: (اللهم إنا نبات نعمك فلا تجعلنا حصائد نِعمك. اللهم أعطنا ما تريده منا، يا من أعطانا الإيمان به من غير سؤال لا تمنعنا عفوك مع السؤال فإنا إليك آيئون ومن الإصرار على معصيتك تائبون، فإنا إليك ذاعنون تائبون. اللهم تقبل ما

(١) اللع لأبي نصر السراج الطوسي تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي

سرور، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م، ص ٣٢٨.

مننت به علينا من الإسلام والإيمان الذي به هديتنا، واعف عنا. إلهي
نعماك محيطية بنا، وأنت المذكور لشكرها، وعزتك ما شكرك أحد إلا
بك^(١).

ومن دعوات "يحيى بن معاذ" قوله: "إلهي، إذا قلت لي في القيامة:
عبدى ما غرك بي؟ فأقول: سيدي، برك بي. وإن أدخلتني النار بين
أعدائك لأخبرتهم بأنى كنت في الدنيا أحبك لأنك مولاي ومن جميع
الأشياء مغناي). وكان يقول: اللهم إن نجيتني نجيتني بعفوك وإن
عذبتني عذبتني بعدلك رضيت ما بي لأنك ربي وأنا عبدك، إلهي أنت
تعلم أنى لا أقوى على النار وأنا أعلم أنى لا أصلح للجنة فما الحيلة إلا
عفوك). وقال: إلهي وسيدي وسرورى تكرمك شغلنى عن قبيح عملى
وإن كان فيه شقائى، وسرورى بنعمتك شغلنى عن حسن عملى وإن
كان فيه نجاتى، وسرورى بك أنسانى السرور بنفسى. وكان يقول: اللهم
إنى أتقرب إليك، وبك أدلُّ عليك، وحُجَّتى نعمك لا عملى، وما أظنك
تحاسب غذا بعدلك من غشيتَه اليوم بفضلِكَ، وعفوك يستغرق الذنوب،
ورضوانك يستغرق الآمال، ولولا أنك بالعفو تجود ما كان عبدك بالذنوب
يعود^(٢).

وكان يقول: (إلهي وسيدي ومولاي ومن جميع الأشياء مغناي،
ضُيِّعَتْ نفسى بالذنوب فرُدّها على بالتوبة أنت تعلم أن الكريم من عبادك
يعفو عن ظلمه وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعف عني،
إلهي أنت تعلم أن إبليس عدو لك ولئى، وليس شيء أنكى لكمدّه وأقطع

(١) ذاته، ص ٣٢٩.

(٢) اللع لأبى نصر السراج الطوسى. تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي
سرور، ص ٣٣١.

لكيده من غفرانك لى فاغفر لى يا أرحم الراحمين). سمعت عمر
الملطى بأنطاكية يقول: قلت لبعض المشايخ ينبغي أن تدعو لى، فقال:
يا فتى، أنا أدعو لك ولكن ينبغي لك أيضاً أن تكون بالحضرة، فإذا
دعوتُ لك ولم تكن بالحضرة لم ينفع دعائى^(١). ويقول الله عز وجل:
﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿ وقال ربكم ادعونى
استجب لكم ﴾^(٣). وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال: (الدعاء مخ العبادة، والدعاء مفتاح الحاجة،
وهو مستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين)^(٤).

(من أذمن قرع باب يوشك أن يفتح له، فقالت له "رابعة": إلى
متى تقول هذا؟ متى أغلق الباب حتى يستفتح؟ فقال صالح: شيخ جهل
وامرأة علمت)^(٥). يقول أبو على الرقاق: ظهر بيعقوب بن الليث علة
أعيت الأطباء، فقالوا له: فى ولايتك رجل صالح يسمى "سهل بن عبد
الله" لو دعا لك لعل الله سبحانه يستجيب له، فاستحضر سهلاً وقال:
ادعو الله عز وجل لى، فقال "سهل": كيف يستجاب دعائى فيك وفى
محبسك مظلومون؟! فأطلق كل من كان فى حبسه، فقال سهل: (اللهم
كما أريته ذل المعصية فأره عز الطاعة وفرج عنه. فعوفى، فعرض
مالاً على "سهل" فأبى أن يقبله فقبل له: لو قبلته ودفعته إلى الفقراء.

(١) اللع لأبى نصر السراج الطوسى، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي
منزور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المتنبى ببغداد، ص ٣٣٢.

(٢) الأعراف، آية ٥٥.

(٣) سورة غافر، آية ٦٠.

(٤) أخرجه الترمذى وقال حديث غريب.

(٥) ذاته، ص ٥٣١.

فنظر إلى الحصباء في الصحراء فإذا هي جواهر، فقال لأصحابه من يعطى مثل هذا ومتنفس ذوى المآرب، وقد ذم الله سبحانه قومًا تركوا الدعاء فقال: ﴿ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾^(١) قيل: (لا يمدون إلينا في السؤال وقال سهل بن عبد الله: خلق الله تعالى الخلق وقال ناجوني، فإن لم تفعلوا فانظروا إلى، فإن لم تفعلوا فاسمعوا مني، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي)^(٢) والدعاء فى نفسه عبادة لقوله ﷺ: الدعاء مخ العبادة، والالتيان بما هو عبادة أولى من تركه^(٣).

وقال ﷺ: (والذى نفسى بيده إن العبد ليدعوا الله تعالى وهو عليه غضبان فيعرض عنه، ثم يدعو فيعرض عنه، ثم يدعو فيعرض عنه، ثم يدعو، فيقول الله تعالى لملائكته: آبا عبدى أن يدعو غيرى فقد استجبت له)^(٤).

ومن آداب الدعاء: حضور القلب، وأن لا يكون ساهيًا. فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عبد من قلب لاه)^(٥). ومن شرائطه أن يكون مطعمه حلالا فلقد قال صلى الله عليه وسلم لسعد (أطب كسبك تستجب دعوتك)^(٦). وقيل الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانها لقم الحلال. وكان يحيى بن معاذ يقول:

(١) سورة التوبة، آية رقم (٦٧).

(٢) الرسالة القشيرية، ج ٢، ص ٥٢٦.

(٣) ذاته، ص ٥٢٧.

(٤) ذاته، ص ٥٢٩، أخرجه ابن ماجه.

(٥) ذاته، ص ٥٣٠، أخرجه البخارى ومسلم.

(٦) ذاته، رواه البخارى وأحمد فى مسنده.

(إلهي، كيف أدعوك وأنا عاصٍ؟ وكيف لا أدعوك وأنت كريم، وقيل
مرّ موسى عليه السلام برجل يدعو ويتضرع، فقال موسى عليه السلام:
إلهي، لو كانت حاجته بيدي قضيتها، فأوحى الله تعالى إليه: أنا أرحم به
منك، ولكنه يدعوني، وله غنم وقلبه عند غنمه، وإنني لا أستجيب لعبد
يدعوني وقلبه عند غيره. فذكر موسى عليه السلام للرجل ذلك فانقطع
إلى الله تعالى بقلبه فقضيت حاجته^(١). وقيل كان "صالح المري" يقول
كثيراً يحتاج إلى مال "يعقوب بن الليث"^(٢)!! وقيل دعاء العامة
بالأقوال، ودعاء الزهاد بالأفعال، ودعاء العارفين بالأحوال، وقيل: خير
الدعاء "ما هيجته الأحزان"^(٣).

وقيل: الدعاء سلّم المذنبين، أي وسيلتهم، وقيل: "لسان المذنبين
دعائهم" وفي رواية أخرى "لسان المذنبين دموعهم"^(٤). ويقول أبو علي
الدقاق رحمه الله: (إذا بكى المذنب فقد راسل الله عز وجل) يقول
الشاعر:

دموع الفتى عما يجن تترجم وأنفاسه يبدين ما القلب يكتّم

وقال بعضهم: الدعاء ترك الذنوب، وقيل الدعاء لسان الاستيقاق
إلى الحبيب، وقيل كيف تنتظر إجابة الدعوة وقد سدّت طريقها
بالهفوة؟! وقيل الدعاء مواجهة الحق تعالى بلسان الحياء، وقالوا شرط
الدعاء الوقوف مع القضا بوصف الرضا^(٥).

(١) ذاته، ص ٥٣٠، ٥٣١.

(٢) ذاته، ص ٥٣١.

(٣) ذاته، ص ٥٣٣.

(٤) ذاته.

(٥) ذاته، ص ٥٣٤.

الرثاء :

الرثاء فن أدبي راقٍ، عرف منذ العصر الجاهلي، وهو إظهار
التفجع والحزن والحسرة على فراق من يحب، أو هو وصف مآثر
ومحاسن الميت، وماله من أعمال جليلة مثل الكرم والشجاعة والنجدة
وما إلى ذلك من الصفات التي يجمدها الناس لمن رحل عنهم، فهو فن
أدبي قديم. بيد أن الرثاء لدى الصوفية له مذاق مختلف، وتذوق خاص،
وقد أثرت عن الصوفية مراثٍ رائعة ملؤها الألفاظ المنتقاة والبلاغة
التي تأخذ بتلابيب النفس، وتملك على الإنسان لبّه وحسه وهي إن دلت
فإنما تدل على صفاء الروح، والذوق الصوفي الرفيع، والإلهام العميق،
مع جودة المعنى ومثانة النسيج ونصاعة الديباجة، وقوة السبك. نرى
ذلك باديًا واضحًا في قول "ابن السماك" يوم أن مات داود بن نصر
الطائي وهو رثاء فريد يقول ابن السماك: "إن داود رحمه الله نظر بقلبه
إلى ما بين يديه من آخرته، فأعشى بصر القلب بصر العين، فكان كأنه
لا ينظر إلى ما إليه تنظرون، وكأنكم لا تنظرون إلى ما إليه نظر، فأنتم
منه تعجبون، وهو منكم يعجب، فلما رآكم راغبين مذهبين مغرورين،
قد أذهلت الدنيا عقولكم، وأماتت بحبها قلوبكم، استوحش منكم، فكنت إذا
نظرت إلي نظرت إلى حى وسط أموات. يا داود: ما أعجب شأنك بين
أهل زمانك، أهنت نفسك، وإنما تريد إكرامها، وأتعبتها وإنما تريد
راحتها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، وأخشنت الملبس وإنما تريد
لينه ثم أمت نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر وعذبته ولما
تعذب، وأغنيته عن الدنيا لكيلا تذكر، رغبتك نفسك عن الدنيا فلم ترها
لك قدرًا إلى الآخرة، فما أظنك إلا وقد ظفرت بما طلبت، كان سيماك

فى سرك ولم يكن سيمالك فى علانيتك، تفقّهت فى دينك وتركت الناس يفتون وسمعت الحديث وتركتهم يحدثون، وخرست عن القول وتركتهم ينطقون، ولا تحسد الأخيار، ولا تعيب الأشرار ولا تقبل من السلطان عطية، ولا من الإخوان هدية، أنس ما تكون إذا كنت بالله خاليًا، وأوحش ما تكون أنس ما يكون الناس، فمن سمع بمثلك، وصبر صبرك، وعزم عزمك، لا أحسبك إلا وقد أتعبت العابدين بعدك، سجنّت نفسك فى بيتك فلا محدث لك، ولا جليس معك، ولا فراش تحتك. ولا ستر على بابك، ولا قلة يبرد فيها ماؤك، ولا صفحة يكون فيها غداؤك وعشاؤك مطهرتك قلبك، وقصعتك تورك^(١). يا داود ما كنت تشتهى من الماء باردة، ولا من الطعام طيبه، ولا من اللباس لينه، بلى ولكن زهدت فيه لما بين يديك، فما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت فى جنب ما أملت، فلما مت شهرتك ربك بموتك، وألبسك رداء عملك، وأكثر تتبعك، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك وشرّك، فلنتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها، فقد أوضح ربك فضلها بك^(٢) وفى هذا النص نجد خصائص ليست معروفة لدى الأدباء، ومن بين هذه الخصائص "الذاتية" ونعنى بها ذاتية التعبير، أى أن الأسلوب اللورد فيها أسلوب يخص صاحبه وحده ولا يشبه الأساليب الأخرى، وذلك ما تعنيه كلمة "الذاتية" كما أن الألفاظ الواردة فى النص جاءت منتقاة وواضحة عذبة سهلة، وكل لقطة وقعت فى مكانها، وأصابها معناها، أما المعانى فقد جاءت متخيرة حيث لأمت الغرض، ووافقت المقام.

(١) التور هو الإناء الصغير.

(٢) عيون الأخبار، ج ٢، ص ٣١٥، ٣١٦.

وهذه مريثة أخرى من والد لولده. مات ذر بن أبي ذر الهمداني من بنى مرهبة بن عامر بن مالك بن معاوية^(١) وهو ذر بن عمر بن ذر فوقف أبوه على قبره فقال: "يا ذر، والله ما بنا إليك من فاقة، وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة. يا ذر شغلني الحزن لك عن الحزن عليك — ثم قال اللهم إنك وعدتني بالصبر على ذر صلواتك ورحمتك. اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من أجر على ذر لذر فلا تعرفه قبيحًا من عمله. اللهم وقد وهبت له إساءته إلى نفسه فإنك أجود وأكرم". فلما انصرف عنه التفت إلى قبره وقال: يا ذر، قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا ما نفعلناك^(٢)!

الحكمة:

وهي لون من ألوان الأدب العربي، وهي تصدر عن رجل حكيم مجرب للأمور، وله خبرة واسعة بالحياة والناس بيد أن الصوفيين مزجوها بصبغة روحية عالية. وحكم ابن عطاء الله السكندري مشهورة، وهي تمتاز بالرمزية البعيدة الغور، وهي تتناول كل شئون النفس والأخلاق والتصوف وتعد لونًا من ألوان النثر الأدبي الصوفي ذا الذوق الأدبي الرفيع، ومنها على سبيل المثال ما يلي:

العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان — متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك.

(١) الاشتقاق لابن دريد تحقيق عبد السلام هارون، ص ٢٥٦ وأيضًا نهاية الإرب، ج ٢، ص ٣٢٠.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون، ج ٣، ص ١٤٤ وما بعدها.

إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه - ربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول - ومنها أيضاً: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطوى بها رحلتك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها. جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنت جوهراً قد تتطوى عليك أصداف مكنوناته. إنما وسعك الكون من حيث ثبوت جثمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك. أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليست منه. تارة تشرق أنواره على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك. فالنهار ليس منك وإليك ولكنه وارد عليك.

دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه.

لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء إلا في شهادة الملك.

وجدان ثمرات الطاعة عاجلاً بشئ العاملين بوجود الجزاء آجلاً. ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود، أشهدك من قبل أن يستشهد ففطقت بإلهيته الظواهر، وتحققت بأحدثته القلوب والسرائر.

رب عمر اتسعت آماده، وقلّت أمداده، ورب عمر قليلة آماده،
كثيرة أمداده.

من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من الله تعالى
ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة.

الخدلان كل الخدلان أن تنفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه وتقل
عوائقك ثم لا ترحل إليه.

الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار.

الفكرة سراج القلب فإذا ذهب فلا إضاءة له.

الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان.

فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستعمار.

خصائص حكم ابن عطاء الله السكندرى:

ومن خلال قراءتنا لحكم "ابن عطاء الله السكندرى" يستبين لنا أن
حكمه لها خصائص وميزات تخصها، وتتسم بها وهى أولاً: تهدف كما
يقول "الرندى" إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين.

ثانياً: إيانة مناهج السالكين والمتجربين، وتهدف كذلك إلى الكلام
فى إسقاط التدبير عن الخلق أجمعين إذ لا يجوز فى رأيه أن يفكر
الإنسان فى تدبير أى أمر من أمور الدنيا، لأن الله سبحانه قد انفرد
بتدبير شئون هذه الحياة وما للمرء فيها من شىء سوى الإذعان والتسليم
بكل ما تقضى به المقادير، وأن الدعاء لا يغير القضاء فلا يستجيب الله
لأحد إلا فيما قدره له، وقضى به عليه، وأن كرامات الأولياء لا تتحقق
فى شىء مما لم يكن مقدراً حصوله أولاً.

ثالثاً: وكثرة كاثرة من حكم ابن عطاء الله تهدف أولاً وبالذات إلى تصفية القلوب بذكر المعبود، وتطهير الأجسام بفعل الخير واجتناب الآثام. هذا من حيث المعانى والأغراض. أما من حيث الألفاظ والأساليب وطرائق التعبير والتصوير. فإن ألفاظه فى أكثرها منتقاة، وفصيح جيد جاءت خلواً من كل لفظ ثقيل، أو كلام سقيم. كما يتسم أسلوبه بطابع التحليل والتعليل مع الاستواء والاستقامة وقوة التعبير وروعة التصوير.

أما من ناحية المعنى والمضمون فإن حكم ابن عطاء الله السكندرى تنتظم طائفة من النظريات والأفكار، بعضها صوفى، وبعضها فلسفى، وثالثها فقهى، ورابعها بعض مسائل من علم الكلام، أما من حيث الأسلوب وصيغ الكلام وكيفية التناول وطرائق التعبير فإنها تختلف فى ذلك تبعاً لاختلافها فى المعانى والأغراض، فإذا كان موضوع الحكمة يتصل بالأحكام الشرعية فتجىء مصبوغة بأسلوب الفقهاء الذى يتسم بالجدل والاستدلال. وإن كان الموضوع مسألة كلامية فإنه يصطنع أسلوب علماء الكلام وهو أسلوب قائم على التحليل والتحليل وذكر الحجة وإقامة البراهين. وإن كان الموضوع حالة نفسية أو حقيقة باطنية ممن انفرد بمعرفته والكلام فيه أهل التصوف، فإنه يستخدم أسلوب الإحياء النفسى، وطرائق التعبير الصوفى فذلك أسلوب الصوفية فى التعبير عن آراءهم وما يريدون الإفضاء به مما يحصل لهم عن طريق الكشف والمشاهدة، والإبانة عن الأسرار.

فالحكمة لدى "ابن عطاء الله" تقصر وتقل كلماتها إذا كان موضوعها صوفياً، وتطول إذا كانت الحكمة تتناول موضوعاً تكلم فيه أهل الشرع والفقهاء أو كما تتميز حكمه بغزارة المعنى وبعد المرمى،

وتعدد المقصود، وجودة الكلمات وكثرة المحسنات، ووضوح الأسلوب واستقامة التعبير مع انعدام التعقيد فى المعانى وكثرة المجازات والاستعارات والتشخيص، والتأثر بأساليب الفقهاء والمتكلمين، وصدق الشعور وعمق الوجدان^(١).

الزهد :

وقد جاء أدب الزهد فى الدنيا كثير فى أدب المتصوفة وغصت به مؤلفاتهم، وكان حديث الزهد من مقدمات التصوف فى الإسلام، وبخاصة الزهد فى الدنيا وقد جاءت صور الزهد متعددة، وكثيرة متنوعة نسوق طرفاً منها يمثل هذا اللون من الأدب لدى الصوفية ومن صور هذا اللون ما نجده لدى ابن القيم الجوزية حيث يقول: "مثلت الدنيا بمنام، والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذر والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان، باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه، ومثلت بحية ناعمة الملمس، حسنة اللون وضربتها الموت، ومثلت بطعام مسموم، لذى الطعم، طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد على حاجته كان فيه حذفه، ومثلت بالطعام فى المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها، فحبسه قاتل أو مؤذى^(٢) ومن ألوان النثر الأدبى الصوفى، وهو أدب الزهد فى الدنيا أنه قيل لرابعة القيسية العدوية (لو كلمتى رجال عشيرتك فاشترؤا لك خادماً تكفيك مهنة بيتك؟ قالت: والله إني لأستحيى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا فكيف أسألها من لا يملكها؟^(٣).

(١) مجلة منبر الإسلام - مقال عن "صور من الأدب الصوفى المصرى" للدكتور على صافى حسين.

(٢) عدة الصابرين لابن قيم الجوزية، ص ٣١٦.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٣، ص ١٢٧.

ويقول الحسن بن دينار (رأى الحسن رجلاً يكيد بنفسه أى يجود بها عند الاحتضار فقال: "إن أمراً هذا آخره لجدير أن يزهد فى أوله، وأن أمراً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره" (١).

ويقول ابن عطاء الله السكندرى (٧٠٩): مثال المهموم بأمر دنياه الغافل عن التزود لأخراه كمثل إنسان جاءه سبع وهو يريد أن يفترسه ووقع عليه ذباب فاشتغل بذب الذباب ودفعه عن التحرز من السبع، الحق أن هذا عبد أحمق فاقد وجود العقل ولو كان متصفاً بالعقل لشغله أمر الأسد وصولته وهجومه عليه عن الفكرة فى الذباب، كذلك المهمم بأمر دنياه عن التزود للآخرة دل ذلك منه على وجود حمقه إذ لو كان فيهما عاقلاً لتأهب للدار الآخرة التى هو مستول عنها وموقوف عليها، فلا يشتغل بأمر الرزق فإن الاهتمام به بالنسبة للآخرة نسبة الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه (٢).

ويقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه يذم الدنيا (إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متردد، والأعمى لها متزود) (٣).

ويقول الطوسى: (والزهد مقام شريف وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله تعالى، فمن لم يحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شىء مما بعده، لأن حُب

(١) ذاته.

(٢) تاج العروس لابن عطاء الله السكندرى، ص ٤٨، المطبعة العثمانية المصرية.

(٣) نهج البلاغة للإمام على، ج ١، ص ٢٧.

الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة.

ويقال: إن من سُمى باسم الزهد فى الدنيا فقد سُمى بألف اسم محمود، ومن سُمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سُمى بألف اسم مذموم. وهو ما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه باختيار الله له، والزهد فى الحلال الموجود. وأما الحرام والشبهة فتركه واجب.

والزهاد على ثلاث طبقات:

فمنهم المبتدئون، وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك وختل قلوبهم مما خلت منه أيديهم. كما سئل الجنيد رحمه الله عن الزهد فقال: تخلى الأيدى من الأملاك، وتخلّى القلوب من الطمع. وسئل سري السقّطى رحمه الله عن الزهد فقال: أن يخلو قلبه مما خلت منه يداه.

وفرقّة منهم متحقّقون فى الزهد:

ووصفهم ما أجاب (رُويم بن أحمد) رحمه الله، حين سئل عن الزهد فقال: "ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا، فهذا زهد المتحقّقين، لأن فى الزهد فى الدنيا حظاً للنفس، لما فى الزهد من الراحة والنّقاء والمحمّدة واتخاذ الجاه عند الناس، فمن زهد بقلبه فى هذه الحظوظ فهو متحقّق فى زهده).

والفرقة الثالثة: علموا وتيقنوا: أن لو كانت الدنيا كلها لهم ملكاً حلالاً، ولا يحاسبون عليها فى الآخرة، ولا ينقص ذلك مما لهم عند الله شيئاً ثم زهدوا فيها لله عز وجل، لكان زهدهم فى شيء منذ خلقها الله تعالى ما نظر إليها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، فعند ذلك زهدوا فى زهدهم وتابوا من زهدهم.

كما سئل الشبلي رحمه الله عن الزهد فقال: الزهد غفلة، لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء غفلة^(١).

وقال عيسى بن مريم صلوات الله عليه: (الدنيا لإبليس مزرعة وأهلها له حراثون)^(٢).

وقال بعض الملوك لبعض العلماء: ذم لي الدنيا. فقال: (أيها الملك، الآخذة لما تعطى، المورثة بعد ذلك الندم، السالبة ما تكسو، المعقبة بعد ذلك الفضوح، تسد بالأراذل مكان الأفاضل، وبالعجزة مكان الحزمة تجد في كل من كل خلفاً، وترضى من كل بكل بدل، تسكن دار كل قرن قرناً، وتطعم سور كل قوم قومًا)^(٣).

وقيل لمحمد بن علي من أشد الناس زهداً؟ قال: (من لا يبالي الدنيا في يد من كانت)^(٤). وقيل له أيضاً: من أخسر الناس صفقة؟ قال: من باع الباقي بالفاني. وقيل له: من أعظم الناس قدراً؟ قال: من لا يرى الدنيا لنفسه قدراً^(٥).

وقال محمد بن واسع الأسدي: ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث بلغة من عيش ليس لأحد فيها على منة، ولا لله فيها على تبعة وصلاة

(١) اللع لأبي نصر السراج الطوسي، حققه، وقدم له، وخرج لأحاديثه الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور. ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ص ٧٢، ٧٣، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٣، ص ١٥٧.

(٣) ذاته، ص ١٥٨.

(٤) ذاته، ص ١٦١.

(٥) ذاته.

فى جمع، أكفى سهوها ويدخر لى أجرها، وفى رواية أخرى (وصلاة فى جماعة يحمل على سهوها وأفوز بفضلها)^(١) وأخ فى الله إذا ما اعوججت قومنى^(٢).

وقال الحسن للمغيرة بن مخرش التميمى: إن من خوفك حتى تلقى الأمن، خير لك ممن أمتك حتى تلقى الخوف، وقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: (ما أحسن الحسنة فى إثر الحسنة، وأقبح السيئة فى إثر السيئة)^(٣).

وكان الحسن يقول: (إنكم لا تتولون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون)^(٤).

وقيل من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها^(٥) - وقال رجل "هو عبد الله بن إدريس"^(٦) لداود بن نصير الطائى الكوفى الفقيه الزاهد أوصنى قال: (اجعل الدنيا كيوم صمته، واجعل فطرك الموت، فكأن قد والسلام). قال: زدنى. قال: (لا يرك الله عندما نهاك عنه، ولا يفقدك عندما أمرك به). قال: زدنى. قال: (أرض باليسير مع سلامة دينك، كما رضى قوم بالكثير مع هلاك دينهم)^(٧).

(١) صفوة الصفوة، ج٣، ص١٩٤.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، ص١٦٨.

(٣) ذاته، ص١٦٣.

(٤) ذاته، ص١٦٤.

(٥) ذاته، ص١٦٦.

(٦) صفوة الصفوة، ج٣، ص٧٥.

(٧) البيان والتبيين، ج٣، ص١٧٠، ١٧١.

قال رجل ليونس بن عبيد: أتعلم أحداً يعمل بعمل الحسن؟ قال: والله ما أعرف أحداً يقول بقوله فكيف يعمل بمثل عمله؟ قال: صفه لنا. قال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وكان إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه، وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له^(١).

ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال: (أما إني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى)^(٢).

وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال (اعزلوا عنى حسابها)^(٣) وقد قال يحيى بن معاذ الرازى الزاهد الصادق: قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حرفته، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى^(٤).

(١) ذاته، وأيضاً عبون الأخبار لابن قتيبة الدينورى، ج ٢، ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٢) إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى، ج ٤، ص ٢٣١.

(٣) ذاته.

(٤) ذاته.

النصائح والوصايا

وهو لون من ألوان النثر الصوفى، غزير المادة، رائع التصوير والبيان، ومن أقدم هذا اللون رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الزاهد، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه - لما تولى الخلافة - كتب إلى الحسن البصرى، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصف كل مظلوم ومقرع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرقيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويؤودها عن مراتع الهلكة. ويحميها من السباع. ويكنفها من أذى الحر والقر. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده. يسعى لهم صغاراً. ويعلمهم كباراً. يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرقيقة بولدها، حملته كرهاً وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتقطمه أخرى، وتفرح بعاقبته وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إليه ويراهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد انتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال، وشرذ العيال، فافتقر أهله وفرق ماله، واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعبادة، فكيف إذا قتلهم من يقتص

لهم؟.

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياءك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه. يطول فيه ثوابك ويفارقك أحبابك، ويسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتابات لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فالآن يا أمير المؤمنين – وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل – لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتعمون بما فيه بؤسك ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك، فلا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر طيباتك في آخرتك، فلا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت. وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم).

وهي رسالة تتمتع بنضارة الأسلوب وإشراقه، وجماله، وبلاغته، ووضوح المعنى، وقوته^(١).

ومن وصايا الشيخ (محي الدين بن عربي) يقول: (الذي أوصيك

(١) دراسات في الأدب الصوفي للدكتور/ خفاجي، ص ١٢٦.

به أيها الأخ الإلهي أيدك الله بروح منه حتى تخبر به عنه. أن تعرف الحق سبحانه وتعالى من حيث ما أخبرك به عن نفسه أنه عليه مع اعتمادك على ما اقتضاه البرهان الوجودي مما ينبغي أن يكون الحق عليه سبحانه من التنزيه والتقديس فتجمع بين العلم الذى أعطاك الإيمان، وبين العلم الذى اقتضاه الدليل العقلى، ولا تطلب الجمع بين الطرفين، بل خذ كل طريقة على انفرادها، واجعل الإيمان لقلبك بما أعطاك من معرفة الله بمنزلة البصر لحسك بما أعطاك من معرفة ما تقتضيه حقيقته، وأحذر أن تصرف نظرك الفكرى فيما أعطاكه الإيمان فتحرم عين اليقين فإن الله أوسع من أن يقيد عقله عن إيمان، أو إيمان عن عقل، وإن كان نور الإيمان يشهد العقل من حيث ما أعطاه فكره بصحة ما أعطاه من السلوب، ولا يشهد نور العقل من حيث فكره بصحة ما أعطاه نور الإيمان والكشف، لكن نور العقل به يكون القبول الخارج عن الفكر. يشهد بصحة ما أعطاه الكشف والإيمان^(١).

للشرع نور ولالألباب ميزان والشرع للعقل تأييد وسلطان
والكشف نور ولكن ليس تدركه إلا عقول لها فى الوزن رجحان
وهى وصية طويلة اكتفينا منها بهذا القدر الذى يبين روح الوصية
من التنزيه لله عز وجل والتقديس ومعرفة الله عز وجل وأن الله أوسع
من أن يقيد عقله عن إيمان أو إيمان عن عقل وأن الشرع له نور،
والعقول لها ضوابط وموازين توزن بها والشرع مؤيد لهذه الضوابط،
كما أن الشرع لها سلطان وحاكم وموجه وأن الكشف نور لا تدركه إلا

(١) كتاب الوصايا لمحي الدين بن عربى، ط. الأولى، سنة ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م، ص ٢٠١.

العقول القوية الراجعة فى الفهم والإدراك. ثم يمضى فى وصيته الرائعة التى تأخذ بتلابيب النفس، وتجعل المسلم يسبح فى أنوار الملكوت ولا يدرك كنة هذه الرسالة إلا الذين صفت أرواحهم فاتصلوا بالملكوت الأعلى حيث الأنوار والكشف والمشاهدات، فيقول: (واعلم يا أخى أنه ما انتقش من العلم الإلهى فى العالم إلا قدر ما هو العالم عليه إلى يوم القيامة علواً، وهو قوله سبحانه (وأوحى فى كل سماء أمراً)^(١) وسفلاً وهو قوله تعالى حين ذكر الأرض (وقدر فيها أقواتها)^(٢) فبإذا صفت النفس، وصقلت مرآتها، فلا تقابل بها العالم ليحصل فيها، وينتقش فيها ما فى العالم بأسره، فإنه لا فائدة فيه. ولكن قابل بها الحضرة الذاتية من حيث ما تعلم نفسها مقابلة افتقار وتعريه ليهبها الحق من معرفته ما لا يمكن حصوله إلا بهذه الطريقة. وهذا القدر من العلم هو مما ينتقش فى العالم الخارج عنك، فإن قيل لك، فقد انتقش فى اللوح المحفوظ جميع ما يكون إلى يوم القيامة، وقد علمه القلم الذى هو العقل الأول، وهذا الحاصل لك هو مما فى العالم فكيف الأمر؟^(٣)

قلنا ما انتقش فى اللوح المحفوظ، ولا سطر القلم فيه إلا العلوم التى تنقل، ويأخذها النقل، وإما ما لا ينقل مما يعطيه التجلى الذى أردناه هنا. فما انتقش فى العالم أصلاً وحصوله فى الإنسان إنما هو من الوجه الخاص الإلهى الذى لكل موجود وهو خارج عن علم العقل

(١) سورة فصلت، آية رقم ١٢.

(٢) سورة فصلت آية (١٠) ز

(٣) كتاب الوصايا لمعى الدين بن عربى، ص ٣.

الأول وغيره مما هو دونه فاعلم ذلك^(١). والسبب الموصل إلى نيل ما ذكرناه هو: تفرغ خاطر والقلب من كل علم، ومن الفكر المطلوب لاقتناء العلوم ونحو ما كتب، ونسيان ما علم، والجلوس مع الله على الصفا، وتجريد الباطن من التعلق بغير ذات الحق جل جلاله^(٢).

قال بعض المشايخ قلت لرديم رحمه الله: أوصني بوصية فقال لى: ليس غير بذل الروح، فإن قدرت على ذلك وإلا فلا تشغل بنزهات الصوفية^(٣). وعن جعفر الخلدى رحمه الله أنه قال: كان الجنيد رحمه الله يوصى لرجل، ويقول: قدم نفسك وأخر عزمك، ولا تقدم عزمك وتأخر نفسك فيكون فيها إبطاء كثير. وقال أبو سعيد الخراز، يوصى بوصية لبعض أصحابه: احفظ وصيتي أيها المريد وارغب فى ثواب الله تعالى، وإنما هو أن ترجع إلى نفسك الخبيثة فتذيبها بالطاعة، وتفارقها وتميتها بالمخالقة، وتذبحها بالإياس فيما سوى الله، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ويكون الله حسبك، وتسارع فى جميع الخيرات، وتعمل فى جميع المقامات، وقلبك وجل أن لا يقبل منك، فهذا حقائق القبول والإخلاص والصدق، حتى تتخلص وتصير إلى الله تعالى، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد^(٤).

وخطب على كرم الله وجهه يوماً خطبة فقال فيها: اعلّموا أنكم

(١) ذاته، ص ٤.

(٢) ذاته يتصرف.

(٣) اللمع لأبى نصر السراج الطوسى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، ص ٣٣٤، سنة ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م، دار الكتب ومكتبة المثنى.

(٤) ذاته، ص ٣٣٥.

ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا تغرّكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء مخوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها منها فى رخاء وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور. أحوال مختلفة وتارات منصرفة. العيش فيها مضموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة. ترميهم بسهامها وتقصيمهم بحمامها ... إلخ^(١).

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالى فى بدنك؟^(٢).

قال على كرم الله وجهه فى خطبته: أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها، فإنما متلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقاً وكانهم قطعوه وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم فى الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفل عنه^(٣). وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال: يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم

(١) إحياء علوم الدين للغزالي، ج ٣، المكتبة التجارية الكبرى، ص ٢١٢، ٢١٣.

(٢) ذاته.

(٣) ذاته، ص ٢١٤.

تصدقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون، عباد الله إنكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرايبكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه^(١).

وصية أوصى بها ذو النون لبعض إخوانه، فقال: يا أخى اعلم أنه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعز من التقى ولا عقل أحرز من الورع، ولا شفيح أنجح من التوبة، ولا لباس أجل من العافية، ولا وقاية أمنع من السلامة، ولا كنز أغنى من القنوع، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، والرغبة مفتاح التعب ومطية النصب، والحرص داع إلى التهجم فى الذنوب، والشر جامع لمساوى العيوب، ورب طمع كاذب وأمل خائب ورجاء يؤدى إلى الحرمان وإرباح ينول إلى الخسران. وأتى رجل ذا النون المصرى رحمه الله، فقال له: أوصنى، فقال له: أوصيك إن كنت أيدت فى علم الغيب بصدق التوحيد فقد سبق لك قبل أن تخلق من لدن آدم عليه السلام إلى يومك هذا دعوة النبيين والمرسلين فذلك خير لك، وإن تكن غير ذلك، فأنى ينقذ النداء الغرقى؟!^(٢).

ودخل رجل على إبراهيم بن شيبان رحمه الله، فقال له: أوصنى بشىء، فقال له إبراهيم: اذكر الله ولا تنسه، فإن لم تستطع ذلك فلا تنس الموت. قيل لبعض المشايخ: أوصنى، فقال: امحُ اسمك من ديوان القراء. وقيل لأبى بكر الواسطى رحمه الله: أوصنا. فقال: عدوا أنفاسكم وأوقاتكم والسلام. وقيل لآخر: أوصنى. فقال: القلة والذلة

(١) ذاته، ص ٢١٣.

(٢) ذاته، ص ٣٣٥.

واللحوق بالله عز وجل^(١).

وللجنيد، فى بعض وصاياه، يقول: يا أخى، فاعمل، ثم اعجل قبل أن يعجل الموت بك، وبادر، ثم بادر قبل أن يبادر إليك وقد وعظك الله تعالى فى الماضين من إخوانك، والمنقولين من الدنيا من أقرانك وأخذائك، فذاك حظك الباقي عليك، والنافع لك، وكل ما سوى ذلك فعليك لا لك، وهذه موعظتى لك ووصيتى إليك، فاقبلها تحمداً الأمر بقبولها وتفوز باستعمالها والسلام^(٢).

وبطش سليمان بن عبد الملك الأموى هو وحاشيته كان حاقراً لأن يبرز من بين صفوف المتصوفة، العابد الحر، أبو نصر الطائى فيحمل منسأته ويقترح على سليمان بن عبد الملك قصره ويقول له: (سأطلق لسانى بما خرسى عنه الألسن، تأدية لحق الله تعالى، إنه قد اكتفوك رجال أساعوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدنيهم، ورضوا بسخط ربهم، وخافوك فى الله، ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للأخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضيقاً والأمة كسفاً وخسفاً، وأنت مسئول عما اجترموا، وليسوا مسئولين عما اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غيباً من باع آخرته بدنياه غيره)^(٣).

ويقول صاحب شذرات الذهب، تعقيباً على كلمات الطائى: (لقد كانت تلك الكلمات فى سبيل الله أركى من الجيوش الواثبة، فقد خنس

(١) ذاته، ص ٣٣٦.

(٢) ذاته، ص ٣٣٧.

(٣) زهر الأدب للحصرى، ج ١، ص ٢٣٣.

بطانة سليمان ولم ترفع رأسها بشر حتى وفاته^(١).

ودخل الصوفي العابد الإمام الأوزاعي على الخليفة العباسي الثاني المنصور. فقال له، وهو من أدب النصيح البليغ: (إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها، وقتيلها ونقيرها. ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من راع بيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة"، فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالقسط فيما بينهم قائماً، لا يتخوف محسنهم منه رهقاً، ولا مسيئهم عدواناً، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين، فأناه جبريل فقال: يا محمد. ما هذه الجريدة بيدك؟ أقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً — فكيف من سفك دماءهم وشقق أبصارهم، وأنهب أموالهم.

واعلم أن السلطان أربعة: أمير يظلف نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله، وصلاته سبعون ألف صلاة، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف. وأمير رتع ورتع عماله، فذلك يحمل أثقالاً وأثقالاً مع أثقاله. وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله، فذلك الذى باع آخرته بدنياه غيره، وأمير يرتفع ويظلف عماله فذلك شر الأكياس^(٢). ومن النصائح المفيدة قول ابن عطاء الله السكندرى: (يا عبد الله دينك هو رأس مالك فإن ضيعته ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره وقلبك بمحبته وجوارحك بخدمته واحرث وجودك بالمحارث حتى يجىء البذر فينبت،

(١) شذرات الذهب فى خبر من ذهب لابن العماد الحنبلى.

(٢) عيون الأخبار، ج ٣، ص ٢٣٩، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ومن فعل بقلبه كل ما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه - مثالك مثال رجلين اشتريا أرضا قياسا واحدا فأخذها الواحد فنقاما من الشوك والحشيش وأجرى بها الماء وبذرهما فنبتت وجنى منها وانتفع بها فهذا كمن نشأ فى الطاعة قد أشرقت أنوار قلبه، وأما الآخر فإنه أهملها حتى نبت فيها الشوك والحشيش وبقيت مأوى للأفاعى والحيات فهذا قد أظلم قلبه بالمعاصى^(١).

وكتب الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى إلى السلطان الغالب بأمر الله ينصحه ويوجهه، وكان السلطان قد بعث إليه برسالة سنة تسع وستمئة، وجاء فى رسالة ابن عربى: (بسم الله الرحمن الرحيم، وصل الاهتمام السلطانى الغالب بأمر الله، أدام الله عدل سلطانه، إلى والده الداعى له، محمد بن عربى، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية، والنصيحة السياسية الإلهية، على قدر ما يعطيه الوقت، ويحتمله الكتاب، إلى أن يقدر الاجتماع ويرتفع الحجاب)^(٢).

إلى أن يقول: (فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم، وإظهار المعاصى، وتسليط التواب السوء بقوة سلطائك على الرعية الضعيفة، فإن الله أقوى منك، فيحتكمون فيهم بالجهالة والأغراض وأنت المسئول عن ذلك، فيا هذا قد أحسن الله إليك، فأنصف المظلوم من الظالم، ولا يغرنك أن الله وسع عليك

(١) تاج العروس للسكندرى، ص ٣٨.

(٢) الفتوحات المكية، ج ٢، ص

سلطانك، وسوى البلاد لك ومهدا مع إقامتك مع المخالقة والجور وتعدى الحدود، فإن ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هذه الصفات، بامهال من الحق لا إهمال، وما بينك وبين أن تقف بأعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى، وتصل إلى الديار التي سافر إليها آباؤك وأجدادك. يا هذا ومن أشد ما يمر على الإسلام والمسلمين وقليل ما هم رفع النواميس والتظاهر بالكفر، وإعلاء كلمة الشرك.

وأدب الوعظ في جملة هو من هذا اللون الذي نتحدث عنه وهو أدب النصيحة والوصية، والوعظ وجد منذ وجد الإسلام للحاجة إليه، ولا يعنينا الوعظ هنا، إلا إن صدر من صوفى كبير، فتحمله حينئذ محمل النصيحة والوصية، ومنه ما يقول عمر بن الخطاب: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فيشرح ذلك الإمام الغزالي فيقول: إنما حساب المرء لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت ويتدارك ما فرط من تقصيره حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة: فهذا يدخل الجنة بغير حساب. وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه: فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلبله، وهذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوعني وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى، وهذا يقول عاملتني فغششتني وأخفيت عني عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول رأيته محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمته، وهذا يقول وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظالم عني فداهنت الظالم وما راعيتني فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبتهم، وأحكموا في تلايبك أيديهم، وأنت مبهور متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم، أو جالسته في مجلس إلا وقد

استحق عليك مظلمة بغية أو خيانة أو نظير بين احتقار، وقد ضعفت
عن مقاومتهم، مددت عنق الزجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من
أيديهم، إذ فزع سمعك نداء الجبار جل جلاله : ﴿ اليوم تجزى كل نفس
بما كسبت ﴾^(١)، لا ظلم اليوم، فعندئذ ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن
نفسك بالبور، وتنتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان نبيه حيث قال: ﴿
ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص
فيه الأبصار مهطعين مقتنعين رعوهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم
خواء ﴾^(٢) فما أشد حزنك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك
أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقت ربك على بساط العدل،
وشوفيت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على
أن ترد حقاً أو تظهر عذراً. فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها
عمرك وتنقل إلى خصماتك عوضاً عن حقوقهم^(٣).

(١) سورة فاطر الآية ١٧ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٢ .

(٣) الإحياء، ج ٤، ص ٥٤٦.

التصوف النفسى

إن الحديث عن خطرات النفس تغص به كتب الأدب الصوفى ويظهر جلياً فى مؤلفات المتصوفة، ويعد أصلاً لجميع الدراسات النفسية التى ظهرت فى العصر الحديث. فقد كان للوصفية تحليلاتهم الدقيقة للنفس الإنسانية فنرى الصوفى "عبد الله التستري" يتحدث عن اللا شعور الجمعى، أو اللا شعور الكلى، والذى يسميه التستري (كلية القلب) أو (سويداء القلب) أو (جمهور القلب) وبذلك يكون "التستري" سبق "يونج" بعشرة قرون كما سبق (الترمذى) و (فرويد) بعشرة قرون أيضاً حين تحدث قبل (فرويد) عن نظريته الثنائية (الحياة والموت)^(١). ولقد كان للقرآن الكريم أثر كبير وواضح فى دراسة النفس الإنسانية لدى الصوفية، فكان القرآن العظيم النبع الصافى لمعرفة النفس لدى الصوفية^(٢).

وقد وردت النفس فى القرآن الكريم للدلالة على معانٍ متعددة كما تحدث الله عز وجل فى القرآن الكريم عن النفس حديثاً عظيماً رائعاً فيقول الله عز وجل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣) ومن الأمثلة على استعمالها للدلالة على الإنسان ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾^(٤) وقوله سبحانه ﴿أَنَّهُ مِنْ قَتْلِ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادِ

(١) التصوف النفسى للدكتور/ عامر النجار، ط. دار المعارف، سنة ١٩٨٣م، ص٦ بتصرف.

(٢) ذاته، ص٣٩.

(٣) الملك، آية ١٤.

(٤) البقرة، آية ٤٨.

فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»^(١) وقوله عز وجل «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم»^(٢). كما وردت للدلالة على الذات الإلهية مثل قوله تعالى «اصطفيتك لنفسى»^(٣) وقوله عز من قائل «قل الله كتب على نفسه الرحمة»^(٤) كما ورد استعمالها للإشارة إلى طوية الإنسان وضميره فى قوله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»^(٥) وقوله سبحانه «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه»^(٦) وللدلالة على أصل واحد للبشر مثل قوله تعالى «الذى خلقكم من نفس واحدة»^(٧) كما وردت أيضًا فى القرآن الكريم كتعبير عن ماهية الإنسان مع تقسيم للنفس الأمانة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، فقال تعالى «ولا أقسم بالنفس اللوامة»^(٨) وقوله سبحانه: «وما أبرئ نفسى إن النفس لأمانة بالسوء»^(٩) وقوله عز وجل «يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية»^(١٠) وقوله سبحانه «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى»^(١١) وقال

(١) المائدة، آية ٣٢.

(٢) يوسف، آية ٣٢.

(٣) طه، آية ٤١.

(٤) الأنعام، آية ١٢٢.

(٥) الرعد، آية ١١.

(٦) ق، آية ١٦.

(٧) النساء، آية ١.

(٨) القيامة، آية ٢.

(٩) يوسف، آية ٥٣.

(١٠) الفجر، آية ٢٧.

(١١) النازعات، آية ٤٠.

صلى الله عليه وسلم: "أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصعد عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة"^(١) ومخالفة النفس لدى الصوفية رأس العبادة وقد سئل المشايخ عن الإسلام فقالوا: (ذبح النفس بسيوف المخالفة)^(٢) ولقد كان القرآن الكريم هو النبع الخالص لدى الصوفية لفهم النفس والفرق واضح بين دراسات الصوفية للنفس، ودراسات الفلاسفة (فقد كان هؤلاء يحللون النفس في حدود المنطق والعقل. بينما كان الصوفية يزيدون على ذلك بأن يربطوا العقلية المجردة بالعقلية الدينية، وإذا كان الوازع عند الفلاسفة هو العقل فإن الوازع عند الصوفية هو العقل والوجدان، وهذا ما دعا إلى اهتمامهم البالغ بالدراسة النفسية التحليلية، وعنايتهم بالنية والسلوك)^(٣) ويعرف القشيري النفس لدى الصوفية فيقول: (ليس المراد من إطلاق لفظ النفس عند القوم)، النفس الشيء في اللغة وجوده ويقول صاحب الأمالي في التعريف اللغوي (نفس الإنسان وغيره من الحيوان التي إذا فقدتها خرج عن كونه حياً)^(٤)، وعند القوم، ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود، ولا القلب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس، ما كان معلولاً من أوصاف العبد ومزموماً من أخلاقه وأفعاله^(٥).

(١) رواه ابن عدي عن جابر بسند ضعيف.

(٢) الرسالة القشيرية، ج ١، ص ٤٤٠.

(٣) الدراسات النفسية عند المسلمين للدكتور عبد الكريم العثمان، ص ٢٢، وأيضاً التصوف النفسى للدكتور عامر النجار، ص ٤١.

(٤) الأمالي للمرزباني، ج ٢، ص ٦.

(٥) الرسالة القشيرية، ص ٣٠٥، ٣٠٦.

وهنا نجد تمييزاً واضحاً بين النفس والروح فالنفس على حد تعبير القشيري "لطيفة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون الجملة مسخراً بعضها لبعض والجميع إنسان واحد"^(١).

ويدرك الترمذى الحكيم أحد صوفية القرن الثالث البارزين حقيقة النفس فيقول عنها: (أرض شهوانى، ميل إلى شهوة عقب شهوة ومنية على أثر منية، لا تهدأ ولا تستقر، فأعمالها مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً، مرة عبودية ومرة ربوبية، ومرة استسلام، ومرة تملك، ومرة عجز، ومرة اقتدار، فإذا رخصت النفس وأديت انقادت)^(٢). وأما ذلك الصوفى النفسى العظيم سهل التستري فيستعمل فى بعض الحالات كلمة "النفس" لتعنى ذات الإنسان الباطنية من غير أن تكون بالضرورة مرتبطة بالطبع الكثيف ولكنه رغم ذلك ما يزال يحتفظ بالترقة الحاسمة بين النفس بهذا المعنى السابق وبين قمة الروح الأعلى. وهذه التفرقة تتمثل فى كون النفس تتجه دائماً إلى إثبات الذات والأنانية الخاصة المتفردة المستقلة بين تسلم الروح ذاتها طبيعياً إلى الله سبحانه وتعالى^(٣).

ثم يقول التستري: (لما أراد الله عز وجل إظهار ملكه ملك النفس ملكه بلا استغناء عنه، وجعلها تدعى ذلك الملك وأمر العبد بمخالفتها).

ونتفق مع رأى الدكتور جعفر الذى يقول فيه: (ويبدو أن اختلاف حديث سهل عن النفس والروح يرجع إلى اختلاف فى وجهة النظر

(١) الرسالة القشيرية طبعه صبيح، ص ٥٧.

(٢) نوادر الأصول للترمذى، ص ٢٠١.

(٣) من التراث الصوفى، ج ١، ص ١٣٦، ١٣٧، للدكتور جعفر.

باعتبار حالة النفس ذاتها ومدى انسجامها مع الروح، فكثيراً ما يصرح سهل بأن النفس إذا اتسقت رغباتها مع الروح وأسلمت القياد لها لحقت بها وتورت وأضحت قريبة جداً من مقام الروح ذاتها^(١). وهنا يبرز سؤال وهو هل النفس واحدة أم ثلاث؟ والجواب على ذلك أنه قد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، وأن من الناس من تغلب عليه هذه النفس، ومنهم من تغلب عليه النفس الأخرى ودليل ذلك قول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(٢).

وبقوله سبحانه ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾^(٣) وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤) والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم. فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها وذلك بعبوديته ومحبتة، والإنابة والرجوع إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه، فالطمأنينة إلى الله سبحانه هي حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعها عليه، وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه، ومفاصله، وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده، وقلبه ومفاصله

(١) ذاته.

(٢) سورة الفجر، آية ٢٧.

(٣) سورة القيامة، آية ١، ٢.

(٤) سورة يوسف، آية ٥٣.

إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية^(١) إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذى أنزله على رسوله كما قال سبحانه وتعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(٢) كما أن طمأنينة القلب هى سكوته واستقراره بزوال القلق والاضطراب عنه^(٣). ولا يحصل ذلك للعبد إلا باللجوء إلى الله وذكره سبحانه وتعالى وما عدا ذلك مثل الاتكال على البشر، واتخاذهم وسطاء لدى السلاطين والحكام والوجهاء من القوم وذلك للقيام بخدمتهم ومساعدتهم، وتحقيق مآربهم ومطامعهم فى الحياة، فذلك عجز والاطمئنان إلى هؤلاء غرور والنقمة بهم عجز. فإذا قضى الله قضاءً فلا مرد له، فالطمئن بغير الله منزعج قلق دائماً، ومضطرب مهما كان جبروت وسلطان من اعتمد عليه ووثق به، فالاطمئنان الحقيقى يكون بالله سبحانه وذكره عز وجل وبخاصة حين نزول البلائى والنوائب، وحينما تدلهم الخطوب، وتتوالى الكروب.

وأما النفس اللوامة وهى التى أقسم بها سبحانه وتعالى فى قوله (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) فهى مختلف فيها فتقول طائفة: هى التى لا تثبت على حال واحدة. وقد أخذوا هذا اللفظ من (التلوم) وهو التردد فهى نفس كثيرة التلون والتقلب وهى من أعظم

(١) الروح لابن القيم، ص ٢٦٠، دار مكتبة التريبة بيروت لبنان، سنة ١٤٠٧هـ،

١٩٨٧م، بتصرف.

(٢) سورة الرعد الآية ٢٨ .

(٣) الروح لابن قيم الجوزية، ص ٢٦٠ بتصرف.

آيات الله، فهي مخلوق من مخلوقاته تتلون وتتقلب فى الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام ألواناً متلونة فهي: تذكر، وتغفل، وتقبل، وتعرض، وتلطف، وتكشف، وتتيب، وتجفو، وتحب، وتبغض، وتقرح، وتحزن، وترضى، وتغضب، وتطيع، وتنقى وتفجر، فهي تتلون كل وقت ألواناً كثيرة وقالت طائفة إن اللفظة مأخوذة من اللوم يقول الحسن البصرى: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائماً. يقول ما أردت بهذا؟ لما فعلت هذا؟ كان غير هذا أولى^(١).

وقال غيره هي: نفس المؤمن توقعه فى الذنب، ثم تلومه عليه وهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقى فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها وتلومه على فواته، وقالت فرقة أخرى إن هذا اللوم يكون يوم القيامة فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً فعلى إساءته، وإن كان محسناً فعلى تقصيره^(٢).

وهذه الأقوال كلها حق، ولا تنافى بينها حيث إن النفس موصوفة بهذا كله واللومة نوعان: لومة ملومة: وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملانكته.

ولومة غير ملومة: وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله، مع بذله جهده، فهى نفس غير ملومة.

وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله، واحتملت ملامة اللاتمين فى مرضاته^(٣). وأما النفس الأمارة بالسوء فهى النفس

(١) ذاته، ص ٢٦٦.

(٢) ذاته بتصرف.

(٣) ذاته، ص ٢٦٧.

المذمومة التي تأمر صاحبها بكل سوء وهذا من طبيعتها وهجيرها، ولا يستطيع أحد أن يتخلص من هذه النفس إلا بتوفيق من الله عز وجل كما قال سبحانه حاكياً عن امرأة العزيز ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾^(١). وقال عز وجل ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم﴾^(٢) وقال سبحانه لأكرم خلقه عليه، وأحبهم إليه (ولولا ثبوتك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً)^(٣). وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة وهي: (الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)^(٤) فترى الشر كامناً في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال. فإن خلَّ الله بين العبد ونفسه هلك بين شرها، وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله، وقد امتحن الله عز وجل الإنسان بهاتين النفسين (الأمارة، اللوامة) كما أنه أكرمه بالنفس المطمئنة.

إن في نفس واحدة تكون أحياناً مطمئنة وأحياناً لوامة وأحياناً أماراة بالسوء، وهي غاية كمالها وصلاحها وأيد الله المطمئنة بجنود عديدة فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويربها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويربها قبح صورته، وأمدّها بما علمها من القرآن والأحكام وأعمال

(١) يوسف، آية ٥٣.

(٢) سورة النور، آية ٢١.

(٣) الإسراء، آية ٧٤.

(٤) الروح لابن القيم، ص ٢٦٧.

البر وجعل وفود الخيرات ومراد التوفيق تتابها وتصل إليها من كل ناحية، وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ويطيل فى الأمل ويريه الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها^(١)، وأما النفس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والنوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده^(٢).

(١) ذاته، ص ٢٦٨، بتصرف.

(٢) ذاته، ص ٢٦٩، بتصرف.

بين النفس والروح

اختلف العلماء فى النفس والروح: هل هما شىء واحد؟ أو شيئان متغايران؟ ذهب إلى الأولى الجمهور، وصححه ابن القيم والحافظ السيوطى، وصوبه ابن رشد من المالكية، وبه جزم ابن السبكى وغيره وعليه فالنفس والروح مترادفان على معنى اللطيفة الربانية التى بمفارقتها يموت الإنسان. لا يتغيران إلا فى التذكير والتأنيث فالنفس مؤنثة وقد تذكر على إرادة الروح، والروح مذكر وقد يؤنث على إرادة النفس. وإلا فى أن تسمية تلك اللطيفة الربانية روحًا باعتبار أن بها حياة الجسم، ونفسًا باعتبار شهوتها^(١). ويقول الإمام الغزالى فى بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل: أن لفظ القلب يطلق لمعنيين أحدهما: اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجنب الأيسر من الصدر هو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه^(٢)، ونعنى بذلك أنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة، والمعنى الثانى: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب، والمعاقب، والمعائب والمطالب. ولها علاقة مع القلب الجسمانى، أما الروح: فهذا اللفظ يطلق على معنيين: أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة، والحس والبصر، والسمع والشم منها على

(١) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، دار الاعتصام،

ص ١٦٣.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى، ج ٣، ص ٣.

أعضاءها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستتير به، فالروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه^(١)، والمعنى الثانى: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو المراد بقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾^(٢). وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته، أما النفس فهو لفظ مشترك بين معانٍ كثيرة، والذي يعنينا هنا بعض معانيها الذى يتعلق بموضوعنا، وهو أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لابد من مجاهدة النفس وكسرها وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام "أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك". والمعنى الثانى: هى اللطيفة التى هى الإنسان بالحقيقة، وهى نفس الإنسان وذاته بيد أنها توصف بأوصاف متباينة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله عز وجل: ﴿يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية﴾ وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة عليها سميت "النفس اللوامة"^(٣) لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه قال تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى

(١) ذاته، ص ٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٣) ذاته، ص ٤.

الشهوات ودواعي الشيطان سميت "النفس الأمارة بالسوء" قال تعالى: ﴿وَمَا أْبْرئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بِالسَّوْءِ﴾ وأما العقل: فإنه يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب، وقد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة. ويقول النبي ﷺ: "أول ما خلق الله العقل" ^(١) وفي الخبر أنه قال له: "أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر..." ومن السابقين إلى القول باتحاد النفس والروح (الإمام الغزالي) بل زاد عليهما (القلب، العقل، السر) وقال خمستها بمعنى واحد، ووافقه على ذلك المحققون من الصوفية، ومما يدل على أن النفس تطلق على الروح كما تطلق الروح على النفس، قول النبي ﷺ (إن الروح إذا قبض تبعه البصر) وقول الرسول عليه السلام (ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره؟ قالوا: بلى. قال: فذلك حين يتبع بصره نفسه) ^(٢)، فالروح والنفس اسمان لمسمى واحد.

وكذلك ما جاء في قصة نومه صلى الله عليه وسلم، ونوم أصحابه في الوادي، وهم راجعون من غزوة خيبر عند صلاة الصبح حتى طلعت الشمس وحميت، وكان قد أمر بلالاً أن يرقب لهم الفجر فنام الجميع، ولما استيقظ الرسول عليه السلام قال: (إن الله قبض أرواحنا). وقال لبلال: (ماذا صنعت بنا يا بلال؟) فقال: "أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك" ^(٣). وقد ورد لفظ (الروح) في القرآن الكريم في آيات كثيرة ولمعان متباينة.

(١) ذاته، ص ٤.

(٢) ذاته، ص ٤.

(٣) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد. الظاهر خليفة، ص ١٦٤.

أولاً: الروح: وهو ما به حياة البدن، وهو السر الإلهي، والأمر الخفي الذي استأثر الله بعلمه سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾^(١).

ثانياً: القرآن العظيم: قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾^(٢).

ثالثاً: الوحي الذي يوحى الله إلى أنبيائه ورسله: يقول سبحانه (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)^(٣) وقال تعالى: (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق)^(٤) فالروح هنا معناه الوحي.

رابعاً: ومن معاني الروح أيضاً سيدنا (جبريل) عليه السلام: قال تعالى: ﴿وأوتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾^(٥) والمعنى قوينا عيسى عليه السلام بالروح المقدسة من المعاصي والمخالفات والأفذار، وقال سبحانه ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾^(٦) فالروح هنا جبريل عليه السلام، وعطف الروح على الملائكة عطف خاص على عام وقال سبحانه ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها

(١) سورة الإسراء، الآية رقم ٨٥.

(٢) سورة الشورى، آية رقم ٥٢.

(٣) سورة النحل، آية رقم ٢.

(٤) سورة غافر، آية ١٥.

(٥) سورة البقرة، آية رقم ٨٧.

(٦) سورة القدر، آية رقم ٤.

من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»^(١) وقال سبحانه «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين»^(٢) فالروح فى هاتين الآيتين هو جبريل عليه السلام.

خامساً: اختصاص سيدنا عيسى عليه السلام بأنه روح من الله تعالى: قال تعالى: «إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»^(٣) ومعنى روح منه أن عيسى عليه السلام ذو روح من الله أضيف إليه تعالى تشریفاً لسيدنا عيسى عليه السلام.

سادساً: ومن معانى الروح أيضاً فى القرآن الكريم القوة والثبات والنصر الذى يؤيده الله من يشاء من عباده المؤمنين قال تعالى: «ولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه»^(٤).

(١) سورة الأنبياء، آية رقم ٩١ .

(٢) سورة التحريم، آية رقم ١٢ .

(٣) النساء، آية رقم ١٧١ .

(٤) سورة المجادلة، آية ٢١ .

ويقول ابن سينا^(١) فى النفس^(٢) :

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تعزز وتمنع
محبوبة عن كل مقلة ناظر	وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهى ذات توجع
أنفت وما أنست فلماو اصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهدود بالحمى	ومنازلاً بفراقها لم تقنع
تبكى إذا ذكرت عهدوداً بالحمى	بدماع تهمى ولم تنقطع
وتظل ساجدة على الدمن التى	دُرست بتكرار الرياح الأربع

البيت الأول : هبطت: نزلت، المحل الأرفع: عالم العقول
المجردة، ورقاء: الحمامة والمراد بها هنا النفس، والتعزز: التماسك مع
تعاضم، والتمنع: شدة الإباء.

والمعنى: أن ابن سينا جرد من نفسه شخصاً يخاطبه. أو أنه سأل
إنسان من أين وصلت النفس إلى البدن؟ فأجاب بقوله: هبطت من المحل
الأشرف الأرفع إلى هذا الحضيض الأخص الأوضع وأراد بكونها ذات تعزز
وتمنع أن إدراك النفس صعب جداً لا يتحقق إلا بالاستدلال عليها بآثارها.

البيت الثانى: محبوبة: مستورة، سفرت: ظهرت وكشفت وجهها،
ولم تتبرقع: أى لم تلبس البرقع.

(١) ابن سينا: هو الرئيس أبو على الحسين بن على بن سينا. ولد فى إحدى قرى بخارى
سنة ٣٧٥ هجرية، وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات ومهر فى الطب والمنطق وهو
ابن ست عشرة سنة.

(٢) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد الظاهر خلیفة، ص ١٦٨.

والمعنى: أن النفس مع كونها ممنوعة عن الإدراك بالحواس الظاهرة فهي مدركة بالعقل، وظاهرة لكل عاقل من الناس بآثارها.

البيت الثالث: الكره: (بضم الكاف) القهر (وبالفتح) المشقة وقيل: بالفتح الإكراه، وبالضم: المشقة.

والمعنى: أن النفس إنما اتصلت بهذا الهيكل مكرهة مقهورة، وأنها بعد اتصالها ربما كرهت فراقه.

البيت الرابع: أنفت: تعاضمت، والأنس: ضد الوحشة، واصلت: المواصلة ضد المهاجرة، والألفة: الالتئام، والبلقع: الأرض القفر التي لا شيء بها من نبات وماء وغيرهما.

الحمى: (بكسر الحاء) المكان المحفوظ الذي لا يقربه أحد احتراماً لمالكه، لم تقنع: القناعة والمقنع: الرضا بالقليل^(١).

تهمى: تسيل، ولم تنقطع: لم تجف. تظل: تكوم، وساجعة أى تغرد الحمامة وتردد صوتها على وجه واحد. والدمن (بكسر ففتح) جمع دمنة وهى ما بقى من آثار الديار ورسومها، أو ما سود منها بالرماد، والمراد بها هنا أجزاء البدن، ومعنى درست: ذهب أثرها، والرياح الأربع المراد بها: الطبائع الأربع. وهى: الحرارة والبرودة والرطوبة به واليبوسة، وفى هذا البيت تصريح (من الناظم كما قال المناوى) ببقاء النفس: أى الروح بعد الموت^(٢).

(١) الحياة البرزخية من الموت إلى البعث تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، دار الاعتصام،

ص ١٦٩.

(٢) ذاته، ص ١٧٠، ١٧١.

الحوار:

ومن ألوان النثر الصوفى (الحوار). ويقول ابن منظور: المحاورَة (المجاوبة) والتحاور (التجاوب)^(١). قال تعالى: (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)^(٢). ومعنى والله يسمع تحاوركما أى والله جل وعلا يسمع حديثكما، ومراجعتكما الكلام. فالمحاورَة: المراجعة فى الكلام. مأخوذ من (حار الشيء يحور إذا رجع يرجع ومنه الدعاء المأثور (نعوذ بالله من الحور بعد الكور) ومعناه نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة وقيل معناه (نعوذ بالله من فساد أمورنا بعد صلاحها)^(٣).

قال عنترَة العبسى فى وصف فرسه:

لو كان يدرى ما المحاورَة اشتكى وكان لو علم الكلام مكلّم
وقال تعالى: (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً)^(٤) أى قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله^(٥).

والمتصوفة يفسرون العبادات تفسيراً روحياً، حيث يقرنون بمشاعرهما وأعمالها مشاعر وأعمالاً وجدانية روحية يجب على من يسلك طريقهم أن يقوم بتأديتها، والحرص عليها وذلك حوار بين الإمام

(١) لسانا لعرب لابن منظور مادة (حور) ومختار الصحاح مادة (حور)، ص ١٦١.

(٢) المجادلة، آية رقم ١.

(٣) صفوة التفسير للصابونى، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٤) سورة الكهف، آية رقم ٣٧.

(٥) تفسير الصابونى، ج ٢، ص ١٩٢.

(الجنيد) وأحد الصوفية وهو: يروى أنه جاء رجل إلى الجنيد بعد أن فرغ من أداء فريضة الحج وقضاء المناسك، فقال له "الجنيد" أرحلت عن جميع ذنبك حين رحلت عن دارك؟ فقال لا. قال: فأنت لم ترحل: ثم قال الجنيد: وبعد كل مرحلة نزلت، حيث تتلبث بالليل، هل قطعت مرحلة إلى الله؟ قال الرجل: لا. فقال الجنيد: فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة. ثم قال الجنيد: وحين لبست ثوب الإحرام فى موضعه، هل خلعت صفات البشرية عنك وأنت تخلع ثيابك؟. قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تحرم! ثم قال الجنيد: وحين وقفت بعرفة هل تأملت فى الله لحظة واحدة؟ فقال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تقف بعرفة! ثم قال الجنيد: وحين أفضت إلى المزدلفة وقضيت مناسكك هل رفضت جميع الأغراض الجسدية؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تفض إلى المزدلفة! ثم قال الجنيد: وحين طفت بالبيت هل أدركت الجمال الإلهى فى بيت الطهر؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تطف بالبيت. ثم قال الجنيد: وحين سعت بين الصفا والمروة هل أدركت الصفا والمروة؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم تسع! ثم قال الجنيد: فلما جئت إلى منى، هل ذهبت عنك جميع المنى؟ قال الرجل: لا. فقال الجنيد: فأنت لم تزر منى. ثم قال الجنيد: فلما وصلت إلى المنحر، ونحرت القربان هل نحرت أسباب متاع الدنيا؟ قال الرجل: لا. فقال الجنيد: فأنت لم تتحرر. ثم قال الجنيد: فلما رميت الجمار، هل رميت ما صاحبك من أفكار جسدانية؟ قال الرجل: لا. قال الجنيد: فأنت لم ترم الجمار، بل لم تؤد على ذلك حجاً^(١).

(١) دراسات فى التصوف الإسلامى تأليف محمد عبد المنعم خفاجى، ج٢، الناشر مكتبة القاهرة، ص ٢٢.

الخاتمة

للسوفية على اختلاف طبقاتهم، وعلى مر العصور أدب إسلامي رفيع، ومجال واسع في النثر والشعر، وباع طويل في كل أغراض الأدب، ويحتوى أدبهم على عاطفة صادقة، وتجربة عميقة مع المحافظة على الوحدة العضوية للقصيدة، وعلى الفكرة والمضمون مع الاهتمام بالصورة والشكل، بل إن الأدب الإسلامي بدأت تتضح معالمه بعد ظهور الأدب الصوفي والذي يعد من أروع صور الأدب الإسلامي. وإذا أردنا أن ننشئ أدباً إسلامياً جديداً فإنه يتعين علينا أن نبدأ من حيث بدأ الصوفيون أدبهم، وأن نعود إلى القرآن الكريم لنفهم أصول دعوته ونتعرف في دراسته، فدراسة الأدب الصوفي تعدّ من الدراسات الصعبة التي يحتاج دارسها إلى التسلّح بالإيمان القوى وتحصين نفسه عقدياً حتى لا يتأثر بما يسمونه بالشطح. فالأدب الصوفي أدب رمزي تكثر فيه الإشارات والتلويح والكنائيات والاستعارات والسجع والطباق بصفة خاصة. ونجد أيضاً أن الأدب الصوفي ينم عن شفافية أصحابه وقوة صلتهم بخالقهم وزهدهم في الحياة الدنيا وتطلّعهم إلى الأفاق العليا. فكل ما يرد في أدبهم من ألفاظ ظاهرها الغزل الحسى أو خمر أو سكر لا يقصد به ظاهره وإنما هو ستر لمعانيهم الحقيقية وتغطية لأحوالهم فمن كان على منهجهم فطن إليها ومن لم يكن متذوّقاً لأدبهم نأى عن التورط في معانيها. ونجد كذلك أن الشعر الصوفي لم يأخذ من الشعر التقليدي سوى القالب الموسيقي بينما تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزي الذي يوحى بالفكرة ولا يصرّح بها. فالشعر الصوفي ليس شعراً خطابياً كمعظم الشعر العربي التقليدي. إنما هو شعر أقرب إلى الرومانسية حيث الهيام والوجد والحب وهو يقترب أيضاً من الرمزية الأوربية التي تتخذ الرمز الموضعي الموحى بالعدوى النفسية.

ونجد كذلك أن منهج الصوفية فى المعرفة هو منهج العاطفة والكشف والشهود وليس للدليل والبرهان العقلين عندهم مجال يذكر بل يعتمدون على الذوق الذى يسميه (الغزالي) الحس السادس والذى يميز الإنسان عن سائر الحيوانات ورده الغزالي إلى البصيرة الباطنة والقلب. ولقراءة الأدب الصوفى قراءة خالصة فلا تجدى فيه القراءة الخاطفة بل لابد من أن يقدح القارئ زناد فكره ويغوص وراء المعانى غير مكتف بظاهر اللفظ حتى يتوصل إلى المعانى المقصورة، والمرامى المستهدفة فهو أدب خاص ولمستوى رفيع من الناس.

وفى ختام هذا العمل أشير إلى نقطة مهمة وهى أنه يجب النأى عن القدح فى هؤلاء المتصوفة وأن يكون اللسان عفيفاً ولا يتناولهم إلا بما يليق بهم فهم من طراز فريد ونوع خاص ذلك الذى ترك الدنيا وأقبل على الآخرة بغية الوصال والكشف والمشاهدة.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به إنه نعم المولى ونعم النصير .. آمين.

المؤلف

أ.د. على الخطيب الشطورى

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- إحياء علوم الدين، لأبى حامد الغزالي، ط. دار البيان العربى.
- ٣- الأدب الصوفى، للدكتور محمود فرج العقدة.
- ٤- الأدب الماركسى، للدكتور جعفر.
- ٥- الأعلام لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط. العاشرة، أيلول/سبتمبر، ١٩٩٢م.
- ٦- الاشتقاق لابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون.
- ٧- الأغاني لأبى فرج الأصفهاني.
- ٨- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط. محب الدين الخطيب، ١٩٣٢م، القاهرة.
- ٩- التصوف الإسلامى، أحمد توفيق عياد، الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م.
- ١٠- التصوف عند المستشرقين، العدد ٢٧ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة، للدكتور أحمد الشرباصى.
- ١١- التصوف فى الشعر العربى، عبد الحكيم حسان.
- ١٢- التصوف النفسى، للدكتور عامر النجار، ط. دار المعارف، ١٩٨٣م.
- ١٣- الحياة البرزخية من الموت إلى البعث، تأليف محمد عبد الظاهر خليفة، ط. دار الاعتصام، غرة شهر ربيع الأول ١٣٩٣هـ أبريل ١٩٧٣م.

- ١٤- التصوف الإسلامى لزكى مبارك.
- ١٥- الخطط للمقرىزى.
- ١٦- الدراسات النفسية عند المسلمين للدكتور عبد الكريم العثمان.
- ١٧- الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.
- ١٨- الروح لابن القيم الجوزية، دار مكتبة التربية، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- ١٩- اصطلاح الصوفية لابن عربى، ط. الأولى، ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، ورد هذا الكتاب ضمن رسائل ابن عربى، ط. إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.
- ٢٠- اصطلاحات الصوفية للشيخ كمال الدين عبد الرازق القاشانى.
- ٢١- الطبقات الكبرى للشعرانى، مطبعة محمد على صبيح بالقاهرة.
- ٢٢- العمدة لابن رشيق القيروانى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، لبنان، ط. الخامسة، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- ٢٣- الفتوحات المكية لابن عربى.
- ٢٤- الكشف للزمخشري.
- ٢٥- الكشكول للعالمى.
- ٢٦- اللمع للطوسى، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور.
- ٢٧- المنقذ من الضلال، للغزالي.

- ٢٨- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثالثة، ربيع الأول
١٣٩٢هـ، مايو ١٩٧٠م.
- ٢٩- المدخل إلى التصوف الإسلامى، تأليف محمود أبو الفيض
المنوفى.
- ٣٠- أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى، لأنيس المقدسى.
- ٣١- ابن الفارض والحب الإلهى، لمحمد مصطفى حلمى، دار
المعارف بالقاهرة.
- ٣٢- أمالى المرتضى.
- ٣٣- تلبس إبليس للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن
الجوزى البغدادي، مكتبة الإمام ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- ٣٤- تاريخ الكنيسة المصرية، مجلة الهلال، عدد ديسمبر ١٩٢٧م.
- ٣٥- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان.
- ٣٦- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي،
منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- ٣٧- تفسير القرطبي.
- ٣٨- تاج العروس لابن عطاء الله السكندري، المطبعة العثمانية
المصرية.
- ٣٩- جدد حياتك، للشيخ محمد الغزالي، ط. دار القلم، دمشق.
- ٤٠- حسن المحاضرة للسيوطى، المطبعة الشرقية بمصر.
- ٤١- دراسات فى الأدب الصوفى للدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى،
نشر مكتبة القاهرة.
- ٤٢- ديوان كعب بن زهير.

- ٤٣- ديوان الحلاج، جمعه الدكتور كامل مصطفى الشيمي، أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة بغداد.
- ٤٤- شرح الرندي على الحكم، لمحمد بن إبراهيم بن عباد النكري الرندي الشاذلي المتوفى سنة ٧٩٢هـ.
- ٤٥- ديوان ابن الفارض، كرم البستاني، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.
- ٤٦- دائرة معارف القرن العشرين، للأستاذ محمد فريد وجدي.
- ٤٧- رسالة الحروف للتستري.
- ٤٨- روضة الطالبين وعمدة السالكين لأبي حامد الغزالي.
- ٤٩- رسائل ابن عربي للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٣٦١هـ.
- ٥٠- زهر الآداب للحصري.
- ٥١- شرح رشيد بن غالب لديوان بن القارض، ط. المطبعة الخيرية بالقاهرة.
- ٥٢- شذرات الذهب في خبر من ذهب، لابن العماد الحنبلي، مكتبة القدس، ١٣٥١هـ.
- ٥٣- صحيح البخاري.
- ٥٤- صحيح مسلم.
- ٥٥- صفوة الصفوة، مختصر حلية الأولياء لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ.
- ٥٦- صفوة التفاسير، تأليف محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

- ٥٧- عوارف المعارف للسهروردي، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف بالقاهرة.
- ٥٨- عمر الخيام للشيخ مبشر الطرازي، نشر القاهرة، سنة ١٩٦٠م.
- ٥٩- عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٦٠- عدة الصابرين لابن قيم الجوزية.
- ٦١- كتاب اخناتون لعبد المنعم أبو بكر، سلسلة المكتبة الثقافية، عدد ٣٥.
- ٦٢- لسان العرب لابن منظور، ط. دار المعارف بالقاهرة.
- ٦٣- مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- ٦٤- مذاهب المسلمين في الكلمة، مجلة كلية الآداب، وتعليقاته على نصوص الحكم لابن عربي.
- ٦٥- مسند الإمام أحمد.
- ٦٦- مجلة منبر الإسلام.
- ٦٧- مختار الصحاح.
- ٦٨- من التراث الصوفي للدكتور كمال جعفر.
- ٦٩- نهج البلاغة للإمام علي رضي الله عنه، شرح الشيخ محمد عبده، ط. الأندلس، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م.
- ٧٠- نهاية الإرب للتويري.
- ٧١- نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ أولى المقامات العالية، للإمام اليافعي.

٧٢-نشأة التصوف للأستاذ عبد الكريم الخطيب، العدد ٢٢ من سلسلة
الثقافة الإسلامية.

٧٣- نواذر الأصل في معرفة أخبار الرسول لأبى عبد الله محمد بن
على بن حسن بن بشير المؤذن الحكيم الترمذى.

٧٤- وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان.

محتويات الكتاب

٥	المقدمة
٨	ماهية التصوف
١٤	الفرق بين الفقه والتصوف
١٥	علم التصوف
١٦	اشتقاق كلمتي تصوف ، صوفى
٢٧	العلاقة بين الصوفية والسلفية
٣٥	أصالة التصوف الإسلامى
٣٩	أطوار المعارف الصوفية فى القرن الثالث الهجرى
٤٥	مفهوم التصوف فى الإسلام
٥١	أول من تسمى بالصوفى
٥٤	التصوف والعلم
٥٦	التصوف والعقل
٥٨	المنهج الصوفى
٦٠	منابع التصوف الإسلامى
٦٩	ظهور كلمتي صوفى ومتصوف وأصل هاتين الكلمتين
٨٠	قواعد التصوف
٨٧	كنة التصوف
٨٩	نشأة التصوف الإسلامى وأبرز الشخصيات
١٠٣	الطرق الصوفية
١٠٥	درجات السلوك
١١٣	أفكار المتصوفة
١١٩	بين الزهد والتصوف
١٢٧	اصطلاحات الصوفية

١٥٥	شطحات الصوفية
١٦١	الجنور الفكرية والعقائدية
١٦٥	الشعر الصوفي، سماته وألوانه
١٧٦	الحلاج
١٧٨	نماذج من شعر الحلاج
١٨١	ابن الفارض، نماذج من شعره
١٩٤	رابعة العدوية نماذج من شعرها
١٩٧	النثر الأدبي لدى الصوفية
٢٠٢	أولاً: المناجاة:
٢٠٩	مكاتبات الصوفية والصدور والدعوات والرسائل
٢١١	أولاً: المكاتبات
٢١٣	ثانياً: في صدور الكتب والرسائل
٢١٤	ثالثاً: الدعاء
٢٢٤	الثناء
٢٢٦	الحكمة
٢٢٨	خصائص حكم ابن عطاء الله السكندري
٢٣٠	الزهد
٢٣٦	النصائح والوصايا
٢٤٨	التصوف النفسي
٢٥٧	بين النفس والروح
٢٦٤	الحوار
٢٦٦	الخاتمة
٢٦٨	المصادر والمراجع

Bibliotheca Alexandrina



0374045